

المسيحيون

دكتور زاهر رياض



المسيحيون والقومية المصرية في العصر الحديث

تأليف

دكتور زاهر رياض

رئيس قسم الدراسات الأفريقية
بمعهد الدراسات القطية



صدر عن دار الثقافة ص . ب ١٣٠٤ — القاهرة .
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز ان يستخدم اقتباس او
اعادة نشر او طبع بالرونو للكتاب او اى جزء منه بدون اذن الناشر ،
وللناشر وحده حق اعادة الطبع) ٣٠٥/١٠ ط ٧٩/١ (١) ٣ — ٣
رقم الايداع : ٣٢٢٢ / ٧٩ ترقيم دولى : ٢ — ٨٦ — ٧٠٧١
طبع بمطبعة دار الطباعة القومية بالنجالة

في هذا الكتاب

الصفحة

الموضوع

تقديم

٥

٧

الباب الأول : الحكم العثماني

٣١

الباب الثاني : الحملة الفرنسية

٥٩

الباب الثالث : عصر محمد علي

٧٥

الباب الرابع : عصر اسماعيل

١٠٣

الباب الخامس : عصر الاحتلال البريطاني

١٥٥

الباب السادس : الحركة الوطنية منذ ثورة ١٩١٩

تقديم

كتبت هذا الكتاب منذ امد ليس بالقصير من اجل هدفين وضعتهما امام عيني . اولهما تدعيم الوحدة الوطنية وهو هدف كل مصرى لا فى الوقت الحاضر فحسب . بل طوال تاريخنا كله . منذ ان ضم أهلها وطن واحد . فالعمل على تفتيت هذه الوحدة أو على الأقل الوقوف منها موقفا سلبيا جريمة معناها القضاء على مستقبل هذا الوطن ، قضاء لا رجعة فيها .

أما الهدف الثانى فهو الوقوف أمام سيئى النية والحاقدين والدسائس الذين لا يفتأون يسيئون الى هذا الوطن بترديد دعوى أن المسيحيين تاكلوا دائما عن أداء دورهم الوطنى . بل كانوا فى أوقات كثيرة دعائم الاستعمار الأجنبى . وجعلوا يشوهون مواقف من برز منهم فى المناسبات الوطنية المختلفة من أمثال المعلم يعقوب حنا وبطرس باشا غالى . فالمسيحيون لم يتوانوا مطلقا عن أن يأخذوا مكانهم بين صفوف المجاهدين من أجل هذا الوطن ، بل وقفوا فى بعض الظروف وحدهم . فرغم أنهم أقلية عددية الا أنهم لم يتركهم يوما شعور الأقلية فى غير مصر من البلاد . بل شعروا ويشعرون دائما أنهم أصحاب هذا البلد . وأن ليس لهم وطن آخر يلجأون اليه اذا عز عليهم المقام . أو يطالبون الحماية من بلد أجنبى ، فالوطن وطنهم وان سخط الحاقدون . فأكون قد أردت بهذا الهدف أن أجلو صفحة المسيحيين بعامة وصفحات هؤلاء الناس بخاصة .

واذ كنت قد ألمحت فى معرض الكلام — الى بعض سوء المعاملة الذى وقع بالمسيحيين فى بعض فترات التاريخ الإسلامى فانى أرمى بذلك الى هدفين أيضا أولهما أن أظهر أن هذا لم يكن فى يوم من الأيام سياسة عامة تتبعها الدولة ازاءهم بل كان سياسة بعض الولاة أو الخلفاء أو السلاطين من أجل دواعى شخصية أو استجابة لدعوات أجنبية ظروف خاصة اما الهدف الآخر فهو

أن يقرأها المسيحيون فيحمدون الله على ما يعيشون في ظله الآن من أمن
وطمأنينة وسلام وأرف وحرية يحسدوهم عليها كثيرون ، وأن يقرأها المسلمون
فيعملون دائما على أن لا تتكرر لمواطنيهم في المستقبل هذه المحنة . فالتوى
أن تسامح فعن قوة ، وأن منع فعن تجبر غليس أوتع في نفس المسيحي من أن
يخلو الى نفسه والالم يعتصره ويردد مع الشاعر :
وظلم ذوى القربى أشد غضاظة

على النفس من وقع الحسام المهند

أول اكتوبر سنة ١٩٧٨

زاهر رياض

“ الباب الأول

الحكم العثماني

أجمع المؤرخون جميعاً على أن حكم الدولة العثمانية للولايات التي خضعت لها كان فاسداً بالغ الفساد . وكان أنواع الفساد الموجودة في جميع نظم الحكم العالمية ، قد اجتمعت في بوتقة واحدة لتنصهر وتكون هذا الحكم العثماني ، الذي اتسم بالجهود والعزلة وسوء العلاقة بين الحاكم والمحكوم . فبينما كان العالم خارج الامبراطورية التركية ينمو وينشط ويتعلم كانت الشعوب الخاضعة للحكم التركي جامدة على الحالة التي وجدت عليها في أوائل القرن السادس عشر ، بل أسوأ مما كانت . فقد كانت الدولة التركية دولة حربية قائمة على القوة وحدها ، لا يعنىها الا الفتح . أما غير ذلك فمحتقر غير جدير بالعناية . ولكي تضمن هذه الامبراطورية خضوع الولايات الاسلامية صورت لهم — منذ منتصف القرن الثامن عشر — العالم الخارجى مجموعة من الكفرة الذين لا يستظلون بنعمة الاسلام . ففى الاتصال بهم نوع من الرجس والكفر لا يرضى عنه المسلم الصالح فكفى بالاسلام نعمة تظللهم وكفى بخضوعهم لامر المؤمنين وخليفة المسلمين فخراً . ومن المؤلم أن هذه الشعوب الكبيرة من الشعوب الاسلامية التي تفوق الأتراك في ثقافتهم وعلمهم وسمو ادراكهم قد صدقتهم وبقي هذا الطلسم يحول بين هذه الشعوب النشطة المجدة وبين نور العالم .

وحالت الدولة بين معظم رعاياها وبين الخارج ، فمنعتهم من الخروج الا باذن من السلطان ، ودون هذا الاذن خُرب القتاد وكان من أثر هذه السياسة على اقليم مصر أن تحولت القومية الوطنية فيه الى قومية اسلامية وبات الناس لا يفكرون في بلدهم قدر ما يفكرون في الرابطة الاسلامية ويجدون في هذه الأخيرة بديلاً عن قوميتهم . فكان الحكم التركى بذلك نكبة على قوميتنا . ولكن القومية المصرية الصحيحة قوية ، قديمة ، راسخة ، عميقة الجذور . ولذا لم تلبث الحوادث أن أظهرتها .

وفي خلال هذا العبر الطويل الذى عاشته الدولة التركية ظلت العلاقة بين الحاكم والمحكوم قائمة على سوء الظن وعدم الثقة سواء من السلطان بمن حوله من افراد عائلته أو بينه وبين الحاشية أو بين هؤلاء والجيش والموظفين ، وامتدت هذه الصفة الى عدم الثقة بالحكام المعينين لحكم الولايات . ولذا كان هؤلاء الحكام يعينون لعام واحد ، وقد تمتد مدتهم الى عامين أو ثلاث أو أكثر . ولكن نادرا ما كان يحدث ذلك . وحتى السلطة التى يتمتع بها الوالى كثيرا ما كان يقاسمه فيها غيره من رؤساء الفرق . الذين كانت سلطتهم فى ذلك مطلقة ولذا كانت النتيجة الحتمية لهذا الحال انهيار الدولة انهيارا سريعا . وان ظلت مهتظة بهيكلها الخارجى لأكثر من أربعة قرون .

ومصر التى كانت درة العالم فى القرن السادس عشر ، بالرغم من سوء حكم المالك لها ، قضى عليها هذا الحكم التركى الفاسد . فقد أسرع السلطان سليم فحمل مهرة الصانع الى استنبول . وكانت بينهم نسبة كبيرة من المسيحيين فكانت تلك أولى النكبات التى شهدها البلاد من هذا القادم الجديد ، علاوة على ضياع استقلالها . وشهدت البلاد بعد ذلك قرونا من الانهيار والفساد . فقد اهتدى البرتغاليون قبل الاحتلال التركى بسنين قليلة الى طريق راس الرجاء الصالح من أجل الوصول الى الهند . ثم ملكوا الهند فخرت مصر ما كانت تحصل عليه من مكنوس التجارة الهندية الوفيرة . وبدأ الفقر يخيم عليها ، وكان الفلاح أول من شعر بهذه النكبة ، حين انصب الحكام على هذا المسكين يذيقونه مر العذاب ليستخلصوا منه ما كانوا عليه من دخل التجارة .

وكان النظام الذى فرضه الأتراك لحكم الولايات لا يقصد منه الا مضلحة : (الأم) فقد كان تحديده مدة الولاية باعنا لأن يجعل هذا المنصب مثارا لكثير من « المزايدات » فى العاصمة (استنبول) واتجه حكام الولايات الصغيرة الى نيل هذه الولاية الغنية بالرشى التى اتخذت شكل الوعود ، أو المال المؤجل . أو المدفوع ، أو النساء ، أو صلة القرابة ، أو المصاهرة . حتى اذا فاز الغانم بها لم يكن هدفه موجهها الا الى الاسراع فى جمع الثروة

بطرق أقل ما يقال عنها أنها بعيدة عن النزاهة . فكان من جراء ذلك أن هرب الفلاحون تاركين الأرض دون زراعة . فلم يكن يمر جيل واحد إلا وتحذث مجاعة أو مجاعتان أو ثلاث كما حدث في السنوات ١٦٠٣ ، ١٦٢١ ، ١٦٢٤ ، ١٦٢٥ ، ١٦٤٢ .

ويحدثنا التاريخ أن هذه المجاعة الأخيرة أفنت مائتين وثلاثين قرية . وأعقبها قحط وغلاء . ودأب الجند العثماني خلاله على النهب والسلب ، حتى عجز الولاة عن قمعهم وصارت كل طائفة من الجند تأخذ في حمايتها عددا من التجار أو المزارعين ليقتسموا معهم الأرباح نظير حمايتهم من غيرهم ، ومن أداء حقوق الحكومة .

ويحفظ لنا « السنكسار » من أمثال هذه الحوادث كثيرا . فهو يذكر من حوادث سنة ١٦٢٤ أنه حدث وباء عظيم في أرض الصعيد ولبت قائما من طوبة الى برمودة حتى فنيت الناس وخربت البيوت .

وفي سنة ١٦٢٦ ظهر وباء عظيم في كل الأرض . كما يذكر عند ذكر حياة الأنبا بطرس السادس أنه في سنة نياحة هذا البابا (وقع وباء الطامعون مع قحط شديد فنتيح قسس كثيرون ، وأساقفة ووقع الموت على الناس من الاسكندرية الى أسوان واضطر الناس الى ترك الزرع حتى صاروا يدفنون الناس في الحصر من قلة الأكفان ، وفي تلك السنة تلفت زراعة القمح فلم يسد حاجة البلاد ووقع القحط والغلاء) .

كما يذكر عن حياة البابا مرقس السابع (١٧٤٥ — ١٧٦٩) أنه بعد سنتين من رئاسته « حدثت فتنة عظيمة بين العسكر في مصر قتل فيها كثيرون من الأمراء وهرب البعض منهم الى الصعيد ثم هاجروا إلى الحجاز » .

وكانت الحالة تزداد سوءا حين يسود نفوذ بعض قبائل العرب . ففي بعض الأوقات سيطرت الهوارة على الصعيد وأغاروا على القرى ونهبوها (١) وأكثر من ذلك حين يتحد الأمراء مع العرب على هذا النهب .

(١) الجبرتي ج ١ ص ٤٩ .

فكثيرا ما جمعوا المراكب وحجزوها ، وعطلوا أسباب التجارة ، والمسافرين ، وجمعوا الأموال من المصادرات والمقتزمين والفلاحين (١) .

وكان الاستعداد للحج وقيام المحمل ، يبدأ في العادة في شهر جمادى الأولى ، حين يقلد أمير الحج . فاذا ما أهل رجب ، فرضت ضريبة خاصة على التجار (٢) وصودرت البهائم ، وأخصها الخيول والبغال (٣) . ولسكن الناس سرعان ما ينسون ما حل بهم اذا ما رأوا جمل المحمل يتبختر بأحماله الثمينة في شوارع القاهرة فيسرعون الى مشاهدته والتبرك به . ولاضطراب جبل الأمن في الطريق قلما كان المحمل يصل الى الحجاز سالما . اذ تتلقفه قبائل الأعراب فتتهب ما يحمله الحجاج من مال بل يصل الامر الى قتلهم .

واذا نجح فى الوصول الى غرضه فقلما كانت هذه الفرصة تفوت الأعراب عند عودته . فكثيرا ما وصف الجبرتى في صفحاته المختلفة دخول الحجاج العائدين وهم فى أسوأ حال ، من جراء هجوم الأعراب عليهم وسلبهم ما يحلون .

ولم يكن أمام الفلاحين الهاربين سوى أن يسعوا الى الرغيف من أهون طرقه وهى اللصوصية وقطع الطريق فاختل الأمن ونسد الحال . فلا غرابة اذا وجدنا الأرض الزراعية قد نقصت مساحتها وأغارى الصحراء عليها برمالها وطمرت الترع والمصارف .

وكثيرا ما ضاق السلطان بنفسه الممالك فيمنع السفن الأجنبية من الملاحة فى البحر الأحمر والوصول الى السويس لئلا يكون ما تدفعه من مكوس سببا فى زيادة قوة الممالك (٤) وان كان السبب الظاهري السذى ذكره السلطان لذلك هو حماية الأراضى المقدسة وقد يكشف السلطان عن قناعه فيرسل لهم من يقاتلهم كما فعل حين أرسل حسن باشا القبطان لمقاتلة إبراهيم بك ومراد بك فوصل على رأس أسطول هزم أسطول الممالك فى فوه

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٧٨ .

(٣) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ١٢ .

(٤) الجبرتى ج ٢ ص ٥٥ .

(٥) الجبرتى ج ٢ ص ٩ .

وتتقدم الى القاهرة ، ففر المماليك الى الصعيد الا ان جنوده سرعان ما عاثوا في القاهرة فسادا كما استخرج هو اموال المماليك واستولى عليها واخرج جواريتهم وامهات اولادهم بل واولادهم وعرضهم للبيع . ولم يكد ينتهى من ذلك حتى التفت الى التنكيل بالاقباط فأمرهم أن يقيدوا أسمائهم وأن يعنوا من كان عندهم من المسلمين من خدمتهم كما صادر أملاكهم وفرض عليهم الجزية (١) .

وكان اثر اختلال الأمن على التجارة الداخلية توتفا تاما . وعملت كل قرية على أن تكفى نفسها وتركزت التجارة الكبيرة في القاهرة والاسكندرية وقوص . وكان التجار يتخذون من مداخل بيوتهم معارض لبضاعتهن حتى اذا شعروا أن الاضطراب وشيك الوقوع ، أو أن المماليك بسبيل النزاع بين فرقهم المختلطة أغلقوا عليهم الأبواب وتحصنوا ونساءهم وأبنائهم داخل بيوتهم لبوم أو أكثر حتى تنتهى الغمة . ولكنهم في أغلب الأحيان كانوا اذا ما عادوا اليها وجدوا أغلبهم منهوبا ، فيجمعون ما تبقى منها وهم يصبون لعناتهم على كل من المماليك والأتراك ، ولجأوا بالشكوى الى سر التجار فلجأ هذا الى شيخ البلد فيعده هذا بالحماية وعدم العودة الى مثل ذلك ، ولكن بعد أن يدنع وأخوانه بعض المال ثمنا لهذه الحماية . ولن أحاول هنا أن أطيل في وصف أحوال المصريين ، بل سوف أكتفى، بأن أنقل لك صورة منه كما كتبها الجبرتي مؤرخ هذا العصر . فأنت اذا قلبت صحائف هذا الكتاب الجامع فلن تجد الا عبارات تكاد تتكرر في كل صفحة من صفحاته اليك بعضها .

« وقبضوا على كثير من مساتير الناس والتجار والمتسبين وحبسوهم وصادروهم في أموالهم وسلبوا ما بأيديهم فجمعوا من المال ما جاوز الحد ولا يدخل تحت العد (٢) .

واشتد الكرب والظنك على الناس وأهل البلاد . وانقطعت الطرق القبلية والبحرية، برا وبحرا . وكثر تعدى العسكر وغلبت الأسعار، وشح وجود

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الغلال وزاد أسعارها ، وكثر عبث المنسدين والفحش جماعة لبكوات في السلب والنهب ولم يتركوا على وجه الأرض عودا أخضر (١) .

« وكثر اشتغال طائفة العسكر بالبيع والشراء في أصناف المأكولات وتسلطوا على الناس » (٢) ومن حوادث هذا الشهر زيادة تعدى العسكر على النساء وأخذ ثياب من ينفردون به من الناس ، وهاج الفلاحون من من الأرياف لما نزل بهم من جور العسكر وعسنتهم في البلاد » (٣) .

« سارت زفة عروس بالنحاسين فهجم عليها الانكشازية وخطفوا ما على العروس وبعض النساء من المصاغ والزينات » (٤) .

أما الاقباط فلم يكن عددهم يزيد على أكبر تقدير عن مائة وخمسين ألفا مبعثرين في طول البلاد وان زادت في الصعيد عنها في الوجه البحري ولا تصل نسبتهم مطلقا الى أن يكونوا أغلبية في قرية من القرى وان خلت منهم بلاد كثيرة .

وقبل أن نستطرد الى وصف أحوالهم فلابد أن نذكر شيئا عن المسيحيين عامة تحت الحكم التركي . فقد كانت الدولة حتى بداية القرن السادس عشر تحكم من أوربا شبه جزيرة البلقان حتى نهر الدانوب ومن آسيا شبه جزيرة الأناضول ولا تحكم من أفريقيا شيئا . فكانت الحكومة اسلامية وان كان شعبها مسيحيا وكلهم من الأرثوذكس الذين يعترفون بالرئاسة الدينية لبطريك استنبول ولذا وجدت الحكومة نفسها امام شعب لا يفهم شيئا في طقوسه ولا في طريق حياته فاضطروا لأن يتركوا لهم حريتهم الدينية يديرها لهم البطريك واكتفت معهم بمجرد دفع الضرائب والولاء التام للدولة . وكان جزء من هذه الضرائب يدفع على شكل أطفال صغار لا يتجاوز الاثنى عشر سنة تجمعهم الدولة سنويا ، وتفصلهم عن أهليهم فصلا تاما على أن يربوا في قصر السلطان تربية خاصة تؤهلهم لأن يشغلوا وظائف الدولة ويكونوا جيشها فخرج هذا النوع من الافراد وهم لا يعرفون لهم أهلا الا الولاء

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٠٣ .
(٤) نفس المصدر والحدود .

(١) الجبرتي د ٢ ص ٨٤ .
(٣) نفس المصدر ص ٢١٢ .

للسلطان ، والولاء له يعنى حياتهم ومستقبلهم مجرد الشك في هذا الولاء يقضى عليهم القضاء الآخر : وهذا النوع من الأفراد هو الذى عرف باسم الانتكشارية . وكان هذا العسكر ممتازا عن الاهلين في كل شيء عرفتوا أن ينظم غيرهم في سلوكهم حتى لا يحظى بما يتمتعون به . وقد حاول أحد ولاة مصر وهو ادريس باشا (١٥٨٧ - ١٥٩١) أن يدخل المصريين في الجيش فاشتعل لهيب الفتنة ولم يقبلوا أن يتشبه بهم أحد في لباسهم وهجموا على ادريس باشا وأهانوه فاضطر الى الاذعان لهم . وغنى عن الذكر أن هذا الاجراء قوت على الولايات تكوين القوة الوطنية التى تستند عليها اذا ما ارادت لنفسها الاستقلال . اذ لابد أن تستند مثل هذه الحركات على قوة وطنية تعضدها والا كتب عليها الفشل مقدما .

ومنذ بداية القرن السادس عشر أخذت الدولة تتطلع نحو الشرق . فغزت العراق ، ثم فارس فالشام ومصر والجزيرة العربية ولم ينقض الربع الاول من القرن حتى كانت هذه البلاد خاضعة للإمبراطورية التركية وبذلك انقلب الميزان وأصبحت الدولة الاسلامية شعبا وحكومة . وكانت مصر ولا تزال تضم أقلية مسيحية كونت جزرا صغيرة وسط محيط اسلامي : وخضعت هذه الأقلية لبطيركية خاصة هى بطيركية الاسكندرية التى كانت منذ نشأة المسيحية موضع الجسد والكراهية من بطيركيتى استنبول وروما كما أن هذه البطريركية الصغيرة كانت في حالة انحطاط وتفكك فهناك أكثر من عشر قرون سابقة ظلت خلالها محرومة من كل ثقافة دينية ، كما كانت محرومة من الموارد الخارجية التى يمكن أن تستخدمها في زيادة ثقافتها ولذا لم تجد هذه الأقلية المسيحية التى تعيش في مصر من يعنى بها بشكل جدى . فبينما كان مسيحيو أوروبا يتمتعون بحريتهم كاملة سوا من الناحية الدينية أو الاجتماعية أو الثقافية كما كان مسيحيو الشرق من الروم الأرثوذكس يجدون مثل هذه الحماية بفضل رئاسة بطيرك استنبول لهم . كان مسيحيو مصر محرومين من هذا كله . فلم تعن الدولة بايجاد تشريعات خاصة تحدد مركزهم ، ولذا خضعوا لأنواع من الاحكام التقليدية التى كانت نجرى عليهم قبل الاحتلال التركى وهذه العبارة المنقولة عن الجبرتي تصور بعض حالهم .

(١) تاريخ مصر من الفتح العثماني ص ٨١ .

« قصد بعض نصارى القبط حج بيت المقدس وكان كبيرهم اذ ذاك نوروز كاتب رضوان كتحدا فكلّم الشيخ عبد الله الشبراوى فى ذلك وقدم له هدية والى دينار فكتب له فتوى وجوابا ملخصه ان اهل الذمة لا يمنعون من ديارتهم وزيارتهم فلما تم لهم ذلك شرعوا فى قضاء اشغالهم وتشهيل اغراضهم وخرجوا فى هيئة وابهة واحمال وتختراوانات فيها نساؤهم وأولادهم ومعهم طبول وزمور ونصبوا لهم عرضيا عند ثبة العرب واحضروا العربان ليسيروا فى خفارتهم واعطوهم اموالا وخلعا وكساوى وانعامات وشاع امر هذه القضية فى البلد . فحضر الشيخ عبد الله الشبراوى الى بيت الشيخ البكرى كعادته . وكان على افندى أخو سيد بكرى متمرضا فدخل عليه يعودده فقال له « أى شىء هذا الحال ياشيخ الاسلام . كيف ترضى وتفتى النصارى وتاذن لهم بهذه الافعال . الكونهم ارشوك وهادوك » . فقال لم يكن ذلك . فقال « بل ارشوك بالى دينار وهدية وعلى هذا تصير لهم سنة ويخرجون فى العام القابل بازيد من ذلك . ويصنعون لهم محملا ويقال حج النصارى وحج المسلمين . وتصير سنة عليك وزرها الى يوم القيامة . فقام الشيخ وخرج من عنده مفتاظا واذن للعامة فى الخروج عليهم ونهب ما معهم . وخرج كذلك معهم طائفة من مجاورى الأزهر فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا أيضا الكنيسة القريية من دامرداش . وانتكس النصارى فى هذه الحادثة نكسة بليغة وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وأنفقوه فى الهباء (١) ».

وقد حاول الأجانب أكثر من مرة ان يستغلوا سوء حال الاقباط تحت الحكم التركى ليتدخلوا فى الحكم والحكومة الوطنية بدعوى حمايتهم ، فرفض الاقباط هذا التدخل وهذه الحماية رافضين أن يبيعوا بلدهم مقابل الحرية الدينية فقد سعى بابا روما خلال بطريركية يونس الثامن عشر (١٧٦٩ — ١٧٩٦) لاجتذاب كنيسة الاسكندرية لتعترف برئاسته فأرسل اليه رسولا يحمل رسالة يدعوها فيها الى الاتحاد مقابل الحماية فسلم البابا هذه الرسالة الى

(١) الكافى ج ٤ ص ١٤٠ نقلا عن الجبرتى .

الانبا يوساب افسف جرجا وكلفه بدراستها والرد عليها . فقام هذا العلامة بالرد عليها وتفنيد دعواها لأنه كان من المتصلعين في العلوم اللاهوتية . وقد حدث مثل ذلك مما فعله القائد التركي حسن باشا قبل ذلك من مصادر خزينة البطريكية وأخذ أموالها الأمر الذي اضطر البطريرك الى أن يتوارى ويختفى من جور هذا الحاكم (١) كما هجم على بيوت النصارى ونقض ناموس الانسانية فنهب وجنوده أثاث المنازل وقام العسكر بالقبض على زوجة المعلم ابراهيم الجوهرى وأرغموها على اخراج أموال زوجها وتحفه الثينة بعد أن هرب مع ابراهيم بك ومراد بك في ثورتها ولم يتورع عن فرض الضرائب الباهظة على النصارى بصفة تشبه انهب والسلب .

وكان الشيء الوحيد الذى يزاوونه في حرية واختيار هو حق انتخاب البطريرك فإذا مات أحدهم اجتمع الآباء والأساقفة والكهنة وبعض البارزين من افراد الشعب لاختيار الراعى فينتخبون عددا من الكهنة والرهبان فيقيمون القداسات لثلاثة أيام تنتهى بعد قرعة هيكلية طالبين من الله أن يرشداهم الى من يصلح لرعاية شعبه (٢) وعلى هذا النحو انتخبت أربعة عشر بطريركيا خلال العهد التركى وهم :

١ — غبريال السابع (٩٥) الذى انتخب سنة ١٥٢٥ ومكث ثلاث وأربعين سنة مات اثناء هربه من الوالى التركى الذى طالبه بمبلغ من المال .
٢ — يؤنس الرابع عشر (٩٦) الذى انتخب سنة ١٥٧١ ومكث خمس عشرة سنة .

٣ — غبريال الثامن (٩٧) الذى انتخب سنة ١٥٨٧ ومكث ست عشر سنة .

٤ — مرقس الخامس (٩٨) الذى انتخب سنة ١٦٠٣ ومكث ست عشرة سنة .

(١) السنكسار من تذكرات ٢ بؤونة .

(٢) السنكسار ١٠ بؤونة و ٢٦ برمهات و ١٣ برمودة ٢ بؤونة .

- ٥ — يؤنس الخامس عشر (٩٩) الذى انتخب سنة ١٦١٩ ومكث عشرة سنوات .
- ٦ — مناوس الثالث (١٠٠) الذى انتخب سنة ١٦٣٣ ومكث أربع عشرة سنة .
- ٧ — مرقس السادس (١٠١) الذى انتخب سنة ١٦٤٦ ومكث عشرة سنوات .
- ٨ — متاوس الرابع (١٠٢) الذى انتخب سنة ١٦٦٠ ومكث خمس عشرة سنة .
- ٩ — يؤنس السادس عشر (١٠٣) الذى انتخب سنة ١٦٧٦ ومكث اثنتى وأربعين سنة .
- ١٠ — بطرس السادس (١٠٤) الذى انتخب سنة ١٧١٨ ومكث ثمان سنين .
- ١١ — يؤنس السابع عشر (١٠٥) الذى انتخب سنة ١٧٢٧ ومكث ثمان عشرة سنة .
- ١٢ — مرقس السابع (١٠٦) الذى انتخب سنة ١٧٤٥ ومكث أربعاً وعشرين سنة .
- ١٣ — يؤنس الثامن عشر (١٠٧)
- ١٤ — وأخيراً مرقس الثامن (١٠٨) الذى انتخب عند بداية حكم محمد على .

ومن تكرار القول أن نذكر أن البطساركة كانوا ينتخبون دائماً من بين الرهبان الذين يعيشون في الأديرة وقد نذروا أنفسهم للبتولية والمعيشة الانفرادية داخل الأديرة وكان للأقباط منها سبعة أديرة أربعة منها في وادى النطرون وهى دير السيدة العذراء المعروف بالسريان ودير أنبا بشوى بالصحراء الشرقية مقابل مدينة بوش بمديرية بنى سويف ويقطع الطريق منها الى الدير في ثلاثة أيام بالقوافل ثم دير أنبا بولا الذى يقع بين جبال البحر الأحمر ثم دير السيدة العذراء الشهير بالمحرق الذى يقع في سفح جبل قسقام تجاه بلدة القوصية وعلى خمسة عشر كيلو مترا منها وكان بكل دير

مكتبة تحوى المخطوطات الدينية التى توافر الرهبان على نسخها خلال اقامتهم بالدير الا ان تعرضت هذه الاديرة خلال العصور المتعاقبة لهجوم الغزاة وقبائل البربر والعرب عليها اضاع كثيراً من هذا التراث الثقافى الثمين .

ولم يكن الاقباط رغم قلتهم وضآلة أمرهم فى نظر الحكومة متحدين ولا متعاونين فكثيرا ما اختلفوا مع بعضهم وتراشق زعماءهم بالتهم حتى كانوا فى كثير من الأحوال سببا فى تأخير انتخاب البطريك مددا امتدت الى بعض الأحيان الى أربع سنين كما حدث عقب وفاة مرقس السادس البطريك الحادى بعد المائة وقبل انتخاب متاوس الرابع ولم يكن ينتخب البطريك فى العادة الا بعد سنة أو سنتين كما حدث عند انتخاب يؤنس الرابع عشر ومتاوس الثالث وغريبال الثامن ومارقس السادس ويؤنس السادس عشر ويؤنس السابع عشر يقضيها الاقباط فى نبش الخلافات القديمة واختراع خلافات جديدة يزيد من احتقار الحكومة لهم واستهتارا بأمرهم بل وصل الحال أيام غبريال الثامن (١٥٨٧ - ١٦٠٣) أن اقيم أربعة من البطارقة فى وقت واحد ينصر كل بطريك فريق من الاقباط (٢) بل بلغ الحال ببعض الاقباط بأن يحاولوا منع البطريك بطرس السادس أن يحترم الدين بمنع الطلاق فاعترضه بعض المسيحيين لأغراضهم الشخصية فسار الى السنجق ابن ايواز وباحث علماء المسلمين فكتبوا له فتاوى « بأنه المقرر على أصول مذهبه دون غيره وليس لأحد أن يعارضه فى احكامه » .

وكان من التقاليد التى ورثها العهد التركى عن المماليك وحرص على الإبقاء عليها وساعد على ذلك ما كان عليه الاقباط من جهل واختلاف ونفك عدم بناء كنائس جديدة أو تجديد أخرى قديمة حتى اذا جراًوا على ذلك قامت قيامة الحاكم عليهم ومنعوا من اتمام ما بدأوه بل وسلط عليهم العسامة يخربون ما أتموه . فقد روى السنكسار فى حوادث ١٠ بؤونة أنه فى شهر أبيب سنة ١٤١٧ ش .

(١) الدليل العام للاقباط من ٦٢ - ٧٠ .
(٢) السنكسار ٩ بشنس .

وقع اضطهاد على الشعب الأرثوذكسى بمصر المحروسة فى زمن
الوالى محمد باشا بسبب وشاية وصلته بـن طائفة النصارى القبط احدثوا
بنيانا جديدا فى كنائسهم فعين على الكنائس اغا من قبله وجاء رجال المعمار
وقضاة الشرع للقيام بالكشف على الكنائس فنزلوا وكشفوا واشتبوا أن فى
الكنائس بناء جديدا . ولكن عناية الله لم تتخل عن شعبه بصلوات ابيهم الطاهر
فحنن على امته القبطية قلوب جماعة من امراء مصر واکابر الدولة وتشفعوا عند
الوالى فقرر عليهم غرامة فاجتمع السيد البابا بالسادة المخاديم المعلم يوحنا
ابو مصرى المعلم جرجس ابو منصور والمعلم ابراهيم ابو عوض واتفق الراى
بينهم على أن يطوف البابا المكرم حارات النصارى ويوزر البيوت ويحصل منهم
على ما يمكن تحصيله الى أن يتم جمع الغرامة المطلوبة .

كما جاء فى سيرة الانباء بطرس السادس (١٧١٨ — ١٧٢٦) أنه « عبر
بيعا كثيرة فناله بسبب هذا التجديد ان غرمة الوزير اربعين كيسا دفعها
من ماله المعلم لطف الله يوسف ناظر دير القديس انطونيوس » .

وبسبب هذه الغرامات التى لم يكن البطاركة يجدون وسيلة لدفعها
أو تسديدها ، لم يحجم بعضهم عن ارتكاب الاثام كبيع المناصب الدينية أو
فرض الضرائب السنوية على بعض الاقباط يجمعونها فى بعض المواسم مما
اثار استياء كثيرين فقد روى أن مرقس السادس (١٦٤٦ — ١٦٥٦) طلع
الى الصعيد واقام اربع سنوات جمع فى اثنائها اموالا طائلة وكان كثير الحق
فضج من أعماله الناس وسائر الاساقفة والقسوس والاراضنة واستمرت
العداوة قائمة بينه وبين المعلم بشارة حتى عاد الى مصر فتواتع عليه
واصطلح معه (١) .

ولذا خضع الاقباط طوال العهد التركى لأنواع من المظالم ورثها الأتراك عن
المماليك وجروا على احيائها فى فرص مختلفة (٢) ومن العبث أن نذكرها أو
بعضا منها فهى كلها معروفة والباعث انيها سواء كان من الأتراك أو
المماليك انهم غرباء عن البلاد لا يعنيه شئ قدر الاحتفاظ بسلطتهم لا تعينهم

(١) السنكسار ١٥ برمود* .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ١٢٣ .

مصلحة البلاد في قليل أو كثير .

ولم تكن هذه المظالم في الحقيقة سوى نكاة لنهب أموالهم فغالبا ما كانت هذه المظالم تتوقف يوم صدور الاعلان بها أو في اليوم التالي اذا ما اتفق على دفع مبلغ من المال يصل في العادة الى ألف ريال (١) ولكنها كانت أيضا فرصة ثمينة لتعدى الغوغاء على بيوتهم ونهبها (٢) .

وهناك حقيقة لابد أن نعترف بها وهي أن جانبا كبيرا من مسئولية هذه الحالة السيئة يقع على عاتق الرئاسة الدينية التي كانت تعيش في بحر مغلق من التقاليد دون أن تحاول التطلع الى الخارج أو الاتصال بغيرها من الرئاسات الدينية كما انها لم تحاول أن تقوم بالدور الذي قامت به الرئاسات الأخرى التي كانت خاضعة للدولة التركية من محاولة تثقيف الشعب أو حتى محاولة تثقيف رجالها مما يؤهلها لأن تحتل مكانة الزعامة من الشعب وفي نفس الوقت يجب أن نعترف انه لم يكن هناك من القوانين ما يمنعها من أن تفعل شيئا من ذلك .

ويمكننا بعد هذا الاجمال أن نعطى بعض التفاصيل من أقباط القاهرة فقد عاشوا في ثلاث مناطق احداها في الطرف الشمالي من المدينة وهي المنطقة التي تمتد حاليا من الخازندار حتى باب الحديد وكانت تحدها بركة الأزبكية من الجنوب وتطل من الشمال على منطقة زراعية واسعة هي منطقة الفجالة الحالية كما تحدها من الغرب ترعة تخرج من النيل شمالي المتحف المصري الحالي وتسمى الترعة البولاقية لأنها كانت تفصلها عن بولاق وكانت تسهلها بالمنطقة قنطرة تسمى بقنطرة الليبون وما زال هذا الحي يحمل اسمه حتى الآن وهو حارة النصارى ويحترف أهل هذا الحي بتجارة العلف والشموع والبخور والعطارة . وقامت على أطرافها قلعة بناها المعلم يعقوب حنا عند حارة الجبروني وكان الحراس يحرسونها ليل نهار .

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٥ .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ١٢٨ .

وتقوم المنطقة الثانية على ضفة النيل اليمنى مواجهة النهاية الجنوبية لجزيرة الروضة وهى منطقة مصر القديمة حيث يوجد دير مارقوريوس الشهير بأبى سيفين وكنيسته التى تعتبر من أجمل الكنائس لاحتوائها على جملة أحجية من خشب الابنوس المطعم بالعاج ومجموعة من أيقونات قديمة . كما يوجد بعض الكنائس القديمة مثل أنبا سمرودة واستفانوس الشهيرة بالمعلقة لبنائها بأعلى أحد أبراج الحصن الرومانى المعروف بقصر الشمع وكانت مقرا للبطريركية حتى القرن الحادى عشر حين انتقلت منها الى أبى سيفين الى حارة زويلة فحارة الروم (١) وهناك أيضا كنيسة أبى سرجة التى تقع بأسفلها كنيسة أخرى صغيرة يقال انها أنشئت مكان المنزل الذى أقامت به السيدة العذراء والمسيح وخطيبها يوسف أثناء وجودهم بمصر هربا من وجه هيرودس ثم كنيسة السيدة بربارة وكنيسة مار جرجس .

أما المنطقة الثالثة فتتألف من خان الخبلى والخليج المصرى وهى الصاغة الحالية واحترف أهلها صياغة الذهب والفضة وتسليف النقود مقابل الرهون والمنسوجات وكان فلاحو القرى يقدّمونها حال نزولهم للقاهرة لتجهيز بنانهم وسكن قليل منهم الفسورية وبولاق والحمزاوى واشتغلوا بالتجارة (٢) .

وكانت دكاكينهم التى تراكم فيها تجارتهم تطل على الحارات الضيقة وهى فى نفس الوقت مداخل بيوتهم وهى تقود الى حوش كبير غالبا ما يحمل اسم صاحبه مثل حوش الشماع تطل عليه المنازل التى على هيئة مربع يحيط بهذا الحوش .

وكان سكان القاهرة من المسيحيين يعيشون فى رفاهية نسبية عن سكان القرى كما كانوا يهتمون بتعليم أولادهم الحساب والقراءة العربية وبعض التراتيل الدينية بل اهتم بعضهم بدراسة اللغة القبطية واتقانها وغالبا ما كان يقوم بمهمة التعليم بعض القسوس يعاونهم بعض المدنيين الفقراء

(١) الكافى ج ٤ ص ١٠٦ .

(٢) الجبرتى ج ٢ ص ١٢٨ .

وكان يطلق عليهم اسم الخوجة بلّ تعلم بعضهم اللغات الأجنبية بفضل اتصالهم ببعض التجار الأجانب الذين كانوا يعيشون في القاهرة .

وقد سكن كثير من الاقباط الصعيد لا سيما مدن أخميم وقوص ونقادة وأسيوط وقد كان ثراء تجار أسيوط يصور لنا مثلا حسنا لمقدرة الاقباط التجارية . فقد اشتغل كثير منهم بالتجارة مع السودان فكانوا يستقبلون ما يرد منه من العاج وريش النعام والرقيق ويقومون بتوزيعه في جميع أنحاء البلاد فعند أسيوط ينتهى درب الأربعين الذى يبدأ من الفائر ويقطع الصحراء الغربية شمالا حتى ينتهى الى أسيوط فلا غرابة اذا اتخذ سلطان دارفور المعلم غبريال شنودة أحد تجار أسيوط وكيلًا له في مصر ليستقبل قوافله الواردة وكانت تبلغ في بعض الأحيان خمسة عشر ألف جملا كما يجهز القوافل الصادرة ويحصل له أثمان ما يبيعه حيث كان السلطان هناك يحتكر معظم تجارة سلطنته . وكانت علاقة هذا السلطان بالممالك متوترة دائما لا يثق بهم ولا يأمن اليهم فاذا بلغه نبأ وصول نابليون واتجاهه الى القضاء على الممالك أرسل اليه يهنئه قائلا « لى الشرف أن أبلغكم أن أخبار انتصاراتكم قد وصلت إلينا وعلمنا بالسرور نبأ انتصاركم على الممالك وإسلامكم ومداومتكم على مراعاة جانب الأجانب وقد أعطينا هذا المرسوم الى قائد القافلة يوسف الجلابى ليؤكد لكم صداقتنا التى سوف تكون دائمة باذن الله . ونحن نؤكدها لكم بكل حرارة لأجل أن تحافظوا عليها ونقدم اليكم ألف تحية وتحية (١) .

ويجب أن نسجل لاقباط هذا العصر كثيرا من المفاسد التى استحقوا لأجلها كثيرا من المديح والثناء أولها أنهم تلهوا ما كانوا يخضعون لما يصدر اليهم من الأوامر والنواهي التى تتعلق بمعاملاتهم وأزيائهم وركوبهم وغير ذلك فكثيرا ما ابتنوا البيوت العالية وسكنوها رغم أوامر الحكومة بأن لا تعلو منازلهم فوق منازل جيرانهم وكثيرا ما ركبوا الخيول وساروا بها في شوارع القاهرة واتخذوا لهم الاتباع والاعوان . وتمتع بعضهم بكثير من أسباب الجاه والثروة فتقرب اليهم الناس طلبا لحمايتهم .

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٢٦٧ .

وشيء آخر يجب أن يفتخر به اقباط مصر أنهم في وسط هذا الخضم من القومية الاسلامية لم يكن هناك من دليل واحد على بقاء القومية المصرية الحية سوى هؤلاء الاقباط الذين احتفظوا بأسمائهم القبطية دليلا على مصريتهم بل حرصوا على أن يعطوا اولادهم هذه الأسماء المميزة ليميزوا انفسهم كمصريين في وسط هذا البحر الذي لم يكن يعرف فيه المصري من غيره من رعاية الدولة . فكانوا مثلا حيا للقومية المصرية حتى اذا راوا بوادر أمل في احياء هذه القومية لم يكونوا يترددون في تشجيعها واذا كان التاريخ قد سجل لنا ثورة على بك الكبير على الحكم التركي ومحاويلته الاستقلال بمصر عن السلطان وسعيه في استعادة القومية المصرية واهيائها في رأى بعض المؤرخين (١) أو محاولته فقط التمتع بهرکز مرموق في الدولة في رأى البعض الآخر (٢) فان الاقباط كانوا من ورائه يشجعونه وينظمون له حركته ويعينونه على القيام بها فقد كان المعلم رزق اليد اليمنى لعلى بك الكبير والقوة الدافعة من ورائه (٣) واليه يرجع الفضل في التنظيم المالى الذى استند اليه على بك سواء في مصر أو سوريا . كما كان المعلم يعقوب والمعلم الياس بقطر اكبر عون لمراد بك في محاولة الخروج من السلطان وكذلك المعلم غبريال سيداروس من ابراهيم بك بل اشترك هؤلاء في تدريب الجند المصرى وابلوا بسلاء حسنا في المواقع التى دارت وان انتهت بنفشلهما وعودتهما الى طاعة السلطان .

ويحدثنا الجبرتي في جزئه الاول عن المعلم رزق أنه كان رجلا حازما ومديرا يقظا وانه كان على شيء من النعم وعنى الأخص علم الفلك الذى مهر فيه بينما كان على بك من المصدقين بصدق المنجمين .

بدأ في اول عهده سكرتيرا لدار سك النقود ورفعته ثقة على بك الكبير به الى مدير حسابات الحكومة وقتئذ وذلك على الرغم من قسوة على بك

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٨١ — مصر في القرن الثامن عشر ج ٢ ص ٧٠ .
(٢) على بك الكبير ص ٦٠ .

اسمه الاصلى يوسف بن داود ، ولد سنة ١٧٢٨ بالاناضول ، أبوه قس رقيقا الى ابراهيم بك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وهنا اعتنق الاسلام وتسمى يونانى وبيع رقيقا الى ابراهيم بك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وهنا اعتنق الاسلام وتسمى باسم على . (٣) محمد فؤاد شكرى ص ٢٦ .

على القبط ثم رفعتهم هذه الثقة أيضا الى رئاسة الدواوين واعتمد على بك عليه فجعله مع القيام بوظيفته مستشاره الخاص في تدبير شئون الدولة وعاون على بك معاونة صادقة في تحقيق أغراضه التي كان يهدف اليها من الاستقلال بمصر ورفع الحكم العثماني عنها فتوافر للمعلم رزق من النفوذ والسلطة ما لم يتوافر لأحد من رجال الدولة . وقد استخدم المعلم رزق لمعاونته في عمله كثيرين من الأقباط رغم كراهية على بك الكبير لهم فكان المعلم رزق بذلك صاحب مدرسة تؤهل الأقباط لأن يحتلوا أكبر مناصب الدولة لكفائتهم وأمانتهم وسعى في أوقات كثيرة كما يقول الجبرتي في منع الاضطهاد عن القبط ورفع الذلة عنهم .

ولم يحاول الأمراء والماليك استخدام هؤلاء الأقباط لكفائتهم البارزة في الأمور المالية فحسب فكانوا بمثابة وزراء المالية لهم ويبدو ان كفائتهم في هذه الناحية كانت فذة وأمانتهم فوق مستوى الشبهات مما جعل مرتباتهم مرتفعة لا يدفعها الا من وصل حدا كبيرا من الثراء حتى اننا نجد الجبرتي عندما يريد أن يبالغ في اظهار ثراء أحد الناس فانه لا يجد عبارة يدل بها على عظم ثروته غير عبارة (واستخدم الأقباط) وربما يكون هناك هدف آخر من وراء انضمام الأقباط الى الماليك فقد كان هؤلاء الآخرون العنصر الذي اغتصب منه الاتراك السلطة والذي كان تواقا للخلاص منه ويتطلع الى اليوم الذي تتخلص فيه البلاد من هذا الحكم التركي الاجنبي البغيض لتعود الى استقلالها السابق فكان اتحاد الأقباط معهم بمثابة اتحاد العناصر الثائرة ضد الاستعمار الاجنبي ترقبا ليوم الخلاص أي وحدة الغاية والهدف هي التي جمعت بين هذين الخصمين السابقين .

ويبدو ان نشاط المعلم رزق كان متجهًا أكثر ما يكون الى الاخلاص في خدمة سيده على بك الكبير بينما كان تلميذه المعلم ابراهيم الجوهري متعدد جوانب النشاط فالى جانب تدبيره مالية على بك ثم محمد بك أبو الذهب ثم ابراهيم بك لم يكن يالو جهدا في خدمة طائفته ما وسعه ماله ونشاطه فيذكر عنه السنكسار انه كان من عادته على ما روى معاصروه أن يقسم ماله الى ثلاثة أقسام يخصص منها الثلثين للفقراء والانفاق على نسخ الكتب ووقفها وتقديمها من حين الى آخر الى البطريك يونس الثامن

عشر وقد كانت كثرة الكتب التى قدمها منسوخة الى البطريك سببيا فى دهشته حتى سألته فى ذلك فكشف له عما يفعله فسر البطريك من غيرته وتقواه وباركه قائلا (ليرفع الرب اسمك ويبارك عملك وليقم ذكراك الى الأبد) .

ولم يحدثنا التاريخ عن موطن ابراهيم الجوهري أو نشأته فما زال نسبه مجهولا . كان فى أول أمره كاتباً لأحد الامراء المماليك ثم ترك خدمته وأصبح عاطلا فالتمس من البطريك التوسط له لدى المعلم رزق الذى كان موضع ثقة على بك الكبير فاتخذة كاتباً خاصا به .

وإذا ما عصفت ريح السياسة بعلى بك وخلفائه محمد أبو الذهب استبقى ابراهيم الجوهري فى خدمته استقر الرأى بين جميع كتبة مصر على أن يخلف ابراهيم رزقا فى وظيفته فانتهت اليه رئاسة الدواوين .

وانتهت أيام محمد أبو الذهب وذهبت سلطته كما ذهبت سلطة سلفه على بك الكبير وانتهى الأمر الى يد ابراهيم بك ومراد بك على أن يتبادلا مشيخة البلد وأمانة الحج سنويا فقلد ابراهيم الجوهري رئاسة الدواوين فى مصر كلها وهنا تجلت مواهبه فأصبح صاحب الكلمة المسموعة لا يعطوه غير الحاكم الأعلى .

وقد استطاع الرجل فى هذا المنصب رغم ما ناله فى بعض الاحيان من اضطهاد ومصادرة أن يبتع عن الأقبساط بعض الاذى اذ تمكن بنفوذه من استصدار بعض الفتاوى التى تجيز إعادة ما تهدم من الكنائس وأوقف عليها الأموال الكثيرة اذ لم يكن له الا ولد واحد مات فى شبابه (١) .

وقد ذكر الجبرتي مؤرخ هذا العصر ان المعلم ابراهيم (كان رجلا عظيما فى خلقه وفى علمه . سخيا كريما الى أبعد حدود الكرم . أما عن خلقه الشخصى فقد كان وقورا فى دعة . متواضعا فى رفق ولين . طيب السريرة . عطوفا . يرفق بالمحتاجين يواسى اليائسين كما كان رحب الصدر واسع

(١) صور من تاريخ القبط ص ٢٨٩ .

الحلم . عادلا في معاملة جميع الناس) . واذا ما مات في ٣١ مايو سنة ١٧٩٥ حزن عليه ابراهيم بك حزنا شديدا وخرج ليشهد جنازته اثناء مرورها بالقصر العيني وقد رثاه الجبرتي مع ما عرف عنه من تحيز ضد المسيحيين فقال : (ومات الذمى المعلم ابراهيم الجوهري . رئيس كتبة الأقباط في مصر . أدرك في هذه الدولة من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه . وكان من دهاقين العالم . ودهاتهم . لا يغرب عن ذهنه شيء من دقائق الأمور . ويدارى كل انسان بما يليق من الإدارة . ويحابى . ويهادى . ويواسى الأمراء عند دخول رمضان وعمرت في أيامه الكنائس وديور النصارى وأوقف عليها الأوقاف الجليلة والأطيان ورتب لها المرتبات العظيمة والأرزاق الدارة والغلال) (١) .

ولعلنا لا ننسى ان بناء الكنيسة المرقسية في شارع كلوب بك يعود الى حسن تصرفه وذكائه كما يعود الى كرمه اذ انتهب فرصة مرور احدى الاميرات بمصر لاداء فريضة الحج فخدمها بنفسه واکرمها اكراما زائدا في ذهابها وعودتها وأهدى لها الهدايا الفاخرة فحصل بواسطتها على فرمان برقع الجزية عن الرهيان وأذن ببناء الكنيسة الكبرى بالأزبكية حيث مقرر سكنه ولكنه توفي قبل بنائها فقام بذلك أخوه المعلم جرجس (٢) .

أما عن نفوذ الكنيسة القبطية خارج اقليم مصر فقد كانت رئاستها تمتد الى اثيوبيا والسودان منذ أن دخلت المسيحية الاولى في القرن الرابع الميلادى أيام البطريرك اثناسيوس الرسولى . الثانية في القرن السادس (٣) .

أما في الاولى فقد كان البطريرك المصرى هو الذى يعين المطران هناك وكان في العادة مصريا ولم يكن للكنيسة القبطية الا اثر قليل هناك حتى القرن الثالث عشر رغم ما ترجم من الكتب القبطية واليونانية الى اللغة الاثيوبية

-
- (١) الجبرتي ج ٢ .
 - (٢) السنكسار ج ٢ .
 - (٣) يرجع الى كتاب (كنيسة الاسكندرية في افريقيا) للمؤلف لمزيد من التفاصيل .

وما كان من سفر الرهبان المصريين الى هناك وانشائهم الاديرة ثم تعليمهم
المبادئ المسيحية للكهنة والشعب .

الا ان المسيحية بدأت تؤثر تأثيرا ظاهرا وتتغلغل في الشعب منذ القرن
الثالث عشر حين اهتمت الأسرة السليمانية وعلى رأسها الأمباطور
يكونو ملاك ثم ابنه يجيبا صيون بالتنازل للكنيسة عن ثلث أراضي الدولة (١)
ثم انشاء منصب الانتشيجى ليكون حلقة اتصال بين الأكليروس الوطنى
والمطران (٢) وكذلك انشاء المدارس الدينية الملحقة بالاديرة والكنائس لتعليم
الناس أصول الدين ثم تخرج الكهنة اللازمين للشعب (٣) .

ومنذ هذا الوقت أخذ الأباطرة متوالين فى الاكثار من بناء الكنائس
ووقف الأوقاف عليها وانشاء المدارس الدينية فكان من اثر ذلك انتشار
المسيحية وازدهارها هناك والقضاء شيئا فشيئا على الديانات القديمة
والمعتقدات القديمة وان بقيت بعض الطقوس التى لا تتنافى مع المسيحية
فى شيء .

وجرت العادة ان يكون تعيين المطران اثر مجيء وفد اثيوبى مكون من
بعض المدنيين والكهنة يحمل خطابا الى البطريرك فيه نبأ وفاة المطران
السابق مع رجاء تنصيب مطران جديد وكذلك خطابا آخر الى صاحب السلطة
فى مصر برجاء السماح للبطريرك بتنصيب المطران من أجل دوام العلاقات
الطيبة بين اثيوبيا ومصر كما جرت العادة ايضا أن يحمل الوفد معه هديتين
ثميتين احدهما الى البطريرك والاخرى الى السلطان (٤) .
ويعتبر المطران مند رسامته رأسا للكنيسة الاثيوبية وأهم واجباته
تنصيب الكهنة الاثيوبيين بعد استشارة الانتشيجى بينما كان أهم حقوقه تنويع
الأباطرة وعزلهم اذا ما ارتكبوا ما يهدد سلامة البلاد أو عقيدة الشعب (٥) .

(١) Bulletin T. VIII, Bridge, Vol I p - 312.

(٢) تاريخ تكلأ هيمنوت الحبشى مخطوط رقم ٢٠ بمكتبة بطريركية الاقباط
الارثوذكس .

(٣) Bridge P. 204

(٤) السنكسار ج ٢٦٢ برمهات ١٣ بئونة ١٢ بسنس برمودة .

(٥) Bridge, Vol. II P. 545

وكان البطريرك في مصر يراقبه عن كثب ويكتب اليه مرتين كل عام مستفهما عن أخبار رعيته هناك وكثيرا ما كان الحكام المصريون يضيئون بهذه الكتب عندما تحمل أخبارا من مصر عن اضطهاد بعض الحكام للأقباط (١) فيكون ذلك سببا في تدخل الأباطرة اثيوبيا لدى السلاطين كي يحسنوا معاملة الأقباط في مصر لقاء حسن معاملتهم للمسلمين هناك فيستدعون البطريرك ويهددونه بل قد يسجنونه انتقاما منه لأنه حمل أخبار هذه الاضطهادات (٢) .

ولكن هذا البطريرك المصرى وهذه العلاقة بين مصر واثيوبيا كثيرا ما كانت أيضا سببا لرباط من العودة والصداقة يربط كلا من مصر واثيوبيا فتسير الرسل والوفادات من مصر واليها (٣) ، كما تكون سببا لنشاط تجارى بينهما أيضا . وكثيرا ما كان الأباطرة الاثيوبيين يلجأون الى مصر بسبب هذه العلاقة الدينية اذا ما احتاجوا الى الصناعات الماهرة في الفنون المختلفة فلم تكن مصر تبخل بارسال ما يريدون .

وظلت الكنيسة الاثيوبية تابعة للكنيسة المصرية تعترف الاولى بينوتها للثانية وترعاها رعاية الأم لوليدها . ولم يكن البطارقة أو المطارنة المصريون يحاولون التدخل في الامور السياسية بل ظلت رعايتهم قاصرة على الامور الكنسية .

فكان من أثر ذلك ان أئمنت المسيحية في اثيوبيا وازدهرت وان لقي الشعب من الأباطرة والأمراء كثيرا من الأذى بسبب ما ساد البلاد من اضطراب نتيجة لاختلاف الأمراء وتطاحنهم حول العرش (٤) .

أما في السودان فكان الأمر مختلفا فقد دخلت المسيحية في القرن

(١) البدر الطالع ص ٢١٠ .

(٢) المقریزی . السلوك ج ٢ ص ١٢٨ .

(٣) Bulletin de la société d'archéologie copte vol VIII.

(٤) رفع من درجة المطران الى بطريرك جاثليق في الاتفاقية الاخيرة من الكنيسة المصرية والاثيوبية سنة ١٩٥٩ .

السادس وتبعت الكنيسة السودانية الكنيسة المصرية وكان أهل السودان متأثرين الى حد بعيد بالثقافة المصرية والحضارة ، فكانت الكنيسة المصرية هى التى ترسل اليهم بالمطران والكهنة ويقوم الملوك ببناء الكنائس وتزيينها على الطريقة المصرية وبدخول مصر ضمن دائرة الامبراطورية الاسلامية حاولت الجيوش الاسلامية التوغل الى هناك الا انها لقيت من قوة مملكة النوبة المسيحية ما صدها فاكثفت منها بمعاهدة ترسى العلاقة بينها على اساس من الصداقة لقاء تبادل تجارى بين النوبة ومصر وكان الرقيق والمنسوجات والغلال اهم ما يتبادلانه .

ولم يتح الزمن للمسيحية فرصة كافية لأن تتمكن من السودانيين كما تمكنت فى اثيوبيا فظلت المسيحية هناك طلاء لكثير من المعتقدات الوثنية كما كان المطران المصرى والكهنة المصريون بسبب جهلهم لكثير من عادات السودانيين ولغتهم غير قادرين على اعطاء المسيحية جذورا عميقة فى السودان . كما لم يهتم الملوك هناك بانشاء المدارس المسيحية لتعليم الشعب العقيدة المسيحية . فاخذت الثقافة المصرية فى الوهن والضعف هناك . وزادها ضعفا ما كانت عليه الكنيسة المصرية فى الوهن والضعف . هناك . وزادها ضعفا ما كانت عليه الكنيسة المصرية من ضعف أيضا وما لقيته من سوء معاملة فى بعض الاوقات سواء من بعض الولاة الأمويين أو العباسيين (١) أو بعض الخلفاء الفاطميين كالحاكم بأمر الله أو السلاطين المماليك .

واذا ما تدخلت دولة المماليك فى الخلافات المستمرة بين ملوك السودان ونجحت حملة السلطان قلاوون فى عزل آخر ملك مسيحي هو كارامبوس وتولية عبد الله بن شنبو واعتناق هذا الأخير الاسلام كان هذا ايذانا ببداية الانهيار السريع للمسيحية هناك .

هذا الى أن السودان لقي من ظروفه الداخلية وهى انعكاسه الى أكثر من مملكة مسيحية ضعيفة وكذلك هجرة القبائل العربية اليه سواء من

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣ ، ٢٦ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ١٦٥ ، ٢١٦ .

الشمال أو الشرق ما زاد في ضعف المسيحية ، بل وانهارها فقد استقر كثيرون من العرب هناك واصهروا الى السودانيين ورغب السودانيون في هذه المصاهرة ليتخذوا منهم حمة ودروعا ضد هجمات تجار الرقيق الذين كانوا يهجمون على المسيحيين ويتخذونهم رقيقا ويبعثون بهم الى أسواق الرقيق في فارس والجزيرة العربية والدولة الرومانية الشرقية وأوروبا . فلم يجد المسيحيون هناك امامهم سوى أن يرتموا في أحضان الاسلام وان يصهروا الى هؤلاء العرب القادمين (١) .

وكان قيام دولة الفونج في القرن السادس عشر في حوض النيل الأوسط قربنا باختفاء المسيحية هناك ولعل الكنيسة القبطية في القاهرة هي المسئولة الوحيدة عن هذا الاختفاء اذ لم تحاول منذ أن تبعتها الكنيسة السودانية في القرن السادس أن تعطى المسيحية جذورا عميقة فلم تبذل أية محاولة لاقتلاع جذور الوثنية التي كانت متغلغة في نفوس السودانيين كما لم تحاول أن تقيم من السودانيين كهنة وقسوسا على نحو ما فعلت في اثيوبيا — ليستطيعوا بدورهم أن يقيموا المسيحية على دعائم ثابتة قوية — وقد يكون سوء حال الكنيسة القبطية خلال الحكم التركي وما لاقتة من الاضطهاد عذرا لها على هذا الإهمال . ولكن ذلك لا يكفي لتبرير هذا الإهمال لا سيما وأن الاسلام عند دخوله الى السودان لم يدخله عن طريق أئمة أو معلمين بل عن طريق بعض القبائل المسلمة التي لم تقصد مطلقا نشر الاسلام أو عن طريق تجار الرقيق الذين أرغموا المسيحيين — عن طريق غير مباشر — على اعتناق الاسلام ، وأخيرا عن طريق أصحاب الطرق الصوفية الذين قصدوه سواء من طرابلس أو مراكش أو الحجاز وأخذوا في انشاء الزوايا ، ولذا كان تأثير هؤلاء الزعماء المحليين وتأثير هؤلاء الأولياء أكثر من أى شيء آخر في نفوس السودانيين الى ما بعد الحكم المصري . وإذا ما وصلنا الى نهاية القرن السابع عشر لم يعد للمسيحية اثر مطلقا في السودان كأنها لم تظهر هناك بتاتا وكان السودانيين لم يكونوا يوما مسيحيين .

(١) لمزيد من التفاصيل انظر (كنيسة الاسكندرية في افريقيا) للمؤلف .

الباب الثاني

الحملة الفرنسية

جاءت الحملة الفرنسية الى مصر بقيادة نابليون بونابرت في أول يولية سنة ١٧٩٨ تبغى أغراضا لا تتعلق بمصر نفسها ، كما لا تتعلق بتركيا صاحبة السيادة على البلاد ، ولكن تبغى أغراضا خارجة عن نطاق الدولتين . فقد استحكمت العداوة بين انجلترا وفرنسا وعز على فرنسا أن تقابل الاولى في ميدان برى حيث كان لها السيادة الحربية ، فأرادت أن تختار مكانا حساسا من بريطانيا يرغبها استيلاء فرنسا عليه على أن تركع لها طالبة الصلح — كما فعلت النمسا وبروسيا وروسيا ، أعضاء التحالف الدولي من قبل^١ .

ورأت فرنسا أن يكون هذا المكان الحساس هو مصر لأنها في طريق انجلترا الى املاكها في الشرق الأقصى . وبسبب ضعف الممالك ونزاعهم المتواصل مع أنفسهم تارة ومع تركيا تارة أخرى . وبسبب تخلف كل من تركيا والممالك عن النظم الحربية ومستوى الأسلحة السائدة ، وكذلك بسبب حرمان المصريين من الاندماج في سلك الجيش ، استطاع الفرنسيون أن يتغلبوا بسهولة على مقاومة المصريين اليسيرة في الاسكندرية ، فدخلوها . وأذاع قائد الحملة منشورا على المصريين أنه صديق لهم ، لا ينبغي سوى تخليصهم من هؤلاء الممالك الذين أهدروا مصر والتجارة الفرنسية ، ويمنيهم بالمساواة التامة التي حرموها منها وقتنا ليس بالقصير ، كما يفتح امامهم باب تولى المناصب في بلادهم (ولكن بعونه تعالى — من الآن فصاعدا — لا يئأس أحد من أهالى مصر عن الدخول في المناصب السمية ، وعن اكتساب المراتب

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٧ .

العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء سيدبرون الأمور (١) . وكان هذا المنشور باللغة العربية .

ولقد حاول المصريون في الاسكندرية أن يدافعوا عن بلدهم رغم تصور أسحلتهم ونظمهم ورغم ادراكهم هذا التصور . ورأس البطل محمد كريم هذا الدفاع . فعرف الفرنسيون قدره فأكرموه . الا أنهم سرعان ما تبينوا خداعه فأعدموه . وكان هذا الرجل في دفاعه عن وطنه ضد المغيرين بطلا وطنيا حقا لولا هنة بسيطة لارتفع قدره الى مرتبة الشهداء . وهى انه قال للأسطول البريطانى الذى وصل الاسكندرية قبل قدوم الفرنسيين بحثا عنهم « ان هذه البلاد ليست بلادكم ولا بلد الفرنسيين انما هى بلد السلطان » ولو قال انما هى بلادنا لاستحق تقدير الوطن حقا . ولكن للرجل عذره ، فقد تكلم بعتلية العصر وقد سيطرت على عقله القومية الاسلامية : فهى القومية التى اعتنقها المصريون منذ اعتنقوا الاسلام وخضعوا للخلافة الاسلامية .

ونجح الفرنسيون في أن يتقدموا الى القاهرة ويستولوا عليها بعد أن حطموها قوة المماليك ودخلوا القاهرة فوجدوا المماليك قد نهبوا . وكانت بيوت الأقباط بل جميع المسيحيين أول هدف لهم ، نهبها العسكر العثمانى . وفر جميعهم الى الصعيد أو الى الشام وفر معهم بعض المصريين كالسيد عمر مكرم . كما طاف الرعاع بالمدينة ينهبون بيوت المسيحيين على اختلاف أجناسهم . ويقتلون منهم من يصادفونه دون تمييز بين الرجل والمرأة (٢) .

وإذا استطعنا أن نفهم السبب الذى من أجله فر المماليك الى الصعيد أو الشام فالحيلة لا تقصد الا القضاء عليهم كقوة محاربة أولا وكقوة متسلطة ثانيا ، كما أعلن قائد الحملة صراحة ، الا أننا لا نستطيع أن نفهم لماذا هرب هؤلاء المصريون وكلهم ذو مكانة تحتم عليهم أن يشاركوا قومهم ضراءهم تحت حكم الفرنسيين كما شاركوهم هذا الضر تحت حكم العثمانيين

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٧ .

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٣ .

ولا ادرى ماذا دار بخلدكم ودفعهم الى هذا الفرار . اكانوا يتصورون ان ضرر هؤلاء الغزاة سوف يكون مريرا غاسيا ؟ أم كانوا يتصورون ان الدولة العثمانية قاصرة على استرداد مصر ، وان واجبهم يحتم عليهم ان يكونوا بجانب هذه القوات الزاحفة لاستردادها ؟ ولماذا فضلوا ان يكونوا تحت الحكم العثماني الفاسد على ان يكونوا تحت حكم فرنسى لم يعرفوا اكان فاسدا فساد الحكم التركى او دونه او يفوقه . لا اجد تعليلا لهذا الهرب سوى ان هؤلاء الناس تصرفوا تحت تأثير ما اعتنقوه من توبة اسلامية جعلتهم يفضلون ان يكونوا تحت حكم فاسد ظاهره اسلامى على ان يكونوا تحت حكم (كافر) وان كان صالحا .

ولذا لا استطيع مطلقا ان اتف الى جانب هؤلاء الناس فى تصرفهم هذا . ولو بقوا ليقاسموا المصريين ما سوف يجدونه من ضر لكان موقفهم اكرم وافضل .

دخل الفرنسيون القاهرة دون مقاومة تذكر . ولم يكن المصريون يملكون ما يقاومونهم به بعد ان هرب هؤلاء المحاربون (الأبطال) . ولم يلبث تائدهم ان اذاع على القاهريين منشورا كمنشوره الاول الذى اذاعه فى الاسكندرية وهو منشور اتفق المؤرخون جميعا على ان ما جاء به يوقظ قوميتهم المصرية (١) التى نامت خلال عشرة قرون طويلة .

وكان فى استطاعة المصريين او زعمائهم الذين وجدوا انفسهم باعتراف المحتلين فى مكان الصدارة وقد حرموا القدرة على مقاومة المحتل الجديد ان يتمسكوا بما جاء فى هذا المنشور ويطالبوا به حتى يكتب الله لهم فرجا مما هم فيه ولكن مما يؤسف له انهم لم يفعلوا .

وأخذ الفرنسيون بعد احتلالهم القاهرة فى نشر نفوذهم فى كل ائحاء مصر ثم بدأوا استغلال البلاد لصالحهم .

ولاجل الامر الاول (نشر نفوذهم فى كل ائحاء البلاد) ارسلوا الحملات

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٣ .

الحربية الى انحاء البلاد المختلفة وكان اهمها حملة الجنرال ديزيه التى ارسلت لاختضاع الصعيد . ولطاردة المماليك الذين هربوا الى الصعيد وامعن بعضهم فى الهرب حتى وصل الى السودان .

ومن اجل الامر الثانى (استغلال البلاد لصالحهم) اخذوا فى اصدار جملة من التشريعات التى ترمى الى تنفيذ بعض الاصلاحات من اجل ادخال البلاد ضمن نطاق الدول الحديثة . ومجرد القاء نظرة سطحية على هذه الاصلاحات تدلنا على انحالة التى كان المصريون يعيشون فى نطاقها . ومن هذه الاصلاحات :

- ١ — تحريم دفن الموتى فى الجبانات القريبة من المساكن (١) .
- ٢ — دفع المصريين الى تنظيف حاراتهم ودروبهم بكنسها ورشها يوميا (٢) .
- ٣ — انارة الحارات والدروب بمصابيح تعلق أمام البيوت .
- ٤ — تسجيل المواليد بدفاتر أعدتها الحكومة وكذلك عقود الزواج وقسائم الطلاق (٣) مع دفع رسوم معينة على ذلك .
- ٥ — تحثيم التبليغ عن الوفيات لتسجيلها فى دفاتر خاصة بذلك .
- ٦ — هدم أبواب الحارات (٤) .
- ٧ — جباية بعض الضرائب العاجلة لسد مصاريف الاحتلال (٥) .
- ٨ — انشاء مكتب للتسجيل لتسجيل مستندات التملك لوضع حد لكل نزاع قضائى .

-
- (١) الجبرتى ج ٣ ص ١٣ ، ١٨ .
 - (٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٠ .
 - (٣) محمد فؤاد شكرى ص ١٨٠ .
 - (٤) الجبرتى ج ٣ ص ٢١ .
 - (٥) الجبرتى ج ٣ ص ١٣ ، ١٨ .
- وذكر محمد فؤاد شكرى ان نابليون طلب مبلغا كبيرا من الريالات الاسبانية من التجار وأرغم الاقباط على دفع مبلغ آخر .

فهذه الأوامر ترينا أن المصريين كانوا متخلفين عن أقرانهم من الشعوب الأخرى بأربعة قرون على الأقل — وهى المدة التى قضاهما الاحتلال التركى فى البلاد . فلا دفانر لتسجيل المواليد أو الوفيات . والقاذورات تتراكم فى الشوارع والدروب والحارات . والمدينة تنام اذا غربت الشمس . والموتى يدفنون فى البيوت . مما يعرض الأحياء لفتك الأمراض ويسهل ارتكاب الجرائم . كما كان امر صيانة الأمن موكولا انى أبناء كل حارة يتولونه بأنفسهم والحكومة لا تجد ذلك من واجبها فلا يجد الأهليون وسيلة تمكنهم من ذلك سوى جعل باب كل حارة يغلّق اذا ما غربت الشمس . مما يدل على أن مستوى معيشة المصريين كان خلال القرن الثامن عشر اقل بكثير مما كان عليه خلال القرن الثامن أو التاسع حين كانوا تحت حكم الطولونيين أو الفاطميين .

وأصدر الفرنسيون أيضا تشريعا بانشاء مجلس يتكون من بعض مشايخ الأزهر وبعض الفرنسيين وهو المسمى بالديوان (١) لاجل أن يقدم المشورة الى الحاكم العام الفرنسى وهى خطوة تدل على رغبة الفرنسيين فى اشارك المصريين فى الحكم ، وان كان هذا الاشارك فى نطاق ضيق وبطريقة معتلة ، اذ لم يكن هذا الديوان يملك حق المعارضة كما انه لم يكن ممثلا لجميع طوائف السكان . فلم يكن لغير المسلمين ممثلون فيه .

وكان الديوان الصغير المكون من اثنى عشر عضوا نصفهم من المسيحيين برئاسة المعلم ملطى ليكون بمثابة محكمة فى أمور التجارة والموارث والدعاوى وإدارة للشهر العقارى من أجل مراجعة جميع حجج الملكية لتثبيتها وجباية رسوم الدمغة عليها . ومن الطبيعى أن الفرنسيين لم يلجأوا الى المسيحيين من أجل انصافهم، ولا من أجل اتحادهم معهم فى الدين، فلم يكن ذلك من سياسة الفرنسيين فى شىء ، لا سيما وقد نبذوا الديانة المسيحية فى فرنسا قبل ذلك ببضع سنين ، بل لجأوا اليهم لما سمعوه عنهم وتبينوه من كفاءة فيهم ومعرفة بعضهم للغة الفرنسية .

(١) محمد فؤاد شكرى ص ١٤١ .

ولا يملك الناقد مهما بلغت وطنيته الا أن يشكر الفرنسيين على مباداؤه من خطوات ، فالاصلاحات الاولى ضرورية للمصريين ضرورة الهواء الذي يستنشقونه . وهذا الديوان الاخير كان ولا شك من أجل الوقوف على رأى المصريين فى كل ما ينوى الفرنسيون اجراءه من تغيير فى نظم الحكم القديمة وهو يدل على رغبتهم فى المشاركة فى الحكم . ولم تكن تنتظر من محتل اجنبى متصرف أن يشرك الوطنيين فى اكثر من ذلك ، ولا أن يمالئ العنصر الغالب متجاهلا الاقلية بأفضل مما فعل .

وهناك حقيقة يجب التنبيه اليها وهى ان هذه الحملة الفرنسية كانت موضع استنكار كثير من القواد الفرنسيين بل جاهر بهذا الاستنكار فريق منهم على رأسه الجنرال كليبر . فقد كان يرى ان الميدان الأوروبى أولى بالتفات الحكومة . فهو الميدان الحاسم فى نتيجة الحرب بين فرنسا وأعدائها . كما ان القيام بحملة بعيدة يفصلها عن فرنسا بحر يتسوده الأعداء خطوة غير موفقة . هذا الى أن ابعاد صفوة الجنود والقواد الفرنسيين عن فرنسا يعرضها لخطر انتقاص هؤلاء الأعداء . وقد نم هذا فعلا . وكان سوء الاحوال الاجتماعية والاقتصادية ثم الحرية التى وجدها الفرنسيون فى مصر قد ساعد على زيادة عذد الناقمين من القواد . وعلت أصوات القسدامى منهم فى المعارضة والاستنكار ، بل ساعدت على سريان روح التذمر بين عامة الجند . الأمر الذى يهدد الروح المعنوية للقاتحين .

ولم يمض على قدوم الفرنسيين شهر حتى اصطدم الاسطول البريطانى فى البحر المتوسط بالأسطول الفرنسى الذى ربح فى خليج أبى قير بعد أن انتهت مهمته بحمل الجنود الفرنسيين الى مصر ، ودارت الموقعة التى انتهت بتحطيم الأسطول الفرنسى وحصار الاسطول البريطانى للشواطئ المصرية ليمنع أى اتصال بين الفرنسيين فى مصر والحكومة الفرنسية فى باريس .

وكان أثر هذه الضربة على الفرنسيين عظيما فقد حوصروا فى مصر واصبح عليهم أن يدبروا أمرهم معتمدين على الموارد المصرية ، وعلى اخلاص المصريين للحكم الجديد ، وأن يأخذوا حذرهم من كل من تركيا وانجلترا اللذين سوف يتحدان لغرض اخراج الفرنسيين وازال الهزيمة بهم واخراجهم من مصر .

وقد عرف نابليون بونابرت كل هذه النتائج وتنبأ بها ، ولذا أخذت قبضته على مصر تزداد قوة ، واصلاحاته تتجه نحو استغلال مصر بأقصى سرعة وبأقصى طاقة من أجل الدفاع عن الفرنسيين فيها ، فلا غرو ان قامت الثورة في القاهرة . في شهر اكتوبر ولما يمحض على مجيء الفرنسيين ثلاثة اشهر - وهى الثمورة التى حرقت فيها كنيسة حارة الروم . فأمر البطريك مرقص الثامن بنقل البطريكية مؤقتا الى حارة النصارى . ويجمع المؤرخون على ان سبب هذه الثورة هو ضيق القاهريين بهذه الاجراءات التى نفذها الفرنسيون وانهم بدأوا يرضون عن الحكم الفرنسى لو لم يتخذ هذه الاجراءات لتغيير طريقة معيشتهم عما الغوه من قبل . فليس لنا مطلقا ان نعزو هذه الثورة الى اسباب قومية اى رغبة القاهريين فى التخلص من الحكم الفرنسى . بل ان الحق يقضي ان نقول ان الذى دفعهم الى هذه الثورة مجرد الرغبة فى الغاء هذه التشريعات الجديدة . فهى ثورة تشبه ثورة الطفل الذى يرفض ان يأخذ الدواء المر فهو لم يثر ضد والدبه انما ثار من أجل اعطائه الدواء . وكان طبيعيا أن يلجأ الفرنسيون الى الشدة فى قمع هذه الثورة بعد أن راوا الصعوبات تكتنفهم من جميع الجهات . فنصب نابليون المدافع على القلعة وصبها على مراكز الثورة . وهو اجراء رأيناه فى جميع محاولات الفرنسيين حتى انزلت الحاضر فى سحق ثورات الشعوب ، مما يدل على سرعة فقد الفرنسيين لصوابهم . ويزيد الاستاذ محمد نؤاد شكرى على هذا الاستياء من التشريعات استياء المصريين من نجاح قوات (المشركين) وانتصاراتهم وكذلك العداء الدينى السكامن فى نفوسهم لغير المسلمين ثم اشتهاى الفرنسيين بشرب الخمر وخروجهم مع البنات المسلمات مكشوفات الوجوه فى الطرقات (١) .

وكان من نتيجة هذه الثورة امران هما الغاء الديوان بنظامه القديم واعادة انشاءه على نحو جديد هو اشراك غير المسلمين فيه . وقد قصد بهذا الاجراء اشعارهم بالذلة عن طريق مساواتهم بغير المسلمين - الامر الذى لم يحدث منذ الفتح الاسلامى - بعد أن تنكروا لما عاملهم به من قبل

(١) محمد نؤاد شكرى ص ١٧٥ .

من تفوقهم على غيرهم . وهذا الاجراء وان تصد به المعنى القريب الا انه جعل الديوان اكثر ديموقراطية ، بعد ان أعطى جميع طوائف السكان ما كان للأغلبية من حقوق . وكان نابليون قد أسرع الى عزل قاضى القضاء العثمانى ، وطلب من العلماء ان ينتخبوا لهم مصريا بدلا منه وكتب الى المشايخ (ان قد انقضت وفرغت دولة العثماني من اقاليم مصر ، والعامل يعرف ان علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية أهلية للأحكام الشرعية يصلحون للقضاء اكثر من غيرهم) فرفضوا هذا الاعتراف بكفائتهم بل تشفعوا لدى نابليون لبقى على الناضى العثمانى فلم يلنوا من نابليون غير الرفض المطلق وأخيرا انتخبوا مكرهين الشيخ أحمد العريشى (١) .

أما الأمر الثانى الذى تمخضت عنه الثورة فهو تفكير نابليون فى غزو سوريا من أجل الاسنيلاء على شواطئها وموانئها التى تطل على البحر المتوسط ، والتى سوف يستطيع الاتصال بفرنسا عن طريقها وتلقى الأسلحة والملابس اللازمين لرجال حملته . فصناعات مصر لا تستطيع امداده بما يريده منها . وقد عرفنا من الباب السابق كيف ان هذه الصناعات كانت قاصرة على بعض المصنوعات السيئة الصنع التى لا تسد مطالب الفلاحين ليس غير .

ولكن دفاع حسن باشا الجزائر عن عكا ، ثم امداد البريطانيين المدافعين عنها بالسلح فوتا عليه غرضه وعاد نابليون الى مصر وقد تحقق ان الأرض زلزلت من تحته وان هذه الحملة فقد فشلت نهائيا ، فعول على أن يرحل الى فرنسا كى لا ينحمل مسئولية فشلها ، واستطاع فعلا أن يرحل فى غفلة من الأسطول البريطانى .

والقى عبء الحملة على الجنرال كلير ونترك له أوامر بأن يظل الأقباط تائمين على الشؤون المالية وتحصيل الضرائب ولم يلبث الجنرال أن أجرى مفاوضات الجلاء خصومها وقد تأيدت المخاطر التى كان قد تنبأ بهـ قبل رحيل الحملة ، فقد انقلب الميزان فى الميدان الاوروبى وعادت النمسا

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٧٧ ومحمد فؤاد شكرى ص ١٦٩ .

وحليفاتها الى شن الغارة على الاملاك الفرنسية واستردوا منها أجزاء ليست باليسيرة ، وأصبح الميدان المصرى ميدانا ثابويا لا يستحق أن يحجز لأجله هذا العدد الكبير من خيرة الجند الفرنسى .

وتمكن كليبر بعد محاربات ليست باليسيرة أن يصل مع انجلترا الى شروط صالحة للجلاء ، فقد كانت انجلترا توافقة الى خروج الفرنسيين عن مصر بأى تمن وان تحملت هى مصاريف رحيلهم . كما كان الفرنسيون انفسهم تواقين الى هذا الخروج ، وبصفة خاصة أصبح كليبر تواقا لأن يطير الى باريس ليلحق بنابليون كى يلبسه عار ومسئولية هذه الحملة الفاشلة .

وكان تقسّم المفاوضات السريع داعيا لان يعطى كليبر الأوامر الى الفرنسيين المبعثرين فى مصر بالتجمع فى القاهرة ، او فى مواضع قريبة من القاهرة ، من أجل الاسراع بالرحيل . كما سمح لجيش تركى قادم من سوريا أن يجتاز الحدود الشرقية لتسلم المراكز التى يخليها الفرنسيون . وقد قدم مع هذا الجيش الاخير من سبق أن فر من المصريين الى سوريا وعلى رأسهم السيد عمر مكرم نقيب الاشراف .

ووصل هذا الجيش الى الصحراء الشرقية وعسكر فيها ريثما تصل المفاوضات الى نهايتها ويتسلم قائدها الأمر بالتقدم ولكن المصريين الذين رافقوه أسرعوا وسبقوا الجيش ودخلوا القاهرة حيث استقبلهم أهلها كأبطال فاتحين . كما تسلل اليها بعض الجنود بقيادة مصطفى باشا (فبادر بفرض ثلاثة آلاف كيس على الاهالى من أجل ترحيل الفرنسيين ، فقلت الأسعار (١) واشتد الضيق بالناس . كما أمر بقتل النصارى (٢) وأرسل ابراهيم بك الى الشيخ المحروقى يطلب كساوى وطرابيش لجنوده (٣) ونزل الجند الى المدينة ينهبون ما تصل اليه أيديهم ، حتى لقد تمنى الناس عودة الفرنسيين) (٤) .

(١) ج ٣ ص ٩٢ من الجبرتى .

(٢) نفس المصدر ص ٩٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٩٣ .

(٤) نفس المصدر ص ١٠٧ .

« وذهبت طائفة منهم الى حارات انصارى وبين الصوريين وباب
الشعرية والموسكى نصاروا يكبسون البيوت ويقتلون من يصادفونه من
الرجال والنساء والصبيان وشكى الناس الى مصطفى باشا فلم يلتفت
اليهم » (١)

وكان ذلك بناء على تحريض نصوح باشا مما اضطرهم الى الهرب
والتنحس في قصر الدلى فى الأزبكية وهو الذى كان مقر القيادة الفرنسية
العامّة (٢) .

ولكن سرعان ما تعقدت المفاوضات حين رفضت وزارة الخارجية
البريطانية أن يرسل الفرنسيون الى فرنسا ، بل أصرت أن تحملهم المراكب
البريطانية الى إنجلترا كأسرى حرب . وكان من الطبيعى يرفض كليبر
ذلك ، فانتقطت المفاوضات وأعطى الأوامر للفرنسيين أن يعودوا الى
الاماكن التى كانوا يحتلونها من قبل ، كما أعطى الانذارات الى قائد الجيش
التركى المتقدم من الشرق أن يعود أدراجه الى خارج الحدود المصرية .
وعلى أن يظل فى مصر ويدافع جهده عن مواقعه فيها حتى تقتنع
بريطانيا بوجهة نظره أو تحصل جيوش فرنسا فى القارة على نصر حاسم
يرجع كفتها فى المفاوضات اذا عادت واستؤنفت .

وبدأت الادارة الفرنسية من جديد تعيين تنظيم الضرائب وتحصيلها ،
وكذلك تدبير أمر الذخائر اللازمة للجيش ، وكذلك المؤونة والملابس . ولا بد
أن لمثل هذه الاجراءات التى اتسمت بالسرعة والشدة أن تثير غضب
القاهريين فانفجروا فى ثورتهم الثانية .

وقد حاول كثير من الكتاب أن يصف هذه الثورة أيضا بالقومية ،
فيقولون انهم ثاروا من أجل مقاومة المحتل . وأن ثورتهم هذه كانت دفاعا
عن قوميتهم التى استتظلت فجأة ، وأن السيد عمر مكرم أخذ يستحث
الناس على الدفاع والمقاومة ، وأنه صرف فى ذلك أموالا كثيرة ، وأن أهل

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٩٦ ، ١٠

(٢) محمد فؤاد شكرى ص ٣٣٣ .

الحسينية والجمالية لا سيما جزارو الحى الأول قد قاموا بدور فعال هو السالة بعينها (١) ونم بملك كليبر ازاء عنف الثورة التى استمرت سبعة وثلاثين يوما الا أن يترك القاهرة ويحاصرها ويمنع المؤونة عنها حتى تستسلم . وان الأهالى قد قاوموا هذا الحصار وما تعرضوا له من الجوع مثاومة جبارة جدية بأن تكتب لهم فى سجل التاريخ ، وقد تكفل غنيهم بفقيرهم فأرسلوا لهم ما يكتفيهم طيلة مدة الحصار ، وأخيرا لم يستطع هذا الشعب الباسل أن يفعل أكثر من طاقته فاستسلم وأرسل المشايخ لذلك ودخل الفرنسيون القاهرة واستردوها .

أما استبسال أمر انتاهرة فى الدفاع وتحملهم الشدائد طيلة هذه المدة من أجل الانتصار ، جذبر بـ لا عجب حقا ، وبطولتهم هذه جدية بالتسجيل . ولكن البعيد عن التصديق أن يكون سبب هذه الثورة قوميا . فليس هو أكثر من انتفاضة دفعهم اليها السيد عمر مكرم ومن تسرب الى القاهرة من المماليك كالأمير حسن الجداوى ومن تسرب اليها أيضا من الأتراك ، كى يبرهنوا لآسيادهم القادمين أنهم لهم نعم العون ، وأنهم لم يستسلموا للحكم الفرنسى . فمثل هذه التهمة كافية لأن ندفع بهم الى الموت من يحاكم تركى أو قائد تركى قادم لا يعرف الا لغة السيف دون أن يردعه وازع من ضمير أو قانون . وقد أحسن القاهريون بزعمائهم الظن ، كما هى عادتهم ، فاندفعوا فى ثورتهم وتحملوا جميع الضربات وحدهم حتى اذا انتهت الثورة بالفشل أسرع الزعماء بالهرب الى الصالحية (٢) وكان موقف القاهريين فى هذه المذبحة كموقف الجيش المصرى الباسل فى حرب فلسطين فى سنة ١٩٤٨ حين ذهب ليحقق مثالا عليا تجول فى ذهنه وصورها له زعماءه ومات واستشهد من استشهد ، بينما كان مشعلو الحرب فى القاهرة ينعمون باحصاء ما كسبوه من مال ثمنا لهذه الدماء المرافقة الشهيدة .

وكان نجاح الفرنسيين فى سحق ثورة القاهرة ، ثم استرداد الأماكن التى كانوا قد أخلوها ، وفى إقامة بعض الصناعات فى مصر . كذلك جبن الأتراك عن أن يقابلوا الفرنسيين فى معركة شريفة ، ونجاح نابليون فى

(١) الجبرتى ج ٢ ص: ١٠٨ . (٢) الجبرتى ج ٢ ص: ١٠٩ .

استرداد شمال إيطاليا اسبابا متعددة دفعت بالبريطانيين الى أن يعودوا الى عقلهم فيسلموا للفرنسيين بوجهة نظرهم ، فقبلوا في المفاوضات الثانية التي دارت بينهم وبين الجنرال مينو أن يعود الفرنسيون الى فرنسا . وهكذا قدر لمينو أن يكسب شرفا لم يستحقه .

وأخيرا رحل الفرنسيون واسترد الأتراك مصر . وقد اعتقدوا أن الحملة الفرنسية كانت فرصة اتاحتها لهم السماء كي يتخلصوا من المماليك بعد أن فشلوا في الدفاع عن مصر وبعد أن خسروا أعدادا كبيرة منهم أثناء تعقب الفرنسيين لهم .

أما بالنسبة لمصر . فإن هذه الثلاث سنوات التي قضاها الفرنسيون في مصر لاثن لدينا في التاريخ من هذه القرون الاربعة الطويلة التي مكثها العثمانيون في مصر ، فقد علمتنا دروسا كانت نعم الزاد فيما خلف من أيامنا . فقد تعلمنا قيمة هؤلاء الأتراك والمماليك الذين يستأسدون علينا وهم أجبن من الأرناب ، وإن قيمتهم الحربية لا تساوي جنديا واحدا من الجنود الأوروبيين ، كما علمتنا حق الشعب أن يقف في وجه الحاكم وإن كان قويا وإن في استطاعته أن يزلزل الأرض من تحته حتى يحقق له ما يريد أو بعض ما يريد ، كما علمتنا أن بلدنا شيء تتكالب الدول على امتلاكه وأنه شيء يستحق أن نثور لأجله وأن ندافع عنه ، كما علمتنا أن نرغم حاكما على أن يدفع الثمن إذا أراد حلب البقرة . ولكن الاثن من هذا كله أنها دفعت بأقباط مصر لان يظهروا قوميتهم الغافلة ، فیتقدموا الصفوف كي يصرخوا في اخوانهم ان الوقت قد حان لأن يفتكوا هذا الطلسم عن عيونهم فيسبعوا نحو الاستقلال التام بعيدين عن تركيا وغير تركيا ، وإن ولاءهم للخليفة أو لأمير المؤمنين لن يغنى عن استقلالهم المفتزد شيئا . وإن رابطتهم الاسلامية لا تعنى خضوعهم للأجانب وإن كانوا مسلمين . كما لا تعنى عداءهم لآخوانهم في الوطن وإن كانوا مسيحيين فالدين لله والوطن للجميع . وكان الأقباط هم الذين حملوا مشعل هذا الرأي فأعلنوه وسعوا دونه رغم ما وجدوه من مواطنيهم من الجحود وسوء الظن ، ورغم ما نالوه من عنت واضطهاد دفع بعضهم حياته ثمنا له . وما كان الأقباط يوما لينكصوا أو يعودوا فهم لم يعرفوا يوما غير التضحية والفداء في سبيل وطنهم وقوميتهم .

فوطنبة المصريين وقوميتهم كانت سببا من الاسباب الكثيرة التى دفعت بهم الى اعتناق المسيحية كمظهر من مظاهر الثورة على الامبراطورية الرومانية التى سعت الى اهدار قوميتهم (١) واستقلال بلدهم لصالح الجزيرة الايطالية حين ارغموا على جعل بلدهم مزرعة قمح لروما ، واشغلوا فى الأرض عبدا لصالح اسيادهم ، اذ وجدوا فى معتقدات الديانة الجديدة وفلسفتها التى تعتقد بوجود مدبر خفى ذى قوة مجهولة قادر على كل شئ ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويثوبهم عن عملهم الخسير بحسن الثواب وينذرهم بالعقاب بنار لا تطفأ حين يخطئون ويأثمون — وجدوا فى هذه المعتقدات احياء لديانتهم القديمة ومعتقداتهم القديمة المصرية المنبت والمظهر، فجعلوا منها رمزا لمقاومة الحكم الرومانى الذى يمجّد الامبراطور ويرفعه فوق مرتبة البشر . مكان فلاحو مصر من الوثنيين يخفون المسيحيين الذين يلجأون اليهم هربا من الاضطهاد الذى استشهد فيه الكثيرون (٢) .

ووطنية الاقباط وقوميتهم هى التى دفعت بهم لان يجهروا بهذه المعتقدات دون رهبة او خوف امام قوة الدولة الحاكمة ممثلة فى شخص دقلديانوس . وفضلوا ان يضحوا على ان ينكروا ديانتهم التى اتخذوها مظهرا لقوميتهم . ولم تكن الاضطهادات المتوالية التى وقعت بهم لتقلل من عنادهم ، بل زادت مقاومة واحيت روح العناد فيهم (٣) واخيرا انتصر المصريون ممثلين فى ديانتهم الجديدة على الحكم الاجنبى حينما اعترفت الدولة الرومانية بديانتهم ديانة رسمية للدولة .

ولكن هذا الاعتراف كان نذيرا باتدماج قوميتهم فى الدولة الرومانية . الامر الذى يستنكرونه بل يابونه . ولذا اخذت القومية المصرية تعلن مقاومتها لهذا الحكم الاجنبى فى كل فرصة مكنتها من هذه المقاومة ، فكان عقد المجامع الدينية خير فرصة ليملى فيها بطريرك الاسكندرية — يؤازره الشعب — مبادئه على غيره من البطاركة . ويتف بطريرك الاسكندرية ليعلن

Copts and Muslims

(١)

(٢) صور من تاريخ القبط ص ٧٤ .

(٣) صفحة من تاريخ القبط ص ٧٤ .

روح القومية المصرية وحوله إبنائوه المصريون ليدودوا عن هذه الروح الحية ممثلة في البدا الارثوذكسى ، ولعل ما حدث في جمع نيقيه في سنة ٣٢٥ ومقاومة البابا اسكندر وتلميذه اثناسيوس لبدعة اريوس خير مثل لذلك . وحين نفى اثناسيوس الى روما رأى ما عليه هذه المدينة من انحطاط خلقى ومن انتشار للعادات الوثنية قبيها فهاهنا الامر وقام يلقي أهلها درسا في الآداب المسيحية والفضائل المسيحية ويعرض عليهم صورا حية لتلك الفضائل (١) . وعندما عين الامبراطور تيودوسوس من يدعى أغريغوريوس الكبادوكى بطريركا على مصر لم يتردد شعب مصر في الثورة عليه وقتله (٢) اذ لم يكن الشعب ينظر الى محاولة تنصيب بطريرك أجنبى عليه الا سعيًا نحو صبغ كنيستهم بالصبغة اليونانية (٣) أو البيزنطية الأمر الذى يرفضونه كل الرفض . وعندما عاد اثناسيوس الى بطريركيته في عام ٣٦٢ سارع الى عقد مجمع مكائى في الاسكندرية ليؤكد قانون الايمان كما أعلنه في مجمع نيقيه بشأن (الابن المساوى للأب فى الجوهر) . كما كتب الى أسقف روما يطلب منه توقيع العقوبات الكنسية على أسقف ميلان نصر اريوسية . الا نستطيع أن نقول ان هذه المحاولات من اثناسيوس ليست الا تعبيرا عما يجول في خاطره من أن مركز الاسكندرية المختار يؤهلها لأن تتولى رئاسة العالم المسيحى خيرا من كل من القسطنطينية وروما . وكذلك كان نظام الرهبنة فى بعض الاوقات مظهرا من مظاهر الثورة على الحكم الرومانى . فقد أرق الرومان المصريين بمختلف الضرائب ومنها ضريبة الرعوس ، حتى ضاق المسيحيون ذرعا ، فلم يجدوا أمامهم من سبيل سوى الفرار من القرى وترك الأرض الزراعية كوسيلة للامتناع عن الزراعة التى تستولى روما على محصولاتها والامتناع عن دفع الضريبة . فكان الرومان يحاولون انزال غضبهم على من بقى ليدلوهم على مكان الهاربين أو ليجبروهم على دفع ما كان مستحقا عليهم وعلى زملائهم .

وكان الرهبان المصريون خير مثل للروح الوطنية المصرية ، فقد كرس

(١) تاريخ البطارقة ج ١ .

(٢) صور من تاريخ القبط ص ٨٠ .

Egypt and Egyptian Question p 34

(٣)

انبا شنودة حياته لمكافحة الفساد الوثنى مثالا في البيزنطيين والرومانيين فحرم على الاجانب جميعا الالتحاق بديره المعروف بالدير الابيض ، وعمل على تنقية اللغة القبطية من التأثيرات البيزنطية حتى هارت على يديه لغة وطنية صالحة للكتابة (١) .

وكانت وطنية الاقباط وقوميتهم هي التي دفعت بكيرلس الكبير في مجمع افسس سنة ٤٣١ ليدفع هجمات نستور بطريرك القسطنطينية ليعلن الروح المصرية مرة أخرى ممثلة في اتحاد الطبيعتين للمسيح (٢) ولعل أخشى ما كان يخشاه بطريرك القسطنطينية هو تغلب كيرلس بطريرك المستعمرة على بطريرك العاصمة خصوصا وقد لقب البطريرك الاول بعد مجمع افسس الثاني بالبطريرك العالمى ، بينما كان الثانى لا يتميز الا بقربه من الامبراطور . هذا فى الوقت الذى خضعت فيه لبطريرك الاسكندرية أجزاء لم تكن خاضعة للدولة الرومانية كاثيوبيا ونجران . علاوة على الخمس مدن الغربية .

وتظهر القومية المصرية والوطنية القبطية اظهر ما تكون فى تحدى البطريرك ديسقوروس للامبراطور فى الشئون المدنية ، اذ كان يرفض تنفيذ اوامره وهو يقول : « ان صلتى ببلادى اقوى من صلة الامبراطور بها » ولم يكن يتردد مطلقا فى معارضة كل أمر يتعارض مع صالح البلاد الدينى والسياسى (٣) .

ولم تلبث هذه الروح القومية التى حافظ عليها قبط مصر أن اثارت غضب الدولة الحاكمة فانضم الامبراطور الى صف بطريرك القسطنطينية ضد قائلين الثورة ، فعزل البطريرك المصرى ونفاه ، فالتفت الشعب حول رئيسه لأنه نظر اليه ممثلا للروح القومية . ولا يمكننا أن نقول ان جميع المصريين قد تعميقوا فى فهم الدين وعرفوا انفرقا بين الطبيعة الواحدة والطبيعتين المندمجتين قبل كل الدهور أو انفصال احداها عن الأخرى . ولكن الذى يمكننا أن نقوله ان

(١) صور من تاريخ القبط (١١٢ — ١٥٠) .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٩٢ — ١٠٩ .

(٣) صفحة من تاريخ انقبط ص ٨٨ .

المصريين نصرُوا بطريركهم لأنه يمثل روح محاولة الدولة الرومانية التهام الشخصية المصرية (١) فإذا ما أسرع الامبراطور بنعيين بطريرك بدلا من البطريك المنفى رفض الشعب الخضوع له ، وسماه البطريك الملكانى اى الذى يعينه الملك لا الشعب .

ويحفظ لنا التاريخ خلال القرن السادس — الذى سبق الفتح العربى — أنواعا شتى من مقاومة الشعب لمحاولة الامبراطور تنصيب أسقف غريب ولعل المتوقس أحد هؤلاء الغريباء الذين حاول الامبراطور فرضهم فرفضهم الشعب . ولم تكن مساعدة القبط للمغرب فى فتحهم مصر خيانة لوطنهم ووطنيتهم . ولا هى مظهر من مظاهرها . بل فعل ذلك لعله يجد تحت الحكم الجديد اعترافا بقوميته ولغته . فنجدته قد عمده بمجرد انتهاء الحكم البيزنطى الى الغاء الاسماء اليونانية لبلادهم وكفورهم واستبدل بها اسماءها القبطية القديمة . بل هجرت الكنيسة اللغة اليونانية فى طقوسها واستبدلت منها لغتها المصرية القديمة بعد أن كتبتها بحروف يونانية وهى ما نسميها حاليا باللغة القبطية خطأ على نحو ما ذكرنا . وجاء الحكم العربى فأعطى القبط حريتهم الدينية وترك للبطريك المصرى امر تدبير رعاياه ومعاملتهم على الأسس التى تقتضيها دينائهم . حين أعطى عمرو بن العاص البطريك بنيامين مرسوم الامان . ولكننا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نقول ان هذا الحكم العربى استمر صالحا خالصا أو انقلب الى شر خالص فذلك مخالف لطبيعة الأشياء فقد تاب الأمر بين الصلاح والفساد ولكن شيئا هاما لا بد أن نشير اليه ونؤكدوه وهو أن الفساد أو بمعنى أقرب الى موضوعنا سوء حال المسيحيين لم يجر بناء على سياسة عامة للدولة بل كان يصدر بناء على نزعات خاصة لبعض الولاة دون غيرهم . وليس أدل على ذلك من هذه العبارة التى قالها عمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة وهو المعروف بعد صلاحه وتقواه (الحجاج بالعراق . وأخوه محمد باليمن . وعثمان بن حسان بالحجاز . والوليد بالشام وقرّة بن شريك فى مصر . امتلأت بلاد الله جورا) (٢) وحين

(١) صفحة من تاريخ القبط ص ١٤٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٣ .

تولى الخلافة وسأله أحد الولاة أن يلزم من يسلم بالجزية حتى لا ينقص الخراج أجابه قائلا « لقد بعث الله محمدا هاديا لا جابيا » ورفض النصيحة .

ولكن المصريين لم يكونوا يترددون في إبداء سخطهم حين يجدون الفرصة المناسبة . فقد أسرعوا بالانضمام الى العباسيين حين قاموا ورفض أن يعطى الأمان لمروان الثانى حين فر الى مصر يستنجد بأهلها اذ وجد أهل الحوف الشرقي قد اسودوا) أى انضموا الى العباسيين (١) كما لم يتردد المصريون اقباطا ومسلمين فى القيام بثورتهم الكبرى إمام ابن عون ويزيد بن حاتم منتهزين فرصة الفتنة بين الأمين والمأمون . وكانت الثورة عنيفة حتى عجز عيسى بن منصور عن سحقها فاستعان بالأفشين وحضر المأمون بنفسه وأشرف على اجراءات القمع وقتل منهم مقتلة كبيرة (٢) واذا ما جاء الفاطميون أمل المصريون فيهم خيرا فأحسنوا استقبالهم بعد أن كاتبوهم فى فتح مصر وكان الفاطميون أعرف بالجميل من سابقينهم فاعترفوا بالقومية المصرية بل نقلوا مركزهم الى مصر واتخذوا القاهرة عاصمة لهم وعاد الى مصر استقلالها . ولم يلبث الفاطميون أن تمصروا وأصبحوا وليس لهم سيد أجنبي يدفعون له خراجا أو جزية أو يدينون له بالسيادة أو ينادون باسمه فى الخطبة أو ينقشون اسمه على السكة وزادوا بأن سمحوا للمسيحيين باقامة شعائهم الدينية جهرا بل شاركوهم الاحتفال بأعيادهم وتكلم بعضهم القبطية (٣) بل ألغوا بها الى جانب العربية (٤) ورغم قيام الحروب الصليبية واتساعها بسمة الدين مدة قرنين من الزمان فان مسيحيى مصر لم تأخذهم النعرة الدينية الكاذبة . بل وقفوا من المسيحيين الأوربيين موقف العداء الصريح . ولم يهبوا معونتهم لهم . فما دامت حكومتهم الوطنية لم تشترك فيها لأن الحرب لم تكن تعنى مصر فى قليل أو كثير ، وهم لا يفعلون بالعواطف الدينية الكاذبة التى أدعاهها الصليبيون والتى لم تكن تهدف الى غير الرقبة فى الاستيلاء على الشرق

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣١٦ .

(٢) لعله يبدو غريبا أن تطلق الحكومة المصرية اسم هذا الخليفة على شارع من أكبر شوارع القاهرة .

(٣) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ص ٨٩ .

(٤) صور من تاريخ القبط ص ١٨٦ - ٢٠٨ .

الغنى . ولم يتحول المسيحيون عن هذا الموقف الا حينما راوا هذه الحروب وقد أصبحت خطرا مباشرا على بلادهم فهبوا للدفاع عنها وتمكنوا مع جميع المصريين من صد هذا الأجنبي الدخيل . ورغم ما نال المسيحيين في خلال العصر المملوكى من اضطهاد بالغ ورغم فساد الحكومة وسوء ادارتها فانهم لم يثوروا لعلهم ان الوطن سليم بخير لا يخضع لسلطة خارجية ولا يدين بالولاء لقوة أجنبية . بل وجدوا هذه الدولة قد نقلت الخلافة الاسلامية الى القاهرة فأصبحت بذلك مصر رأسا بعد ان كانت ذيلا ودولة متبوعة بعد ان كانت تابعة، ونظروا الى المسألة من وجهها الصحيح فان هذا الاضطهاد كغيره من أوجه الادارة السياسية كان أمرا فرديا يصدر عن سلطان بعينه ، فالفردية كانت أظهر ما ميز العصر المملوكى كله . هذا الى أن الاضطهاد كان فى بعض أوقاته حسدا من النجاح الاقتصادي الذى تمتع به المسيحيون (١) . كما أن بعض مراسيم الاضطهاد صدرت تحت تأثير وزير أجنبى دخيل بعيد عن فهم الروح القومية المصرية (٢) ولذا نظر كثير من المسلمين الى مثل هذه المراسيم نظرة الاستنكار فساعد ذلك على تخلص المسيحيين منها فى سرعة منقطعة النظير ، وتعاون المسيحيون والمسلمون فى استنكارها ونبذ العمل بها فى كثير من الفرص . وجاء الأتراك من الخارج غزاة ليقضوا على مصر المستقلة فلم يجدوا من أهل البلاد أو من الأقباط خاصة المعاونة التى لاقاها العرب عند فتحهم البلاد منذ تسعة فرسوخ رغم ما لاقوه من القسوة تحت الحكم المملوكى . ولذا قاسى الأقباط من الحكم التركى كما قاسى غيرهم وان كان نصيبهم من مساوئ هذا العهد أكثر من نصيب غيرهم . وعلى ضوء هذا التفسير أخلص بعض الأقباط للحكم الفرنسى . بل أكثر من ذلك حين رأى المعلم يعقوب حنا ان زوال الحكم الفرنسى ضربة لازب تذكر بما سوئ تعانيه البلاد ويعانونه هم تحت الحكم التركى القادم فاتجه نظره الى أن يؤمل فى شيء جديد ينحصر فى حياة مصر بعيدة عن كل من الفرنسيين والأتراك بل بعيدة عن كل قوة أخرى

Egypt and The Egyptian Question p - 213 (١)

Ibid p 207 (٢)

عبر الفرنسيين والأتراك . مصر المستقلة الخارجة من كل نفوذ اجنبى .
وإذا كان المعلم يعقوب حنا وامثاله قد فكروا فى هذه الناحية التقدمية وتطلعت
آمالهم الى هذا الحلم الذى لم يكن مواطنيهم ليتطلعوا اليه مما كان ذلك ذنبهم .
وإذا كان مواطنوهم قد أساءوا بهم الظن وحاولوا التنكيل بهم فيجب ان لا يكون
ذلك موقفنا منهم نحن الذين نفهم الاستقلال ونقدره ، فما كان المعلم يعقوب
وزملائه خائنين لبلادهم كما يحلوا لبعض المؤرخين الحالين ان ينعتوهم ، بل
كانوا سابقين لعصرهم وءملوا تحت ضغط الظروف التى وجهتهم هذا
التوجيه . لقد كان أعظم الاقبات الذين ساعدوا على سحق قوات المهالك
والأتراك ، المعلم يعقوب هذا الذى سوف نفرد عنه جزءا مفصلا لما كان من
مجهوداته العظيم من أثر نادر خلق مشروع يرمى الى استقلال مصر بعيدة عن كل
نموذج اجنبى وسعيه المتواصل لأجل نجاح هذا المشروع رغم عدم تقدير مواطنيه
له فنعتوه بأقبح النعوت بل حاولوا قتله ، بل قتل جميع الاقبات حين جمعهم فى
قلعته التى كانت قائمة فى حارة النصارى بسوق القليلة فهاجبهم حسن بك
الجداوى أحد كبار المهالك على رأس جند كنيف فلقيهم المعلم يعقوب عند وجه
البركة وحاربه يوما كاملا حتى كلت عزيمته وسقط أغلب رجاله قتلى .

وعاودوا الهجوم فى اليوم التالى فلم يكن نصيبهم فيه خيرا من أمسه
فكان ذلك سببا فى اثاره غضبه وعودته للمرة الثالثة وحاصر القلعة . ففتح
المعلم يعقوب أبوابها وأمر فرسانه أن يخترقوا سياج الاسلحة بجيادهم
فاخترقوها وفشل الحصار الذى كاد يؤدى — لو نجح — الى فناء اقبات
القاهرة عن بكرة أبيهم (١) ولذا لا نستغرب اذا وجدنا الاقبات قد نظروا الى
الحملة الفرنسية القادمة نظرة أمل يرجى ، يخلصهم من هذا الحكم التركى
الفاسد ويخلصهم من القومية الاسلامية التى اصطنعتها الخلافة ثم الانراك
العثمانيون من بعدهم من أجل القضاء على القوميات الوطنية للبلاد التى دخلت
فى نظامها . فاقبلوا يعينونها بمختلف الوسائل ، فكل مساعدة تقدم للفرنسيين
انما هى مسمار فى نعش الاحتلال التركى .

(١) الاقبات فى القرن العشرين ج ٢ ص ٤١ .

وعرف الفرنسيون ما كان عليه الإقباط من مهارة وكفاءة ، فولوهم المناصب الخيرة ، فتفرد المعلم فلتاعوس حنا باقليم الغربية ، والمعلم واصف باقليم المنوفية ، والمعلم انطون أبو طاقية باقليم الشرقية ، كما تولى المعلم جرجس الجوهري ما يشبه وزارة الداخلية ، والمعلم ملطى يوسف وزارة العدل ، أو رئيس محكمة القضايا ، والمعلم لطف الله المصرى عضوية مجلس التجار (١) والمعلم شكر الله جرجس رئيسا لديوان المالية ، كما اشترك في وضع نظام دقيق لجباية الضرائب لتجمع من الأهالى بالعدل ، فعناد ذلك بالخير العقيم على جميع المصريين حيث رغعت عن عاتقهم الضرائب الباهظة التي كانوا يرسفون في أغلالها (٢) بل انضم الى القوة المحاربة الفرنسية كثير من الأقباط مثل المعلم مكاريوس حنين ، والمعلم غبريال سيداروس ، والقس حنا راعى كنيسة منفلوط ، ويوصل كل منهم الى رتبة كولونيل ، ثم عبد الله منصور الذى كان من أكبر أعوان ابراهيم بك فحصل على وثبة قومندان . وعين نابليون المعلم الياس بقطر الذى كان راسخ القدم فى الفرنسية سكرتيرا خاصا له ثم عضوا بالمجمع العلمى (٣) .

ولذا كان المعلم يعقوب حنا أول من استيقظ من المصريين واستغل الفرنسيين احسن استفلال كى يضمن بمساعدتهم استقلال بلده . وجدير بمصر المعاصرة أن تعرف لهذا المصرى مكانته منقيم له تمثالا من حجر بل من الذهب فى اوسع ميادين القاهرة لتكتب على قاعدته (أول من نادى باستقلال مصر فى العصر الحديث) وسوف نرى فى حياة هذا المعلم الذى نبع من بين صفوف الشعب وثقافة الشعب سلسلة متواصلة من الامجاد التى تعلو مع الزمن . مما يحق للإقباط أن يفخروا به لثبات من السنين قادمة .

ولد المعلم يعقوب فى ملوى سنة ١٧٤٥ من أسرة قبطية متوسطة الحال . وتلقى علومه فى أحد الكتاتيب القبطية التى كانت شائعة فى ذلك

-
- (١) الإقباط فى القرن العشرين ج ٣ ص ١٣ .
 - (٢) نفس المصدر ص ٢٢ .
 - (٣) صور من تاريخ القبط ص ٣٠٦ .

العصر ، ولكنه أكب على الدرس بنفسه حتى تعلم الفرنسية الى حد التبرير . واشتهر بالتفوق في العلوم الحسابية ، حتى اذا دخل خدمة أحد المماليك في اقليم الفيوم — وهو سليمان بك — تعلم الفروسية واللعب بالسيف وساعده على ذلك ما حباه الله به من قوة في الجسم . وكانت خبرته المالية وما أولاه اياه سيده سليمان بك من ثقة سببا في حيازته ثروة مكنته من اقتناء الخدم والحشم ثم من بناء قلعة على رأس حارة القبيلة عند حارة النصارى أقام على حراستها عددا من الجند شاكى السلاح .

ورأى المعلم يعقوب في الفرنسيين فرصة لخدمة بلاده لم يتردد في اقتناصها ، فانضم الى حملة ديزيه التي أرسلت لمطاردة فلول المماليك في الصعيد . فساعد بشجاعته على القضاء على أوكارهم كما حدث في بلدة العتامنة من أعمال محافظة أسيوط حين ظل ينازل المماليك مخاطرا بحياته حتى لحق به الجنرال ديزيه فلم يملك سوى أن يهنئه على ما بذله من جهد . وقدم له سيفا فخريا تذكريا لبسالته وكان ذلك عند بلدة بنى سند بحضور كبار القواد والضباط وسائر الجنود ، ونقشت على السيف عبارة (معركة عين القوصية) ويقال ان هذا السيف لا يزال محفوظا لدى من تبقى من أفراد أسرته . وحذا لو تكرموا فقدموه هدية الى المتحف القبطى خوفا من ضياعه . ان كان ذلك حقيقيا .

وفي خلال عمله نجح المعلم يعقوب في منع استعمال العنف في جباية الضرائب بل نجح في حمل الفرنسيين على احترام المصريين وعدم أخذهم كرهائن من أجل المال . كما كان يفعل المماليك في حروبهم ، وكما عمد الفرنسيون في أول أمرهم . فقد حدث أن تولى الجنرال بليار الاشراف على جباية الضرائب فتأخر أهل قرية من قرى بنى سويف عن موعد تسديدها فقبض على مشايخها رهينة عنده حتى يتم التسديد . فاذا ما قدم المعلم يعقوب الى بنى سويف بصحبة الجنرال ديزيه وعلم بالأمر أظهر امتعاضه لذلك ، واحتج على تصرف بليار ونصح باستعمال الأناة في الجباية والكف عن ارهاق الفلاحين واخلاء سبيل المشايخ فأقره الفرنسيون على رأيه وعملوا

بنصيحته (١) .

ولم يملك الجنرال ديزيه ازاء الخدمات الجليلة التى قدمها المعلم يعقوب الا الاشادة بخدماته حين جهز للحملة كل ما يلزمها وأمن طرق مواصلاتها ونظم حركاتها وجعل القائد على اتصال دائم بجنوده المتفرقين فى البلاد على طول النيل . واضطلع بمهام الشئون المالية والادارية فى جميع أرجاء الوجه القبلى من حيث توزيع الضرائب وتنظيم جبايتها والتوفيق بين الأوامر الادارية الجديدة والانظمة القديمة التى كانت سائدة فى البلاد (٢) .

ويروى الجبرتى ان يعقوب كان يتمتع بسلطان مطلق فى عهد الجنرال كليبر ، وبالرغم مما خوله هذا السلطان من سلطات استعمل السياسة والحكمة فى جباية الغرامة التى فرضها كليبر على القاهرة عقب ثورة القاهرة الثانية (٣) .

وعندما قتل كليبر وتولى مينو قيادة الجيش الفرنسى اراد أن يمالئ أهل مصر فأعلن اسلامه وتزوج بمسلمة . بل أصدر امره بوقف الاقتباط من دواوين الحكومة (٤) . ولكنه حينما اراد أن ينظم ايرادات الدولة عين لذلك المسيو استيف مديرا عاما للايرادات فوجد هذا الأخير نفسه فى حاجة ماسة الى خبرة المعلم يعقوب فعينه مستشارا للشئون المالية ، ولما تبين له ان ايرادات الدولة لا تكفى لسد حاجة الجيش والمشروعات العامة فاتح المعلم يعقوب فى ضرورة عقد قرض بمليون من الفرنكات . ورغم سوء حالة الفرنسيين فى مصر وظهور جميع الدلائل على سرعة رحيلهم فانه اتفق مع ثلاثة من زملائه وهم المعلم جرجس الجوهري ، والمعلم انطون أبو طائفة والمعلم ملطى . على تقديمها متضامنين فقدموها فعلا على أن تخصم من الضرائب المطلوبة من المديرية الداخلة فى دائرة اختصاصاتهم الادارية واعطاهم اسنيف بقيمتها سندات على الخزانة الفرنسية . ولم يسترد أحد

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٠٥ .

(٢) صور من تاريخ القبط ص ٣٠٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٠٧ .

(٤) الجبرتى ج ٣ ص ١٢١ .

منهم ما دفعه بل ظل المعلم انطون يطالب بماله حتى أيام نابليون الثالث الذي لم يعترف بهذا الدين . وهذه الخدمات الجليلة التي قدمها المعلم يعقوب لمواطنيه لا تعد شيئا مذكورا بجانب ما قام به بعد ذلك . فقد اتصل بالجنرال كليبر ووقف منه على سوء حال الفرنسيين في مصر وعرف رأيه في وجوب جلائهم عنها . فصور له ان احسن قوة تستطيع فرنسا ان تستند اليها هي جيش وطني مصري تقوم فرنسا بتسليحه على ان يكون ذلك على نفقة المصريين انفسهم .

فاقتنع كليبر بالفكرة وأذن له في تنفيذها (١) وقد فعل المعلم يعقوب ذلك لانه كان يعلم أنه يوم يجد الجد ويخرج الفرنسيون ، لابد أن تكون هناك قوة مصرية تستطيع أن تملأ ارادتها على كل من الممالك والأتراك . وأن مصر المحرومة من الجيش الوطني لن تستطيع أن تؤثر في مجريات الامور وانها سوف تكون كالشاة التي يتداولها الجزائريون ليرى كل منهم نفسه أولى بذبحها ، فجمع أكثر من ألفي شاب من أهل الصعيد ، أوكل كليبر أمر تدريبهم على الحركات الحربية والنظم العسكرية الى ضباط اختارهم من الفرنسيين ، فأظهر جنود هذه الفرقة من ضروب الشجاعة والبسالة ما يشرف المصريين ، وتولى المعلم يعقوب قيادتهم بعد أن جهزهم بالسلاح والذخيرة على نفقته الخاصة (٢) فكان أول جيش مصري خالص منذ أيام الاسكندر .

وكان آخر مشروعاته هذا المشروع الذي كتب له الخلود في سجل التاريخ وهو مشروع تأليف وفد مصري سافر مع الحملة الى أوروبا ليقنع حكومتى انجلترا وفرنسا بالموافقة على استقلال مصر بعيدة عن كل نفوذ أجنبي . فقد رأى ان فرنسا قد أرغمت على ترك مصر ، وان الذي أرغمها على ذلك لم يكن تركيا صاحبة السيادة عليها بل انجلترا . فوق انهم (انجلترا وفرنسا) صاحبتا اكبر قوة في العالم . وان تركيا لا تعدو رجلا مريضاً تعامله كل دولة وفق مصالحها . كما عرف ان انجلترا لو أرادت أن تحتل مصر لما وجدت من يعارضها . ويرغبها على الجلاء . فأتقن أن

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٢١ .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٣٠٧ .

مصر المستقلة — بضمان كل من إنجلترا وفرنسا — أقدر على خدمة العالم والسلام من مصر المحتلة الضعيفة . (ولمصر من مجدها وماضيها السالف ثم من مواردها الحالية وكذلك من نشاط أبنائها مسلمين وأقباط ما يؤهلها لحمل هذه الأمانة) . ولذا لم يتردد في القيام بهذه المهمة رغم الظلام الذى كان يحوطها والشك الذى يعتورها . فبارح مصر على رأس وفد قبضى لىسمى لهذا الغرض النبيل ولكن القسدر لم يمهله وكان اقصى على مصر من قسوته على المعلم يعقوب نفسه فمات الرجل فى اليوم الرابع عشر من رحيله . وفشل مشروعه . ولكن ذلك لا يمنعنا من أن ندرس هذا المشروع وما قام به الرجل خلال رحلته القصيرة من جهود فى سبيل انتفاع من يراه مسئولا من أجل نجاح مشروعه .

وقبل أن يرحل الوفد أرسل قبطان باشا حسن قائد الجيش التركى كتابا الى الجنرال بليار يرجوه فيه بالحاج أن يقنع يعقوب بالبقاء فى مصر للانتفاع بخدماته . ولكنه اعتذر قائلا عبارته الرائعة (ان مهمتى لم تنته بعد) .

قابل المعلم يعقوب قائد البارجة البريطانية التى رحل عليها واخذ يحدثه عن مستقبل بلاده وكان حديثا سريا . ولكن القائد كتب عنه الى اللورد الاول للبحرية البريطانية يقول : ان المعلم يعقوب حدثه — بعد أن أخذ منه ميثاقا بأن لا يستعمل هو أو الحكومة البريطانية هذه المعلومات فيما يؤذى بلاده — عن رغبته فى قيام حكومة مستقلة فى مصر (١) ووسيلته فى ذلك السعى لدى الحكومات الاوربية وخصوصا إنجلترا وفرنسا بعد أن تبين لهما استحالة استعمارهما لمصر . وليس من شك فى أن هذا الاستقلال سوف يعيد لمصر رخاءها ، ولا بد أن إنجلترا بحكم مركزها فى الهند سوف تهتم كثيرا بالتجارة مع مصر وما حولها من المناطق فمستفيد بذلك أكبر فائدة لما اختصت بها مصر من المزايا .

أما عن شكل هذه الحكومة فهو لم يفكر فيها بشكل تفصيلى سوى أنها

(١) مذكرة القائد جوزيف امنديس الى اميرال البحرية البريطانية فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٠١ (صور من تاريخ القبط ص ٣١٥) .

ستكون عادلة حازمة وطنية ترفسه عن عيش الناس، وتزيد في كسبهم فتحترم وتطاع وتحب .

أما عن دفاع هذه الحكومة عن استقلال البلاد إذا اعتدى عليها معتد ، فإنه لم يكن يتصور وجود هذه الدولة المعتدية سوى تركيا والماليك (١) وفي هذه الحالة ستقف الدول الغربية في سبيلها وتحظر عليها مس هذا الاستقلال الذى سيكون في ضمانتهما جميعا إلى أن يحين الوقت الذى يتم فيه تنظيم الجيش الوطنى وجعله قادرا بحيث يستطيع رد الاعتداء مهما كان مصدره .

وخطة الوفد المصرى فى ذلك أن يسعى فى أوروبا كي تكون فرنسا هى البائدة بعرض المقترحات الأولى الخاصة بالاستقلال على انجلترا ، بينما يكون الوفد من ناحيته قد سعى ونجح فى اقناع انجلترا بمزايا هذا المشروع وبذلك لا يتعرض المشروع لرفض الحكومة البريطانية له تحت تأثير خوف الحكومة البريطانية من كل ما هو فرنسى .

ولم يحل موت المعلم يعقوب دون مواصلة الوفد لمساعيه . فما كاد يصل إلى مرسيليا حتى بادر نهر أفندى سكرتير الوفد فكتب إلى نابليون (إذا تنازلت من أجل مجدك . ولفائدة الجمهورية السياسى . فمهددت يد المساعدة إلى المصريين وأحسنست استقبال وكلائهم فى باريس فاعلم أن مصر المستقلة سنعوض عليك خسارتك فى فقدتها مائة مرة) .

وقد استند نهر أفندى فى رسالته هذه إلى نابليون فى حق مصر فى الاستقلال على ما كان لها فى سالف الأيام من عز تام (عندما كانت فرنسا لا يظهر منها للناس الا جليد وغابات كانت مصر الزاهية المتحضرة تلقى دروس العلم والعرفان على مشرعى الاغريق) وكانت هذه الرسالة مؤرخة فى سبتمبر سنة ١٨٠١ .

(١) كانت هذه النظرة صحيحة إذ لم تكن هناك دولة قوية بعد ذلك الا امبراطورية النمسا والمجر التى لم تفكر يوما فى توسيع رقعتها خارج أوروبا .

كما كتب نمر أفندى رسالة ثانية الى تاليران وزير الخارجية الفرنسية يتسول (ان فرنسا قد خسرت خسارة عظيمة في الشرق . فلم لا تتخذ من مهمة هذا الوفد وسيلة لتعويض ما خسرت . فانها تستطيع — مستندة الى صداقة مصر المستقلة — أن تمد نفوذها الأدبي نحو أواسط أفريقيا . وهكذا يتحول جلاؤكم عن مصر من حادث نحس الى منبع مجد للقنصل الأول ورفاهية لأقاليم فرنسا الجنوبية) .

ومن ذلك تدرك ان القبط أثبتوا أنهم في هذه الآونة من تاريخهم كما كانوا دائما جديرين بشرف الانتساب الى مصر . فقد كان في وسع المعلم يعقوب ومن خرج معه من الأقباط أن يظلوا في مصر ليتمتعوا بالنفوذ والجاه لا سيما وقد طلب القبطان حسن باشا (الاستفادة من خدماتهم) أو على الأقل كان المعلم يعقوب يستطيع أن يمكث معنهما على الفيلق القبطي ليصبح قوة محركة في مستقبل البلاد السياسى ولكنه لم يفعل لأنه عرف انه مهما كان الانجاه الذى سيتخذه بعد ذلك فهو لن يكون الا في نطاق الخضوع للأتراك . وهو النظام الذى قال عنه قبل ذلك (ان أى نوع من انواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم نابليون بونابرت) (١) .

وقد أثر المعلم يعقوب أن يخرج وهو لا يعرف ماذا ينتظره في الخارج ليسعى نحو هدف يراه أشرف من أى هدف آخر . فهو أشرف من أن يصبح صاحب جاه في مصر وهو أشرف من أن يصبح صاحب قوة مؤثرة في توجيه تاريخ بلاده في ظل الحكم العثمانى وهو أشرف من أن يصبح صاحب قوة مؤثرة في تحسين أحوال مواطنيه من الأقباط .

ولم يشأ قائد السفينة أن يقذف بجثة المعلم يعقوب الى البحر كما جرت العادة بل احتفظ بها حتى وصلت الى مارسيليا وهناك احتفلت الحكومة الفرنسية بتشيعها احتفالا عسكريا مهيبا ، اشترك فيه جنود الحملة الفرنسية والفيلق القبطى ثم دفن في مقبرة القديس بطرس بمارسيليا تحت

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣١١ .

ظل النخيل الذى غرسه أحفاده حول نصب 'البقرة' ليعيد ذكرى شاطئ
النيل .

وبذلك خسر الأقباط ، بل خسرت مصر كلها بطلا سبق عصره بقرن
من الزمان على الأقل .

وقبل أن نختم هذا الباب يحسن بنا أن نقف وقفة قصيرة عند المعلم
يعقوب الذى لقي من بعض المؤرخين المصريين جزاء مغائرا ، لم يتورع
بعضهم عن اتهمه بتهمة الخيانة لقاء مساعدته للفرنسيين فى حروبهم ضد
الماليك .

لقد حارب المعلم يعقوب فى صف الفرنسيين وهو يعلم ان كل انتصار
يحرزه هؤلاء انها هو مسمار يدق فى نفس السيادة التركية الذى أذاق
المصريين عامة والأقباط خاصة كأس الذل وقطع الصلة ببلادهم عن العالم
الخارجى فأصبحت مصر بذلك منذ القرن السادس عشر الميلادى — وكأنها
قد تأخرت عن الركب العالمى عشرين قرنا أو يزيد .

هذا الى أنه يحارب الفرنسيين وهو يعلم أنه يحارب فى صف العلم —
وقد رأى نظامهم الحربى وتقدمه — ضد الجهل والتأخر بينما كان غيره يحارب
الفرنسيين مدافعا عن الاستعمار التركى أى أن كلا منهما كان يحارب فى
صف الاستعمار الأجنبى لبلاده فلماذا ينعت المعلم يعقوب بتهمة الخيانة
لأنه يؤيد الاستعمار الفرنسى ولا ينعت الآخرون بنفس التهمة لأنهم يؤيدون
الاستعمار التركى . وهل الاستعمار التركى أنضل من الاستعمار الفرنسى ؟
ولماذا يعطف المؤرخ الحديث على موقف الأقباط حين ساعدوا الفتح العربى
ويعلله بأن الأقباط قد ذاقوا الذل تحت الحكم البيزنطى وأرادوا الترحيب
بالعرب منقذيههم ولا يعطف على هؤلاء الذين ساعدوا الفرنسيين لا سيما
والأقباط قد ذاقوا تحت الحكم التركى ما هو أهر من الذل ؟ فهل مساعدة
العرب الفاتحين محمودة ومساعدة الفرنسيين الفاتحين مذمومة ؟ .

وإذا كان المعلم يعقوب قد كسب الفيلق القبطى وجعله تحت القيادة
الفرنسية فهو لم يفعل ذلك الا فى أيام كليبر وكلنا يعلم ان كليبر كان معارضا

للحملة الفرنسية على مصر مرحبا بالجلء عنهما . فما كاد يتسلم القيادة بعد سفر نابليون حتى بادر بفتح المفاوضات مع البريطانيين (القوة الحقيقية المناهضة للفرنسيين) من أجل الجلاء عن مصر وكأن المعلم يعقوب لم يبدأ في تكوين الفيلق القبطى الا حين علم ان جلاء الفرنسيين امر لا شك فيه ، وأراد أن يجعل المصريين قوة تستطيع أن تلعب دورا على مسرح الحوادث المصرية ولا يترك الأمر بين يدي الأتراك والمماليك يدبرونه كيف يشاعون وهو موقف كله شجاعة وبعد نظر حتى اذا فكر في الأمر بعد ذلك وجد السعى في سبيل استقلال مصر بعيدا عن كل من تركيا وانجلترا وفرنسا غرضا اسمى من كل شيء . وفي نظري ان رمى المعلم يعقوب بتهمة الخيانة لا ينم الا عن قصر نظر وسوء نية .

الباب الثالث

عصر محمد على

جلا الفرنسيون عن مصر فظن المماليك أنها كانت سحابة صيف وانقضت تعود بعدها الأحوال الى ما كانت عليه ويعتقدون انى سابق سلطانهم . كما ظنوها الاتراك فرصة العمر قد أتاحها الفرنسيون للتخلص من المماليك الذين فشلوا فى الدفاع عن مصر وحماتها ضد التدخل الأجنبى . ولذا كانت الأوامر التى حملها والى الاول حسن باشا قبطان صريحة فى وجوب التخلص من المماليك مهما كان الثمن ومهما كانت الوسائل التى يتبعها (١) .

ولذا ظهر منذ اللحظة الاولى أن هناك صراعا سوف ينشب من أجل الاستيلاء على السلطة (٢) ، فمن من السידين يركب هذه المطية الذلول .

وبدا أيضا منذ اللحظة الاولى ان تركيا لم تستفد من دروسها السابقة ، فقد وصل والى الجديد مفلسا يستند على شرازم من فرق ثائرة لم نتسلم مرتباتها لعدة شهور سابقة (٣) فامتألت البلاد بالفرق المختلفة من اترك وولاة الى ممالك الى ارناؤود . ولكل منهم قائده الذى لا يخضع للوالى ، فعانت كل هذه الطوائف فى البلاد فسادا ، وظلت البلاد اربع سنين مسرحا لنهب متواصل من طوائف الجند المختلفة ، كان الفلاحون والتجار ضحيته . ولم يراع هؤلاء الجند فى نهبهم أو صراعهم مع بعضهم قاعدة واحدة من قواعد الخلق أو الانسانية ، فكثرت ثوراتهم على الولاة من أجل المرتبات المتأخرة (٤) ، وكثر طلب الولاة للأموال مقدما لأكثر من سنة ، وكان

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢١٢ .

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٤١ .

(٣) الجبرتى ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٤) الجبرتى ج ٢ ص ٢٥٨ و ٢٦١ .

نصيب الاقباط من هذه المظالم كثيرا من أجل ما كان يشاع عن ثرائهم (١) .
ومن الطبيعي أن لا يسلم الممالك البلاد لقمة سائفة للأتراك اذ كانوا
يعتقدون أنها بلادهم التي أعطاها الله لهم ، والأتراك مفتصبون ، ولذا كان
صراعهم من أجل الاحتفاظ بالسلطة مريرا قاسيا وقعت نتيجته على رؤوس
المصريين . انظر الى الجبرتي وهو يصف كيفية صراع الممالك من أجل
الاحتفاظ بسلطتهم فيقول :

فلم ينجاسروا على الاقدام عليهم (الأتراك) من الطريق . بل دخلوا
البيوت التي في صفهم ونقبوا من بيت الى آخر حتى انتهوا الى أول منزل من
مساكنهم ، فنقبوا البيت الذي يسكن فيه الشيخ محمد سعد البكري ونفذوا
منه الى المنزل الذي يجاوره ثم الى بيت على أغا انشعراوى ثم الى بيت سيدى
محمد وأخيه سيدى محمود المعروف بأبى دفية الملاصق لسكن طائفة من الأرثوود
وعبثوا فى الدور وازعجوا أهلها بقبيح أفعالهم فانهم عندما يدخلون أول بيت
يصعدون الى الحريم بصورة منكرة من غير دستور ولا استئذان وينقبون من
مساكن الحريم العليا فيهدمون الحائط ويدخلون الى محل حريم الدار الاخرى
وتصعد طائفة منهم الى السطح وهم يرمون بالبنادق فى الهواء فى حال مشيهم
وسيرهم . وهكذا طفتت العساكر تنهب الامتعة والثياب ويأسرون الصناديق
ويأخذون ما فيها ويأكلون ما فى القدور من الاطعمة فى نهار رمضان من غير
احتشام (٢) .

ومن وراء هاتين القوتين ظهرت شخصية محمد على وقد رأى بواذر هذا
الصراع فعول على أن يستفيد منه وكانت وسيلته فى ذلك المشايخ الذين
وقعوا ضحية خداعه لهم ، فى وسط هذه التيارات المتضاربة وقف الشعب
المصرى الأعزل لا يملك من نفسه نفعا ولا ضرا ينتظر الرابح منها ليكون له
طعاما شهيا .

وبدأت الحرب مريرة قاسية قاسى منها الشعب ما ليس بالقليل من

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٣١٤ و ٣٢٠ و ٣٢٧ .

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ٧٦ .

المصائب والمحن وانتهت بفوز محمد على في سنة ١٨٠٦. بين رضاء المشايخ الذين أقنعوا أنفسهم بأنهم هم الذين نصّبوه وبين سخط الباب العالي الذي أفلت منه هذا الوالى دون أن يدفع الثمن وترقبت إنجلترا اللحظة الحاسمة لتتقض .

وبدا محمد على سلسلة مشروعاته الضخمة التى ترمى الى خلق دولة مصرية ، ذات كيان سياسى مستقل . وكان أساس مشروعاته هو الإصلاح الزراعى الذى نستطيع أن نقول فى نقده شيئا كبيرا ، ولكننا لا ننكر فى النهاية أنه أفاد مصر فائدة اقتصادية هائلة .

وجاءت مع هذا سلسلة مشروعاته الحربية سواء كانت مدافعة أو مهاجمة . وتعتمد فى نفس الوقت على طاقة إنتاجية كافية .

وقد اشترك جميع أبناء الأمة فى جميع الميادين ، سواء ميدان العمل فى الحقل أو المصنع أو الإدارة ، وبذلك وضع مبدأ المساواة وضعاً عملياً للمرة الأولى ، فلم تفرض ضرائب خاصة على الأقباط ، ولا حرم الأقباط من شرف الخدمة فى ميدان من الميادين ، وبذلك بُت للعالم كله أن الأمة المصرية لا تكون من عناصر ممتزجة بل تتكون من كل واحد كما يتكون الهواء . أن حرم أحد عناصره لم يعد هواء يحمل الاسم الذى خلقه الله ليفى أغراضه المختلفة .

وقد ربح مصر فى هذا العهد أن استيقظت فى أبنائها الروح الحربية التى حرص الحكام المتوالون طوال القرون المختلفة على اعدامها ، فقد عمل الفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك على عدم بعث هذا المارد مخافة أن يسبب لهم من المشاكل ما هم فى غنى عنه ، وحرصوا على أن يعطوا هذا العمل أسماء مختلفة مثل توفير الطاقة للإنتاج ، أو عدم حرمان الأرض من اليد العاملة ، وهى حيلة أن جازت على المصريين فى بعض العصور فأمنوا بهـ واستكانوا اليهـ ، إلا أن هذه الفترة من التاريخ أثبتت فسادها بطريقة عملية بعد أن امتد نشاط المصريين الى الحرب والى الانتاج الزراعى والصناعى دون أن يتأثر احداها بالآخر ، بل ساعد كل منهما الآخر وعملت كلها متعاونة كمجالات آلة واحدة . وفى خلال هذه الفترة من بداية القرن التاسع عشر فتحت نوافذ

مصر الى العالم الخارجى فلم تعد تعاني العزلة التى فرضها عليها
حكّامها السابقون . بدافع من مصالحهم الخاصة ، بل أصبحت مصلحتها
تقتضى منها أن تتصل بهذا العالم وتستفيد منه وكان مظهر هذا الاتصال هذه
البعثات العديدة التى أرسلت الى الخارج لتتلم فى مدارس وتستفيد من
خبرته . حتى اذا عادوا أصبحوا مصدر الانتاج الضخم المتعدد النواحي .
وكان مظهر هذا الاتصال أيضا هذا العدد الوافر من الأجانب الذى قدم مصر
ليساهم فى نهضتها ، وليقدم نتاج خبرته ليدعم بها هذه النهضة الحديثة .

وكان مظهر هذا الاتصال أيضا هذه الحركة القومية التى أدت الى
ترجمة عدد كبير من الكتب الفنية وغير الفنية الى العربية ليستفيد من نشرها
أكبر عدد ممكن ، وبذلك رخصت المعرفة وسهل العلم على كل راغب .

وفى هذه الفترة من التاريخ ربحت مصر ثقة الأجانب بالمصريين كشعب
قوى منتج قادر ، وكانت نتيجة هذه الثقة هذه العتود التجارية الطويلة الأجل
التي أبرمها التجار الأجانب مع حكومة البلاد لأجل استيراد منتجاتها
ومبادلتها بمصنوعاتها . وكانت نتيجة هذه الثقة أيضا هذه المشروعات التى
عرضتها الحكومات الأجنبية على الحكومة المصرية من أجل القيام بأعمال
مشتركة ، كما فعلت فرنسا حين عرضت مشروع القيام بحملة على الجزائر
من أجل القضاء على القرصنة فى البحر المتوسط ، واقامة حكومة ثابتة
وطيدة فى هذه البلاد على غرار الحكومة التى قامت فى مصر . وذهبت
الحكومة الفرنسية فى هذا السبيل الى حد اغراء الحكومة المصرية بالتنازل
عن جزء من الأسطول الفرنسى نظير القيام بهذه الحملة المصرية . وكان
مظهر الثقة هذه الكتب التى أرسلتها الغرمة التجارية الهندية الى الحكومة
المصرية تشكرها من أجل الجهود التى بذلتها لسياسة طريق التجارة الهندية، وهذه
المشروعات التى عرض على الحكومة المصرية القيام بها من أجل شق قناة
تصل البحرين الأحمر والمتوسط . ثم رفض الحكومة لهذه المشروعات تجنباً
لما تجره على البلاد من مضار لا سبيل الى دفعها .

وربحت مصر ما هو أثمن من هذا كله . ربحت ارتفاع الروح المعنوية
للمصريين ، فقد عرفوا أنهم أمة لا تقل عن غيرها من الأمم اذا أرادت فعلت ،
وأنهم قادرون على أن يفعلوا وأن يفعلوا كثيراً اذا اتاحت لهم الفرصة ،

ووجدوا القيادة الرشيدة التى تقودهم نحو الاناج ونحو المجد ، ولم تعد روح الاستكانة التى تفشت فيهم منذ بداية عهد المماليك تجد مكانها فى نفوسهم ، ولم يعد الأجنبى يستطيع التسلط عليهم . وقد أثبتت الحوادث القادمة فى كثير من الفرص ديبب هذه الروح وقوتها وبروح الثقة التى وقفت فى وجه المماليك تحول دون تسلطهم على البلاد كما وقفت فى وجه خسرو وخورشيد تحول دون استبدادهما ، كما وقفت فى وجه السلطان تطالب بحقها فى تعيين واليها الذى يختاره الشعب بارادته الحرة . لا الذى يختاره لها السلطان . وروح الثقة هذه التى دفعت الشعب المصرى الى مقاومة نزول البريطانيين فى سنة ١٨٠٧ رغم قصور أسلحته ، بل التى أجلت البريطانيين عن رشيد وأعادت الثقة الى واليها فبادر بالمقاومة بعد أن فكر فى الاستسلام .

وربحت مصر أيضا ان أثبت المصريون قدرتهم واستعدادهم على التعلم واهليتهم للعلم والمعرفة ، فلم يعد الشعب المصرى هذه الجبهة من الفلاحين التى تراول جرفتها عن تقاليد ورثتها لا تستطيع تغييرها ، ولا هذه الفئة الجاهلة التى تمارس علمها الموروث عن تعصب للقديم . بل هو هذا الشعب الواعى الذى يحتفظ بقديمه ولكنه يتطلع الى كل حديث فيتعلمه ويستفيد منه . وإذا كانت روح الجمود قد تفشت حتى أصبحت لازمة من لوازمه فلم يكن ذلك الا عملا خبيثا أراد الاحتلال الأجنبى أن يفرضه ليستفيد منه . وإذا ما وجد الفرصة السانحة نفضا عنه وأسرع ليأخذ مكانه فى موكب العلم والعرفان .

فلا نستطيع إذن أن نسمى ما تم خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر تطورا بل كان فى الحقيقة ثورة قام بها الشعب المصرى ليعوض ما فاتته من نوم طويل عميق .

حقيقة ان مصر لم تنل نتيجة لهذه الجهود استقلالها أو شخصيتها السياسية الكاملة ، ولكن ذلك لم يكن نتيجة قصور من أهلها أو عدم كفاية مواردها لاكتمال هذه الشخصية ، بل كان نتيجة للتدخل الأجنبى الذى وجد مصلحته فى عدم تمكين المصريين من القيام بهذه الخطوة . فقد شاعت انجلترا ان تجد صالحها فى بقاء مصر ضمن الامبراطورية العثمانية ما دامت متسلطة على هذا الرجل المريض ، الذى يمكنها من تنفيذ جميع مآربها .

وكانت فرنسا تشايح مصر بعض الشيء ، الا انها اضطرت تحت ضغط ظروفها الداخلية وخضوع الحكومة الفرنسية للحكومة البريطانية في أن تزيد ضغطها على مصر . أما روسيا فقد كانت سياستها تتجه خلال هذه الفترة الى محاولة تحطيم تركيا لوراثتها . وان لم تتح لها هذه الوراثة الكاملة ، فلا أقل من أن تقتسم أملاكها مع من يعينهم الامر ، ولكنها كانت تفضل دائما أن تكون هي المحطمة لها فيكون لها وحدها حق وراثتها . أما اذا جاء هذا التحطيم على يد غير يدها فلن يكون لها في الامر ناقة ولا جمل ، ولذا رأت من الأفضل لها بقاء السلطان الضعيف الذي قد يمكنها الزمن من اغتيال أملاكه من أن يستبد به آخر قوى يفوت عليها أغراضها .

وكانت وسيلة روسيا في هذا التحطيم ادعاء حماية غير المسلمين من رعايا تركيا وعلى الأخص الأرثوذكس منهم وهم سكان شبه جزيرة البلقان وتحرضهم على الثورة وطلب الاستقلال . فكان أن عقد مؤتمر لندن ، ووجد السلطان العثماني في قراراته البعيدة عن العدل ما يوافق أغراضه . فكان أن أرغمت مصر على الرضى بموضع التابع لتركيا تبعية ضمنيتها الدول الأوربية التي اشتركت في هذا المؤتمر (١) ومنذ هذا الوقت أصبحت تبعية مصر للسلطان . أو بمعنى أصح سيادة السلطان على مصر . أو سعى مصر لتغيير هذه السيادة الى أى شكل آخر مسألة دولية تدعو الى تدخل الدول .

وهنا نستطيع أن نسأل ماذا كان موقف الأتباط من هذا كله وما هو دورهم الإيجابي أو السلبي فيما حدث من الحوادث وما ترتب عليها من نتائج .

أراد الأتراك أن يجمعوا القلوب حولهم استعدادا لمعركتهم القادمة مع المماليك ، فأصدروا أمرهم أن لا يتعرض أحد لأعيان القبط (٢) ولما كانوا في حاجة الى المال قربوا اليهم المعلم جرجس الجوهري فعاد اليه احترامه وشيء كثير من نفوذه وفي ذلك يقول الجبرتي « وكذلك عنسد مجيء الوزير

(١) وفاق لندن المبرم بين السلطان من جهة وإنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا من جهة أخرى في ١٥ يوليو ١٨٤٠ .
(٢) السنكسار ١٢ بشنس والجبرتي ج ٣ ص ٢٠٠ .

والعثمانيين قدموه واجلسوه لما يسديه اليهم من الهدايا والרגائب حتى كانوا يسمونه جرجس أفندى ورأيته يجلس بجانب محمد خسرو باشا وبجانب شريف أفندى الدفتردار ويشرب بحضرتهم الدخان ويراعون جانبه ويشاورونه في الأمور .

وكان المعلم جرجس وطنيا صحيحا لا يفرق بين أبناء الأمة في معاملة لانهم جميعا أبناء وطن واحد وفي ذلك يقول الجبرتي « كان عظيم النفس . يعطى العطايا . ويفرق على الأعيان ، عند قدوم شهر رمضان ، الشموع والعسلية والسكر والأرز والكساوى والبن ، ويعطى ويهب وكان يقف بأبوابه الحجاب والخدم » (١) .

ولكن كثيرين رفعوا شكواياتهم الى الأتراك عن ظلم وقع عليهم أيام الاحتلال الفرنسي وعزوا هذا الظلم الى المعلم يعقوب ، فسرعان ما حقق في الأمر وأثبت التحقيق عكس ما ظنوا وفي ذلك يقول الجبرتي أيضا « انه ظهر لمحمد مرق الذى تولى مصر بعد خروج الفرنسيين ان الظالم الحقيقي في الجباية لم يكن المعلم يعقوب بل كان مصطفى الطارتي مقدم القائد المذكور فقطع رأسه بين المفارق في باب الشعرية » . ولكن لم تلبث الأحوال ان اضطربت أيام طاهر باشا وعجز عن حفظ الأمن وعاشت جنوده في الأرض فسادا فقبضوا على المعلم ملطى وقطعوا رأسه . ولم يكن المعلم ملطى وحده الذى فعل به ذلك بل شاركه كثير من المواطنين مسلمين وأقباطا ما داموا لا يملكون

أيطمع فيك .

وفي سنة ١٨٠٦ تمكن محمد على من أن يقبض على السلطة وكان في حاجة الى المال فقرب اليه المعلم جرجس فعاونوه هذا أحسن معاونة ، وعول الرجل على أن يستفيد من جميع عناصر الأمة فقد كان الرجل بعيد النظر وعرف ما للأقباط من مهارة لا يستغنى عنها ، وكفاءة لا تنكر ووطنية تدعوهم الى الإخلاص في العمل فأحلهم من نظامه مكانا مرموقا وأول من يشير اليه هو المعلم رزق أغا الذى كان اليد اليمنى لمولى بك الكبير وتولى إدارة الجمارك

(١) الجبرتي ج ٤ ص ١٣١ .

سنة ١٧٦٨ حين جاء الى مصر المستكشف الاسكتلندى جيمس بروس ييفى البحث عن منابع النيل فأصدر المعلم رزق أمرا بعدم التعرض له وجهزه بكتاب من البطريك الى ملك اتيوبيا واذا ما استهل على بك الأمر عينه ناظرا لدار الضرب .

وعرف محمد على قدره فجعله مديرا وحاكما للاقليم الواقع وراء فرع دمياط واعتمدت عليه الحكومة في جباية الضرائب وقطع دابر اللصوص والعربان الذين اتخذوا هذا الاقليم مرتعا لهم يغيرون فيه على قوافل الحج وينهبونها ويقتلون كثيرين من الحجاج سواء القادمين أو الراحلين ويبدو أن نجاحه في ذلك كان ساحقا الى حد أن جعله محمد على كبيرا للمباشرين ولكن ابراهيم بن محمد على غضب عليه وقتله وجعل مكانه المعلم ابراهيم الجوهري الذى أصبح ذا مكانة عالية بعد وفاة اخيه جرجس (٢) هذا فى الوقت الذى كان المعلم غالى — الذى كان كاتب الألفى فى الصعيد — يقوم بمسح عهده اراضى مصر ثم تقسيمها حياضا واثية يعزى فضل قيام النظام الادارى الذى بدأه محمد على وظل معمولاً به فى الوقت الحاضر وهو تقسيم القطر الى مديريات ولكل مديرية بندر يقيم فيه حاكما . كما أنه هو الذى اوصى بالغاء نظام الالتزام ووضع نظام الضريبة الثابتة على الأرض الزراعية بعد تقسيمها الى مراتب حسب جودتها . وقد عرف محمد على للمعلم غالى قدره اذ لم يكده يعينه كبيرا للمباشرين حتى (نزلت طبليخانة الباشا الى بيته واستمرت تضرب النوبة التركية ثلاثة أيام وكذلك الطبل الشامى وباتى الملاعب ثم يطلع المعلم الى القلعة فيطلع عليه الباشا خلع الرضا ويلبسه فروة سمور ويعود الى داره وأمامه الجاويشية والأتباع بالعمى المفضضة فيقبل عليه الاعيان من المسلمين والنصارى للسلام عليه والتهنئة

(١) مشاهير الاقباط فى القرن التاسع عشر ص ٢٣٦ .

(٢) ينتسب الاخوان الجوهري الى قرية الجوهريّة القريبة من طنطا بجوار محلة مرحوم وقد رُجسد له فيها ٥٨ فدانا وفى القاهرة شارع يسمى شارع الجوهري عند العتبة الخضراء وحارة شارع القبلة (مشاهير الاقباط ص ٢٢٧) .

له (١) ولا غرو فقد كانت كفاءة المعلم غالى لا تقف عند حد ، فقد كان جبار
الذهن متوقد الذكاء واسع الحيلة فقد كان الباشا يطلب المال من المعلم جرجس
فيقول له هذا لا يتيسر تحصيله فيأتى المعلم غالى فيسهل له الأمر ويفتح له
أبواب التحصيل (٢) .

ورغم ما هو معروف من أن محمد على لم يرسل ضمن بعثاته الى
أوروبا قبطيا واحدا (٣) لانه كان يختار طلبته من بين خريجي الأزهر ، فان
ذلك لم يشغل منهم بالا ما دامت أمتهم تسير في طريق صحيح فاكثفوا بأن
اشتركوا في تنظم الأحوال . والسير بها نحو الاستقرار بها عرف عنهم من
كفاءة (٤) فقد عين بطرس أغا الذى كان حاكما لجرجا أمام الفرنسيين ناظرا
لشونات الفلال . ثم نقل حاكما لبرديس فظهرت كفايته أينما ذهب .
كما عين فرج أغا في دير مواس . وتكلا سيداروس في بهجورة . وانطون
أبو طاقية في الشرقية وعبود كاتباً للخزينة وكان الباشا يحبه ويثق به ويقول
عنه (لولا الملامة لقلدتك الدفتردارية) (٥) وهو المنصب الذى يتولاه ابنه
إبراهيم .

ولم يقتصر الاقباط على المعاونة في الأمور الادارية بل تعدتها الى كل
ما في طاقتهم فقد اشتط محمد على في جمع المال حين كانت الحرب الوهابية
تلح في استنزاف موارده فكتب الى المديرين في جميع المال بأقصى سرعة .
فكان نصب مديرية أسيوط ٢٥ ألف جنيه فتقدم المعلم غبريال شنودة فدفعا
وحده عن أهل مديريته فقدر له محمد على هذه اليد الكريمة وخلع عليه خلع
سنية (٦) كما كان معظم مهندسيه من الاقباط الذين كانوا قد عملوا مع
الفرنسيين واستفادوا من خبرتهم ولم تمنعه ثقته الاولى فيهم من أن ينكل
بهم اذا تبين له خطأهم بشيء .

(١) الجبرتي ج ٤ ص ١٣٠ .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ١٣٠ .

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ١٣٠ .

(٤) الجبرتي ج ٤ ص ١٣٠ .

(٥) الجبرتي ج ٤ ص ٣٢٤ .

(٦) الاقباط في القرن العشرين ج ٣ ص ٧٢ .

وكانت سياسة الحكومة تتجه الى ارساء قواعد المساواة على أساس
وطيد والى اقصى حد (١) ولذا لم تتخرج الحكومة عن استعمال الشدة ضد قصيرى
النظر ممن يتآمرون بالقومية الصحيحة ويمستقبل الوطن. ففدثار الرعاى بدمياط
يوما وقبضوا على كاتب بديوان الثغر هو المعلم سيدهم بشاى وادعو عليه زورا
انه سب الدين الاسلامى وشهد عليه امام القاضى بعض الناس بذلك ، فخيروه
بين الاسلام والقتل وارسل الى محافظ الثغر فايد الحكم ففضل المتهم الثانية
فجلد وجر على وجهه من فوق سلم المحافظة الى اسفل ثم طاف به العسكر
بعد أن اركبوه جاموسة (بالقلوب) فى شوارع المدينة فخاف جميع النصارى
واغلقوا منازلهم ومات المعلم سيدهم بعد خمسة أيام من شدة التعذيب .
فاهتم الوالى بالأمر وارسل مندوبين لفحص القضية ، فأعادوا التحقيق وتبين
منه عدم صحة التهمة وتحيز القاضى والمحافظ فى الحكم عليه ، فعزلا من
وظيفتها ونفيا . وقد أراد محمد على أن تكون هذه الحادثة عبرة لكل من
تحدثه نفسه بالعبث بالوحدة المصرية ، فأراد قتل أحدهما . ولكن توسط
بعض القناصل وطلبوا تهدئة الحالة فسامحهما ولكن بعد أن أذن للمسيحيين
برنع الصليب جهارا أمام جنازاتهم فتم لهم ذلك فى دمياط ثم عمت بعد ذلك
فى جميع مدن القطر أيام الاتبا كيرلس الرابع (٢) .

وأرادت الحكومة أن تؤكد للأقباط حرية ادارتهم لأحوالهم واملاكهم دون
تدخل من الدولة فى ذلك . وقد كان هذا الحق معترفا به من قبل الا أن
الاقباط لم يكونوا يتمتعون به بشكل جدى لكثرة ما تدخلت الحكومة قبل
الاحتلال الفرنسى فى مصالحهم وكثرة ما نالهم من الأذى ، فأرادت الحكومة أن
تؤكد لهم كتابة وفى ذلك اطلاق لحريتهم فى أن يبنوا ما يشاءون من الكنائس
الجديدة ويرمموا القديمة منها بكل حرية دون ما خرج أو تدخل أو إذن أو شبه
ذلك ، فكان أن صدر قرار أن يديروا بأنفسهم وبالاشتراك مع رجال
الاكليروس أموال أديرتهم وكنائسهم ومدارسهم (٣) .

وإذا ما فتح السودان فى سنة ١٨٢١ احتاج الى كثير من الموظفين

(١) الجبرتى ح ٤ ص ٣٠٠ .

(٢) السنكسار ١٧ برمهات .

(٣) الأقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ٤٧ .

للعمل في مجال الحضارة ، وكان العمل يجرى هناك في ظروف قاسية سواء من ناحية عداء الأهالي لهم و عدم توفر وسائل العيش . فلم تكن هذه الظروف بمساعدة عددا من الأقباط من أن يتقدموا لشغل هذه الوظائف ولم تتردد الحكومة في استخدامهم فذهبوا الى هناك وعملوا في الادارة وحملوا العبء في شجاعة . وبذلك عادت المسيحية الى الظهور في السودان بعد أن غابت عنه قرابة خمسة قرون . وكان هذا الظهور بواسطة مصريين لا سودانيين وإذا ما استقروا هناك وأرسلوا الى البطريرك بطرس السابع يسألونه أن يرسل لهم راعيا يقوم بالخدمة الدينية لهم فرسم لهم أسقفيا هو الأنبا داميانوس .

ولقد حمل الموظفون الأقباط الذين قبلوا العمل في السودان الى هذا القطر الحضارة التي أراقتهم مصر ادخالها فيه ، فقد كان موظفو الحكومة المصرية نوعين عسكريين ومدنيين . أما العسكريون فمنهم المأمورين والضباط وأفراد الحامية فكان أغلبهم مترفعا عن الاختلاط بالأهالي يرهبونهم لآفته منهم من الشدة والغلظة خصوصا وقد وكل اليهم امر جمع الضرائب . أما المدنيون وأغلبهم من الأقباط فقد اختلط الشعب بهم ولم يجد في هذا الاختلاط حرجا . كما انهم لم يكونوا يعيشون في ثكناتهم بمعزل عن الأهالي بل سكنوا المنازل التي بنتها لهم الحكومة في الخرطوم الجديدة وأم درمان ، واخذ الأهالي يبنون منازلهم الى جوارهم وعلى مثالهم . وأخذوا يقلدونهم في طرق معيشتهم ومعاملتهم ، فكانوا بذلك الممثلين الحقيقيين لمصر المتدبنة في هذه الاتالييم فكان أثر الأقباط في حمل رسالة الحضارة لم يكن محصورا في مصر وحدها بل تعداه الى السودان وغير السودان من أقطار الشرق العربي . وإن هذا الأثر ليذكرنا بما فعله المصريون في اثيوبيا أيضا ، فكثيرا ما كانت الحكومة تلجأ الى مصر في طلب الصناع المهرة لانتظام أعمال تنوى الحكومة القيام بها ، فلم تكن مصر تتردد في إرسالهم ، فكان هؤلاء الصناع كما كان أخوانهم التجار رسل الحضارة المصرية الى هذه الأتحاء . وقد يعترض معترض أن الحضارة المصرية التي حملها هؤلاء الصناع والموظفون لم تكن على درجة من التقدم تتيح لها أن تؤثر في هؤلاء الناس . واني وإن كنت أوافقهم على ضعف مستوى الحضارة المصرية . أتذكر الا اني أعود فأقول أنها وإن لم تكن متقدمة الا انها تعد كذلك بالقياس الى

ما كان عليه السودان وما كانت عليه اتيوبيا من التأخر النسبى . وهى لذلك ادعى لأن يقلدها هؤلاء السكان . فلو كانت على درجة كبيرة من التقدم لما حاول السكان تقليدها أو أن يقربوها . فمدنية الانجليز فى السودان حينما ذهبوا اليه كانت اكثر تقدما من مدنية المصريين ولذلك لم يحاول السودانيون تقليدهم . بل كانت مدنية المصريين اقرب الى السودانيين وادعى الى تقليدهم لها عن مدنية البريطانيين المرتفعة ولذا كان المصريون اشد أثرا من غيرهم فى كل من السودان واتيوبيا .

وامتد النفوذ المصرى الى السودان فى خلال النصف الاول من القرن الماضى ولكنه لم يذهب الى أبعد من فاشودة (١) ولكن الحكومة كانت تؤجر الاقاليم العليا لتجار من المصريين والسودانيين ليتقوما بحرية الاتجار هناك نظير جزية سنوية بمثل هذه الطريقة عمل السيد أحمد العقاد وشريكه موسى العقاد ومحجوب البوصيلى وعبد الحميد أبو عمورى وغيرهم ، فاستخدموا العدد الهائل من الاموان المدججين بالسلاح وأنشأوا الزرائب التى كانت بمثابة نقط عسكرية لقواتهم وفى نفس الوقت بمثابة مخازن لما يجمعونه من العاج .

وقد ساهم الاتباط فى هذا النشاط أيضا فقد عمل هناك شنودة وغطاس وبقطر ، وباسيلى ، (٢) واتخذوا من الخرز والدروع والتصدير مادة تجارتهم يبادلونها بسن الفيل وريش النعام والمطاط والحديد والنحاس (٣) .

واذا كان هناك من اللوم ما يوجه الى هؤلاء التجار من أنهم سرعان ما تحولوا الى تجارة الرقيق وهى تجارة شائنة ، الا أننا لا نستطيع أن نحكم على مثل هذه الأعمال بعقلية القرن العشرين . فقد كانت هذه التجارة مشروعة فى ذلك الوقت فكان والى مصر يشجعها . وقد حاول أن يتخذ من هؤلاء العبيد مادة لجنده . وكان الأوروبيون جنفعا سواء من الفرنسيين أو الانجليز أو البرتغاليين يشتغلون فى هذه التجارة ويقومون بشراء العبيد من

(١) مصر والسودان ص ٨٥ .

(٢) مصر والسودان ص ٩٥ .

(٣) الزبير باشا رجل السودان ص ٤٧ .

ساحل غانة وحوض الكونغو ليحملوهم الى امريكا الشمالية والبرازيل طيلة خمسة قرون سابقة لبداية القرن التاسع عشر ولم يكونوا يجدون فى هذه التجارة جريما ولا لاجا (١) فيمكننا ان نقول ان هؤلاء التجار الاقباط قد ساهموا كما ساهم غيرهم فى تقدم البلاد التجارى وانهاشها اقتصاديا . وكانت هذه التجارة ناجحة الى حد ان امرت الحكومة باحتكارها لنفسها بعد ذلك وكسبت منها اموالا كثيرة .

وقد ادهشت سرعة تقبل المصريين جميعا لسياسة التسامح الدينى كثيرا من الكتاب الاجانب الذين ارخوا لهذه الفترة وعزوها الى ان عامل الوطنية لدى المصريين اقوى من عامل الدين (٢) وهو عامل وان كان حقيقيا الا انه لا يعدو ان يكون احد هذه العوامل .

فقد عاش المصريون منذ اقدم الازمنة على ضفاف وادى النيل وكونوا المجتمعات المتفرقة وعبدوا المعبودات المختلفة ، ولكنهم شعروا جميعا رغم اختلاف هذه المعبودات — بما يربطهم بعضهم من عوامل اللغة والعادات والاخلاق والاحساس — فاتحدوا وكونوا دولتين احدهما فى الشمال والاخرى فى الجنوب ، ولم يحل اختلاف ديانة شعوب هاتين الدولتين من قيام الاتحاد بينهما حتى كونوا المملكة المتحدة ، وذلك لان عوامل الوحدة كانت اقوى من عوامل الاختلاف ، فهذا النيل الذى يربطهم ويوحد مصالحهم لو انقطع لجفت تربته واصبح المصريون جميعا لا يجدون ما يقتاتون به ، واذا ما ارتفع ماؤه اشرقت وجوههم جميعا بالبشر وامتدت ايديهم جميعا الى هذه الارض السوداء ينشئون فيها مجارى مياههم لتصل الى حقولهم فتبعث فيها الحياة . ولو زاد هذا الفيضان ولو بضع بوصات لهددهم جميعا بالاكتماس وهو حينئذ لن يغمر ارضا ويترك اخرى ولا يبعث الخراب الى ركن ليترك آخر . ولكن هذا الفيضان لا يجرى الا اشهر قليلة ، ولذا اسرع المصريون جميعا الى ارضهم يستثمرونها ، ففى شهور الربيع لن تسمع الا هذه الانات ذات الوقع الموسيقى للسواقي وهى تدور لترفع الماء من الآبار العميقة الى

(١) صحوة افريقيتي ٦٥ — ٦٧ .
Egypt and Egyptian Question p. 35 — 40

جوف الأرض (١) ولذا لم تحدث فتنة واحدة منذ قيام الاتحاد الثانى بواسطة ملك نارمر من أجل العودة الى إستقلال كل جزء على جدة وقبض أتباع رع على السلطة فخضع له أتباع آمون وهاتور وغيرهما . ولم يشعر أحدهم أن اختلاف الديانة يؤدي الى العداوة بينهما وأتى المحتل الأجنبى ليقضى على إستقلال الوطن فعاداه المصريون جميعا سواء كانوا من أتباع هذا المعبود أو ذاك .

حتى اذا هب الوطن لطرد المحتل الدخيل (الهكسوس) الذى أذل المصريين لم يقم أتباع ديانة ما بعبون المحتلين ضد اخوانهم بل عاداه المصريون على اختلاف دياناتهم من أجل خلاص الوطن . وذلك لأن القومية فى دم المصرى اقوى من أى عامل آخر . ولا غرابة فى ذلك فمصر أول من عرفت القومية فى العالم وكونت الوطن ذا الحدود السياسية الواضحة وأخذت تزود عن حياض الوطن جميع الطامعين فتبعد اللوبيين أو غيرهم من قبائل البدو القادمين من الشرق لأنها رأت هؤلاء جميعا إجتنب عنه لا ينوون به الا شرا .

واذا ما أتى الاسلام امتنقه بعض المصريين فلم يكن ذلك سببا لعدائهم لمن بقى على مسيحيته أو عداة الباقين على مسيحيتهم لمن دخل فى الدين الجديد فعاشوا اخوانا متحابين كعهدهم فى جميع ادوار حياتهم يفلحون أرضهم متعاونين على الخير والشر فمجىء الفيضان المنخفض لم يكن نكبة على المسلم دون القبطى ولا على القبطى دون المسلم وكذلك جميع النكبات توحد الشعور بالخطر . وكذلك وحدة الشعور بالنعمة . وكذلك وحدة التقاليد ووحدة العادات ووحدة الحرفة . كلها عوامل مجتمعة جعلت شعب مصر وحدة متماسكة ، فلم ينظر المصرى الى اختلاف الدين سوى انه مظهر من مظاهر اختلاف الرأى الأمر الطبيعى فى أبناء الوطن الواحد .

واذا كان بعض الولاة أو الحكام قد فكر فى احياء بعض مظاهر التعصب الدينى ، فلم يكن ذلك الا لغرض دنىء هو غرض التفرقة بين أبناء الوطن كى يستفيد هو من ذلك ، فلم يكن الا تبساط يعنون كثيرا بالخضوع

(١) الحضارة المصرية ص ٣٥ — ٤٠ .

لهذه الأوامر والنواهي (١) كما لم يعن المسلمون بهراعاتها من جانب الاقتباط ، ولذا لم تكن هذه الأوامر والنواهي تظهر الا لتختفى . وكان احتفاؤها في أغلب الأحيان سريعا تحت دافع الوطنية والأخوة والحب الذى يكنه المصريون جميعا لبعضهم البعض . ولهذا السبب عينه حرص الممالك والأترار ثم الإنجليز كما سنرى على بث التفرقة بين أبناء الوطن الواحد لصالح هذا الأجنبى ورغم طول الحكم المملوكى الذى استمر قرابة ثلاثة قرون . وطول العهد التركى الذى استمر أيضا قرابة ثلاثة قرون والذى حرص الحكام أثنائها على بذور بذور العداوة بين المصريين لم يفلح هذان الحاكمان فى جعل هذه التفرقة أو هذا الاختلاف ذا جذور حبيقة . ولذا ظل طول هذين العهدين سطحيا . فإذا ما جاء القرن التاسع عشر وساد التسامح لم يجد المصريون صعوبة فى العودة الى حياتهم الطبيعية التى ألفوها . وتقبل المصريون جميعا أقباطا ومسلمين هذه السياسة الجديدة على أنها السياسة الطبيعية التى يجب أن يعيش المصريون جميعا فى ظلها . والتى يجب أن تسود مجتمعاتهم سواء كانت ريفية أو حضرية وما سياسة التفرقة بين عناصر الأمة الا سياسة مقصودة من الحاكم حتى وان كان مصرى لا يقصد بها الا فائدته الشخصية . ومما يزيد فى فخر المصريين بأنفسهم أنهم طوال تاريخهم — لم يحاول مصرى قط اتباع هذه السياسة الجديدة على أنها السياسة الطبيعية التى يجب أن يعيش المصريون المصريون الا رعاعهم وسفلتهم الذين يريدون الصيد فى الماء العكر من أجل السرقة أو النهب ولا يزيدنا تتبع هذه السياسة فى العصور الحديثة الا إيمانا بهذه الفكرة مما سوف تظهره فى الفصول القادمة .

(١) الحضارة الإسلامية ص ٨٢ .

الباب الرابع

عصر اسماعيل

يبدأ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومصر تحت حكم عباس الأول المكروه من بقية عائلته لأنه حجب العرش عن (أصحابه الشرعيين) وهى تمارس حياتها السياسية تحت قيود فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ كما كان العهد خلال العشر سنوات الماضية . وكان هذا فرمان — وان ربطها بعجلة الامبراطورية العثمانية الواهنة بخيوط ثقيلة — يمنع تركيا من التدخل فى أمورها الداخلية الا فى حالة سفر الوالى الى استنبول عند توليته لاستلام مرسوم التولية . وفيما عدا ذلك تستطيع اذا احسنت التصرف ان تجعل علاقتها بتركيا او هى من خيوط العنكبوت .

ولكن مما يؤسف له ان افراد (العائلة المالكة) اعتمدوا اطماعهم الشخصية عن ان يتبينوا مصالحهم ومصالح مصر ، فقد تكررت شكاياتهم ضد عباس (المستبد) مما دعا السلطان الى التدخل فيما بينهم وهو تدخل رأى كل واحد منهم فيه مصلحته ، فرأى عباس ان يستعين بمن هو اقوى من السلطان ، فكان التدخل البريطانى هو الذى اوقف بقية افراد العائلة عند حدهم ، فكان ثمن هذا العون خط سكة حديد اسكندرية الذى وافق عباس على انشائه بواسطة شركة بريطانية لخدمة التجارة البريطانية . فشخصية مصر الكاملة وسيادتها كادا ان يتحققا الى حد ما فى ظل فرمان سنة ١٨٤١ — لولا هذه الاطماع الشخصية لأفراد تلال لم يستطيعوا ان يتبينوا أكثر من مواطبة أقدامهم

وكانت هذه الخلافات محصورة بين افراد العائلة فلم يكن للمصريين ان يتدخلوا فيها ولا فى استطاعتهم ان يتدخلوا ، ولذا انصرف المصريون الى اعمالهم يزاولونها فى هدوء وسكينة .

وكانت سياسة الحكومة تتجه الى اكمال التصفية التى بدأت أيام محمد على بعد سنة ١٨٤٢ لما كان بها من منشآت تقانية وصناعية أقيمت لأجل خدمة الجيش على أساس غير اقتصادى . ولما طلق محمد على سياسته الحربية بعد صدور فرمان سنة ١٨٤١ انتهت الدواعى اليها فأخذت طريقها الى التصفية . ومهما قيل عن فرمان سنة ١٨٤١ من أنه لم يغير حالة التبعية التى كانت تدين بها مصر نحو الباب العالى ، فاننا لا نستطيع أن ننكر أنه رفع قيمة مصر عما قبل الحملة الفرنسية من ولاية عادية تتمتع بجميع مساوئ الحكم التركى الفاسد الى ولاية ذات مركز خاص يستطيع صاحب الشأن فيها كما يستطيع اهلها أن يدبروا أمرهم بأنفسهم وفق ما يشتهون وان كان ذلك فى حيز محدود .

وجاء عصر سعيد فكان خاليا بعض الشيء من هذه المشاحنات التى أدت الى التدخل التركى والتى انتقصت السيادة المصرية المحدودة . ولكنه لم يكد يعتلى (العرش) حتى رأى أن يتطلع الى عون تركيا فى الحرب التى كانت قائمة ضد روسيا وهى الحرب المعروفة بحرب القرم . وقد كانت تركيا فى هذه الحرب تقف مستندة على ذراع انجلترا وفرنسا بل على اسطولهما فى البحر الأسود . وكان من الواضح أن هاتين الدولتين لن تتخليا عن (الرجل المريض) لما يعود عليهما من ضرر فئن تكون لهذه الحرب من نتيجة اذا انتصرت روسيا سوى تقسيم تركيا واستيلاء هذه الدولة (لروسيا) على المضائق وجزء كبير من آسيا الصغرى . ورغم المساعدات المتوالية لم تكن الجيوش التركية تلقى غير الهزيمة سواء فى الميدان الغربى (البلقان) أو الشرقى فى أرمينية . وكانت مصر ترقب هذا الصراع الذى استمر ثلاث سنوات .

وان أقل فهم فى السياسة الدولية آنذاك ليقودنا الى الاعتقاد ان انتصار روسيا لو تم — لكان فالا حسنا لمصر . فالروسيا لم تكن طامعة فيها ، فالاستيلاء على المضائق وشنه جزيرة البلقان وضواطىء آسيا الصغرى الشمالية وجعل البحر الأسود بحيرة روسية كانت كل أمانيها ، ومصر تتمتع بشخصية مستقلة أباحت لها عدم تقديم مساعدة لتركيا حتى سنة ١٨٥٥ وضعف جيشها البادى والمقيد بفرمان سنة ١٨٤١ . كانت كلها

عوامل تتيح لها أن تستكمل هذا الاستقلال ، ومما كانت فرنسا أو إنجلترا تسمح أيهما للأخرى باحتلال مصر . إذ أن فرنسا كانت تجدها منطقتة نفوذها الطبيعي منذ أيام محمد على . وبينما كانت إنجلترا تجدها شريانها الرئيسي نحو مستعمراتها في الشرق الأقصى وكانت هذه المنافسة هي التي سوف تؤدي بهاتين الدولتين الى الاعتراف باستقلال مصر الضعيفة على أن تحاول كل منهما الاستفادة من هذا الضعف لصالحها . فكان موقف مصر الطبيعي كان يجب أن يكون الى جانب روسيا . ولكن هذا الموقف قد يكون سببا في بلاء جديد لو انتصرت تركيا وحليفاتها . ولن يكون جزاء هذا الموقف أقل من ضياع هذه الشخصية المستقلة التي تتمتع بها ، فلا أقل اذن من أن تقف موقف الحياد المشوب بالعطف على روسيا . ولكن قصر نظر سعيد هو الذي أملى عليه أن يرسل جيشا مصريا ليقف الى جانب تركيا ، وليشترك في حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، فكان جهل سعيد وقصر نظره هما اللذان دفعا به الى ارتكاب هذه حماقة التي جعلت قبود نرمان ١٨٤١ أمين وأقوى مما كانت .

وكان عصر سعيد أيضا العصر الذهبي للقناصل ، فقد تدخلوا في جميع نواحي الإدارة المصرية من أجل مصالح رعاياها ، وكان جزء كبير من هؤلاء الرعايا (الأجانب) من أصل عثماني ولكنهم اشتروا هذه الحماية من أجل مصالحهم الشخصية ومنافعهم التي كثيرا ما كانت مخالفة للقانون . وضعف سعيد عن مقاومة هذا التدخل وبلغ الحال بهؤلاء القناصل أن تدخلوا لحماية تجارة الرقيق (١) .

ومضت بانتهاء عهد سعيد ثلاث عشرة سنة كاد فيها هذا القدر من السيادة المصرية أن يختفى . ولكن أنت ثلاث عشرة سنة أخرى لاقت فيها السيادة المصرية طريقها الى الظهور بل سميت فيها القومية المصرية الى ما يشبه الاستقلال التام لولا خيط ضئيل . فقد صدر فرمان سنة ١٨٦٤ الذي أعطى مصر حق وراثته العرش ، فقطع طريق المؤامرات وتدخل السلطان ، كما ضمت الى مصر سواكن ومصوع في السنة الثانية بشرط عدم سريان نظام

(١) مصر والسودان ص ٩٣ .

الوراثة اليهما (١) . ولكن لم تمض سنة أخرى حتى سرى على هاتين المأموريتين ما سرى على بقية الولاية . ولسنا بصدد تعداد الفرمانات المتوالية التى اكسبت مصر حقوقا فوق حقوق . ولكن يكفى أن نذكر الفرمان الشامل فى سنة ١٨٧٣ الذى جعل مصر مستقلة تماما عن الباب العالى ، لولا خيط أوهى من خيوط العنكبوت . وبفضل هذه السلسلة المتتابعة من الفرمانات استطاعت مصر أن تصل بحدودها الى خط الاسنواء ، بل أطلت على المحيط الهندى مترة من الزمان وبفضل هذه الفرمانات راسست مصر حفلات افتتاح قناة السويس بصفتها صاحبة القناة وصاحبة الدعوة ، وحضر الحفلة مندوب من السلطان ، ولم يكن يزيد عن غيره من الضيوف بل تقدمه غيره من الضيوف الذين ارتفعت منزلتهم عن منزلته . وإذا ما فتحت هرس سنة ١٨٧٢ كتب أميرها محمد بن على بن عبد الشكور أنه يقبل طائعا مختارا التسليم هو واهل طاعته ومملكته الى الخديوية المصرية (٢) لا الى السلطان . وبفضل هذه السلسلة من الفرمانات وقعت مصر سلسلة من المعاهدات مع الدول الأجنبية من أجل مصالحها الخاصة فوَقعت معاهدة صلح مع الامبراطور يوحنا فى ١٨ مارس سنة ١٨٧٦ انتهت حالة الحرب بين الجانبين الأفريقيين (٣) .

وفى شهر أغسطس وقعت معاهدة مع إنجلترا بشأن إلغاء تجارة الرقيق (٤) ، وبفضل هذه الفرمانات راسست مصر مؤتمرا دوليا عقد فى القسطنطينية من أجل إلغاء الامتيازات حين استبدل بها نظام المحاكم المختلطة . وهو أن كان نظاما فاسدا إلا أنه وضع حدا لتدخل القناصل ، وبدا لكل ذى عين أن مصر سوف تأخذ مكانها تحت الشمس . ولم يكن ذلك بفضل مساعدة أحد غير جهود ابنائها . ولم يكن ذلك مما ترتاح اليه إنجلترا وفرنسا وهما الطامعتان فيها منذ بداية القرن ، ولذا لا نستغرب إذا حاولت كلتاها انتهاز فرصة الازمة المالية وديون اسماعيل كى تعيدا قصة التدخل وكى تحرما مصر من التمتع بثمرة جهودها .

-
- (١) مصر والسودان ص ١٠٤ .
 - (٢) نفس المصدر ص ١٤٠ .
 - (٣) مصر السودان ص ١٤٢ .
 - (٤) مصر والسودان ص ١٠٣ .

وبفضل جهود ابنائها تمتعت مصر بنوع من التمثيل النيابى لو ترك مع الزمن لتطور وأصبح أداة من أدوات اظهار ارادة الشعب بل نجح فعلا فى أن يحد من سلطة المراقبة الثنائية وأن يحد من التدخل الأجنبى : فقد اتجهت جهود مجلس شورى النواب الى ابعاد النفوذ الأجنبى أكثر مما اتجهت الى الحد من سلطة الخديوى (١) الامر الذى لم يرتاح اليه اعداء مصر المتربصون بها فكان عزل اسماعيل .

ولم يكن عزل اسماعيل فى حد ذاته نكبة أصابت مصر ، فما كان أول والى يعزل ولا آخرهم . ولكن وجه النكبة فيه أنه تم بناء على تدخل أجنبى لثى ترحيبا من السلطان وكان هذا التدخل هو بداية انهيار السيادة المصرية التى كادت أن تستكمل . وكأنها تأمرت على مصر الذئاب اذ أراد السلطان الضعيف أن يسترد ما حصلت عليه مصر من امتيازات سابقة .

وجاء توفيق الضعيف لا ليرد لمصر كرامتها ، بل ليمرغها فى الطين ، فقد مزق السيادة المصرية يوم شمر بجميل انجلترا عليه ، فجعل القنصل البريطانى مستشاره المفضل فى كل أموره مهما صفرت ومزق القومية المصرية يوم أعطى الجراكسة مكان السيادة من هذه الامة ، ومزق القومية المصرية يوم ألغى مجلس الشورى وصمم على أن يحكم البلاد بالحديد والنار ، ومزق القومية المصرية يوم قابل العربانيين فى ميدان عابدين محوطا بالبريطانيين ، ومزق القومية المصرية يوم انسحب الى قصره ليترك أمر مفاوضة قواد جيشه لعمال بريطانيا ليرضى هو بما يبرمونه وما يتركونه ، ومزق القومية المصرية يوم قبل مطالب الجيش مدفوعا بعامل الخوف لا عامل الايمان بهذه المطالب وهذه الحقوق .

وأخيرا جاءت الثورة العربية لتنبه هذا الغافل الى حقوق شعبه . وما كانت فى بادىء أمرها ثورة . بل لم تعد أن تكون مطالب جيش مستندا الى أمة ليحققها له من بيده الأمر . ولكن جبن الخديوى وقصر نظره هما اللذان حولا هذه الحركة البريئة الى ثورة يقوم بها شعب ليسترد كرامته وقوميته

بعد أن أضعفها هذا الضعيف . ونفام الشعب وأعطاه المجلس النيابى الذى يستطيع أن يستند اليه فى مغالبة المتدخلين . حين قرر مسئولية الوزارة أمامه وكان يرمى فى ذلك الى تحدى سلطة بريطانيا أكثر من أى شىء آخر (١) ولكنه أبى الا أن يعصف بهذا المجلس . واذا ما تولت الأمر وزارة وطنية تمثل هذا الشعب المكون من جمهور الفلاحين أبى الا أن يستعدى السلطان عليها ويطالبه بالتدخل . وقد كادت حقوق السلطان تصبح نسيا منسيا حتى اذا لم يسعفه هذا السلطان الضعيف ذهب يستعدى البريطانيين الذين وجدوا الفرصة المواتية لتحقيق أغراضهم القديية خصوصا وقد ازدادت أهمية مصر منذ افتتحت قناة السويس للملاحة سنة ١٨٦٩ وصار الاستيلاء على هذا الطريق المائى من أغراض السياسة البريطانية (٢) فأرسلوا جيشهم وقاومه المصريون ما وسعتهم قوتهم ولكن الخيانة والفدر كانتا أعظم من هذه القوة وسقطت البلاد فريسة للاحتلال البريطانى . ولم يكن هذا الاحتلال سوى بداية للطريق الذى سوف يقودهم الى اختراق قارة أفريقيا من الشمال الى الجنوب وكانوا قد بدأوا يرسمون الخطوط الاولى لهذه السياسة البعيدة فى سنة ١٨٦٩ حين قدموا السيد صموئيل بيكر الى اسماعيل ليكون حاكم مديرية خط الاستواء فكان نجاحه فريدا فى بذر بذور العداوة بين المصريين والسودانيين .

انصرف قبط مصر خلال الجزء الاول من هذه الفترة الى أعمالهم الخاصة يصرفونها فى هدوء وسكينة ، ومكنهم جدهم ودابهم على العمل من أن ينجحوا فيها ، واتجه كثيرون منهم الى التجارة فجنوا من ذلك أرباحا مكنتهم من التمتع بشىء من الثروة (٣) بالرغم من سياسة عباس العدائية نحوهم حتى لقد (فكر فى طردهم من البلاد) . ويبدو أن التصفية التى اتبعتها الحكومة ازاء المنشآت الحكومية كانت ذات اثر قاس عليهم . فقد كان كثيرون من صغارهم يعملون فى هذه المنشآت لاتقانهم القراءة والكتابة والاعمال الحسابية ، فقد كانت مدارسهم القبطية الملحقة بالكنائس تمكنهم من هذا الاتقان ولكنهم اذا ما شعروا بالضيق من جراء هذه السياسة الجسدية عادوا الى قراهم .

(١) مصر والسودان ص ١٦٢ .
Egypt and Egyptian Question p. 81 (٢)
(٣) الالتباط فى القرن العشرين ج ١ ص ١٣٠ .

ولكنهم لم يجدوا ما يمكنهم من العيش الرغد الذى تعودوه ، فهاجر كثير منهم الى السودان وهناك شغلوا الوظائف الصغرى فى المديرىات ، فان المستر ستانلى يروى (حين وجه لانقاذ أمين باشا مدير مديريةىة خط الاستواء) أنه كان معه واحد وعشرون كاتباً يعملون فى هذه المديرىة كلهم من الاقباط (١) ولم يبالوا بالاحوال الصحية السيئة حين كان كثيرون من المصريين يخشون هذه الهجرة . بل اقبل كثيرون من المهاجرين يشتغلون بالتجارة مع من بقى من اخوانهم فى مصر ، وشجعهم على ذلك عاملان : استتباب الأمن فى ربوع السودان نتيجة لتأسيس الحكومة الموطدة فى الخرطوم ، ثم فتح النيل الأبيض للملاحة . وقد عنيت حكومة القاهرة دائماً باختيار الكفاء من الحكمداريين الذين امتازوا بالجد وحسن تصريف الأمور والاستماع لشكايات الاهالى واشتهر اكثرهم بالامانة والاستقامة ولم تضطر حكومة القاهرة الى استدعاء أحد منهم (١٨٤٩ — ١٨٥٤) وهم أربعة سوى جركس لطيف الذى احتكر التجارة فى النيل الأبيض لحسابه ولنفعه الخاص (٢) وكان اكبر مايفريهم هناك تجارة العاج والصمغ والسنامكى ومنتجات سنار فقد الفت الحكومة احتكارها للصمغ ، فكان ذلك مشجعاً لهم أن يأخذوا بنصيب من هذه الموارد (٣) وبلغ عدد الاقباط وثروتهم فى السودان مبلغاً أن أصبح لهم حتى نهاية الحكم المصرى ثلاث كنائس فى الخرطوم وأخرى فى الأبيض وثلاثة فى دنقلة (٤) ولكن لم تلبث كميات العاج أن تدهورت وقل الربح من تجارته ، فأتجهوا الى تجارة الرقيق (٥) وهى تجارة رائجة آنذاك . وان كان يشوبها كثير من المخاطر . ويمكن بعضهم من أن يكون هذه الزرائب والمحطات المسلحة حتى لتسد اغتصبوا السلطة تدريجياً من حكومة الخرطوم (٦) بل بلغ من نفوذ بعضهم أن كون شتودة وخورشيد أغا وديونو دكتاتورىة ثلاثية بسطت سلطاتها حول غندكرو فى بحر الجبل (٧) .

in the Darkest Africa p. 55

(١)

(٢) مصر والسودان ٧٣ .

(٣) مصر والسودان ٨٤ .

(٤) الدليل العام للاقباط ص ١٩٦ . (٥) مصر والسودان ص ٢٤ .

(٦) نفس المصدر ص ٦٦ . (٧) نفس المصدر ص ٩٥ .

وقد كان ضعف عباس وانصرافه عن الأخذ بناسر شعبه وانصرافه عن تثبيت القومية المصرية وكذلك كرهه للمسيحيين ومحاولة اجلائهم عن البلاد ان حاول الأجانب أن يتسللوا الى الاقباط ليتخذوا منهم اداة لتنفيذ اغراضهم

ولكن هذا لم يكن ليغريهم عن قوميتهم ، فالقومية من القبطى كالروح من الجسد . ولذا كان اتجاههم نحو الكاثوليكية والبروتستانتية دينيا بحثا غير مشوب بالسياسة، فقد أبوا الا أن يظلوا محتفظين بقوميتهم فأطلتوا على انفسهم لفظ (اقباط) وهو الاسم التقليدى الذى يميز منسبحى مصر على مسيحى العالم اجمع . بل لقد حاولت الكنيسة الروسية أن تلج هذا السبيل حين أوفد القيصر الى البابا بطرس السابع المعروف بالجاولى أحد أفراد أسرته المالكة ليعرض عليه وضع الكنيسة القبطية تحت حمايته وكانت روسيا قد حصلت على حماية الارثوذكس من رعايا الدولة العثمانية فى معاهدة كتشك كيناوجى سنة ١٧٧١ فرفض العرض بلباقة قائلا أنه يفضل أن يكون حامى الكنيسة هو راعيها الحقيقي الملك الذى لا يموت (١) وهى كلمات لو ترجمت الى اللغة المدنية لكانت (لا يا سيدى . لن نكون أبدا خائنين لقوميتنا) .

والحقيقة ان هذا الاتجاه من الدول والكنائس الأجنبية لم يحدث الا لأن الخراف كانت ضالة لا تجد الرعاية الدينية الصالحة . ويكاد كل واحد من أفراد الرعية ينصرف فقط الى مصلحته الخاصة دون قائد . ولكن شاء الله لنا رشدا . فوجدنا القائد الحازم والراعى الصالح الذى يرعى خرافه الضالة . ذلك هو الأنبا كيرلس الرابع الذى استطاع أن يبرهن خلال قيادته القصيرة (١٨٥٣ — ١٨٦٢) ان رجل الدين اذا كانت له الشخصية القومية والمافى الناصع البياض والمستقبل المنزه عن الأغراض الشخصية يستطيع أن يؤدي لأمتة أجل الخدمات فى ميادين كثيرة متفرقة ، قد يتصل بعضها بالدين وقد لا يرتبط بعضها بالدين بسبب . فقد أتيج له ان يغزو ميادين الإصلاح فى

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٢٧ .

أكثر من جهة (١) فلا عجب أن أطلق عليه المؤرخون ذلك اللقب الذى أصبح علما وهو (أبو الإصلاح) وما زال الاقباط حتى العصر الحالى يستعيدوه كعصر المعجزات . فقد أثر عنه التقوى منذ نعومة أظفاره فهجر أهله وعزف عن المدينة بمباهجها وولى وجهه شطر الصحراء يتقطع فيافيها ويصعد كتبائها حتى يصل الى دير القديس أنطونيوس لينخرط فى عداد الرهبان ولم يتعد الثانية والعشرين من عمره .

وقد عرف منذ شبابه قسوة الشهوة نعرف كيف يتغلب عليها بالابتعاد عما يثيرها ، فعرف عنه كراهيته للنساء كى لا يثرن فيه ما كمن من شهواته ، وكان يقول (تغلب على الشهوة قبل أن تتمكن منك لأنها ان غلبتك لا يمكنك الا أن تقع فى شر الخطية) فكان اذا أحس ببوادرها عمل على أن يهاك جسده ليربح نفسه ، فقد حدثوا عنه انه نزل ليلا الى الناحية الغربية من المدرسة القبطية وأخذ يدير ساقيتها بيده وينقل المياه بنفسه ليفصل دورات المياه فيها . فأحس به الحارس فأسرع اليه طالبا أن يقوم عنه بهذا العمل . فأبى قائلا (انك لست مسئولا عني . ولا تقل لأحد ما دمت حيا .

(١) دير القديس أنطونيوس كما مر بنا أحد أديرة الاقباط الارثوذكس في مصر وهو فى سفح جبل القلالي بصحراء العرب وتبلغ مساحته ١٨ فدانا ويعتبر أكبر الاديرة ويرجع عهد تجديده الى الملك المؤيد (١٤١٢ — ١٤١٤) وبه أيقونة قديمة تمثل السيد المسيح تحيط به الملائكة . وبه أربع كنائس ، أحدثها واحدة بناها الانبا كيرلس الرابع . وبه مكتبة بها ١٥٦٣ كتابا منها ١٤٣٨ مخطوطة . وبه عين ماء كبيرة . ويصل اليه المسافرين عن الطريقتين ، أحدهما من بلدة العلاقة المقابلة لبوش ، والآخر عن طريق البحر الأحمر الى نقطة فنار الزعفران ، ثم الى الدير . ويقطع كل من الطريقين فى ثلاثة أيام بالجمال وثمان ساعات بالسيارة . وبه مرصد صغير لمصلحة الطبيعيات وفى الجهة الشرقية من الدير جبل عال به مغارة القديس أنطونيوس التى عاش فيها أربعين سنة . وكان له الى ما قبل صدور قانون الإصلاح الزراعى وتطبيقه على الأوقاف الخيرية سنة ١٩٥٧ — ١٠٧٨ فدانا عدا بعض العمارات التى تدر ما يقرب من خمسمائة جنيها شهريا تقريبا ويقيم به حاليا ثلاثة وستون راهبا وأدارته فى بوش حيث معظم أطيانه . (الوسائل العملية) لحبيب جرجس .

انى خفت ان تغلبنى الميول الفاسدة فأردت ان اتعب جسدى لأريح
روحى) .

وكأنها كان يعرف ان الأقدار تهيئه لقيادة شعبه ، فما انخرط ضمن
رهبان الدير حتى أقبل على مكتبة الدير يقرأها كتابا كتابا مستوعبا ما يقرأ في
تمعن وروية ، بل شرع ييثر في زملائه الرهبان حب القراءة والاطلاع . ولم
يكتف بذلك بل كان يجمعهم في أوقات الفراغ من العبادة ليعلمهم ويثقفهم بما
حصل عليه من قراءاته العديدة فكانها كان في نفسه كليسة اكلمريكية تتقف
الرهبان بما يؤهلهم لرعاية شعبهم وينبهم الى ما يجب ان يعملوه لا من أجل
انفسهم ولكن من أجل الشعب الذى ينتظر منهم الرعاية الحقيقية .

وما كاد يرقى الى منصب (مطران بلا أبرشية) فى ابريل سنة ١٨٥٣
حتى سارع الى انشاء مدرسة كبيرة فى الدرب الواسع بجوار الكنيسة
الكبرى وفى ذلك يقول الايغومانوس فيلتاوس شيمسا كته الى على باشا
مبارك . (وفى سنة ١٥٦٩ شهداء الموافقة لسنة ١٨٥٣) شرع فى عمارة كبرى
تجاه الكنيسة من الجهة البحرية ، فأخذ المنازل اللازمة لاستيفاء المدرسة
والقلاية والكنيسة بعضها استبدالا بأماكن أخرى والبعض اشتراه بالثمن
حتى حاز المنازل التى كانت مجاورة للقلاية والكنيسة المقابلة لها من مدخل
العطفة المذكورة الى انتهائها . وفى اثناء عمارة المدرسة سد الطريق الذى
كان موصلا الى حوش القطرى اذ لم يبق فى العطفة سوى أملاك الوقف وتم
عمارة المدرسة وبذل نظامها الأول وحوله الى الوضع الذى هو عليه الآن .
وجلب اليها المعلمين وأباح لابناء الامة جميعا من المسيحيين والمسلمين
والاسرائيليين ادخال أبنائهم ليتعلموا ما يريدون من العلوم العربية واللغات
المعتبرة والآداب مجانا وكان أول افتتاحها سنة ١٥٧١ سنة « ١٨٥٥ » (١)
وعين للصرف عليها ايراد جملة أماكن من وقف الدار البطريركية ولم تزل
للآن تصرف فى شئونها مع باقى المكاتب التى افتتحها فى القاهرة . وقد
نجحت هذه المدرسة منذ أوائلها وشاهد نجاحها مؤسسها وكثير من طلبتها
الأول مشرفون الآن بالرتب والخدم الاميرية . هذا وقد صير موقع العطفة

(١) التعليم فى مصر لامين باشا سامى ص ١٦ .

المذكورة دائرة واحدة تشتمل على الكنيسة . والبطيريركية والمدرسة وجعل على هذه الدائرة بابا كبيرا من الجهة الغربية وهو الباقى للآن بحالته بالدرب الواسع (١) .

وكان اذا ما زاره احد ذو شأن صحبه الى المدرسة لزيارتها وسأله عما يراه من أوجه النقص فيها فيسارع باصلاحه . كما كان كثيرا ما يدخل الفصول ويجلس مع التلاميذ وينصت الى ما يقوله المدرسون . حتى اذا انتهى الدرس التفت الى التلاميذ قائلا : « لقد استفدت معكم اليوم فائدة لم اكن اعرفها من قبل » (٢) فكان بذلك يضرب المثل لغيره ان طلب العلم لا ينتهى عند الحصول على المنصب بل يجب على الفرد أن يثقف نفسه ما دام حيا .

ولما رأى ان بعض الطلبة يقيمون في جهات بعيدة . اشفق عليهم وانشأ لهم مدرسة وكنيسة بحارة السقاين وكان يتفقد حالتها مرة كل اسبوعين . وكان للغتين الايطالية والانجليزية مكان ممتاز في خطة الدراسة بالمدرستين ولذلك عين كثير من خريجي هاتين المدرستين في المصارف المالية وعند التجار لمعرفة اللغة الايطالية واستاذن البطيريك من سعيد باشا في ادخال تلاميذ المدارس القبطية في مدرسة الطب وغيرها من المدارس (٣) الأميرية وهو ما نسميه في الوقت الحاضر اعتراف الوزارة بشهادتها .

ولعل أكثر ما يكتب لهذا الرجل بأسطر من ذهب أنه عرف ان النساء نصف الامة . وهن القوامات على تربية أبنائهن . ولا فلاح - لامة نساؤها جاهلات . فأسرع بإنشاء أول مدرسة للبنات في مصر (١) في الوقت الذي لم تكن هناك مدرسة أخرى لهن لا في مصر ولا في تركيا بل الشرق العربي كله . فكانه بذلك سبق اسماعيل كـمـا سبق قاسم أمين الى الدعوة الى تعليم المرأة وتحريرها كي تأخذ مكانها في المجتمع المصرى كشريكة للرجل وعلى قدم المساواة معه . فكان بذلك رائد النهضة النسائية . ولعل هذه — لو كانت

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٣١ .

(٢) نوابغ الاقطاط مشاهيرهم في القرن التاسع عشر ج ٢ ص ١٣٠ .

(٣) تاريخ التعليم في مصر ص ٨٣٥ .

(٤) Georci Sobhi, Education in Egypt, Balletindela Sr. A. C.

IX. p - 117.

وحدها - لدليل على القومية الصحيحة التى تبغى قياده صحيحة . لا نهزيجا فارغا يرمى الى الصيت الزائف . وكما قال احد معاصرينا (كان الوحيد الذى يبنى وغيره يهدمون) وبلغ عدد المدارس التى انشأها كيرلس الرابع ست مدارس (١) وفتحها لجميع ابناء الأمة فى الوقت الذى كانت فيه سياسة الحكومة متجهة الى اكمال سياسة التصفية واغلاق ما بقى من مدارسها .

وكانه عرف ايضا ما لموقع مصر من الأهمية كنقطة ارتكاز العالم أجمع . وما على أهلها من واجب جمع الشرق والغرب ، فحضر على تعليم اللغات الأجنبية وكان أكثر اهتمامه موجهاً الى اللغتين الإيطالية والإنجليزية ، أما الأولى فكانت لغة التجارة فى ذلك الوقت ، أما الثانية فكانت لغة أجنبية أخرى لموازنتها كى لا تكون هناك افضلية للغة على أخرى . وحضر على احياء اللغة القبطية وجعل فى المدرسة فصولاً لتعليمها كما اهتم بأمر الكتب القبطية ونشرها . فكان بذلك منبهاً للمصريين الى لغتهم القومية الاصيلية (٢) .

ولم تكن هناك وسيلة لهذا النشاط الثقافى سوى الطباعة فاهتم

(١) مازالت ثلاث من هذه المدارس باقية تعمل منذ انشائها حتى الآن وقد اكملت عام ١٩٦٤ عامها العاشر بعد المائة فتكون بذلك أقدم مدارس مصر القبطية .

(٢) واللغة القبطية هى اللغة الديموطيقية بعد ان كتبت أصواتها بحروف يونانية لتبسيط قواعد كتابتها . وكان ذلك فى القرن الثانى الميلادى . وسميت بالقبطية لأن الاقباط أو المصريين تمسكوا بها كلغة قومية أولا وكمظهر من مظاهر الثورة على الحكم الرومانى ثانيا . وهى لا تمت الى المسيحية بصلة . فأولى بنا نسميها باسمها الصحيح وهو اللغة المصرية . ولها أربع لهجات . الصعيدية وهى لهجة سكان الصعيد الأعلى . والفيومية . وهى لهجة سكان مدينتى الفيوم وبنى سويف والمنفية أو البشمورية . وهى لهجة سكان مديرية الجيزة وجنوب الوجه البحرى . والبحرية ، وهى لهجة الوجه البحرى والأخيرة المستعملة حالياً فى الكنائس . وقد ظلت هذه اللغة لغة التخاطب والكتابة بين المصريين حتى القرن السابع الميلادى . حين جعلت العربية لغة رسمية لمصر أيام عبد الملك بن مروان . ولكن اللغة المصرية ظلت مع ذلك حية بين المصريين وان أخذت فى الضعف . وتتغلب عليها العربية شيئاً فشيئاً حتى بدأ للكتاب القبط فى القرن الثالث عشر أن لابد لهم أن يؤلفوا بالعربية . كى تجد كتبهم رواجاً . وكان أول من فعل ذلك صفى الدين بن العسال .

بإنشاء مطبعة عربية خاصة للدار البطيركية . فحانت أولى المطابع العربية في مصر . اذا استثنينا المطبعة الأميرية . واستصدر من سعيد أمرا بتبول أربعة من الاقباط للتمرن على العمل في المطبعة الاميرية .

ومن طريف ما يروى أنه لما وصلت المطبعة الى الاسكندرية — وكان بقيما آنئذ في الدير أمر باستقبال أدواتها من مدخل الدرب الواسع بموكب يسير فيه الاكليروس بملابسهم الرسمية وقد أعرب البطريرك عن سروره بوصول المطبعة . بقوله : « لو كنت حاضرا لرقتصت أمامها . كما رقص داود النبي أمام تابوت الرب » .

وساعت العلاقات بين مصر واثيوبيا بسبب اختلافهما على الحدود . فسكان المنطقة التي تصل بين اثيوبيا والسودان رعاة لا يعترفون بالحدود السياسية المصطنعة ولم تستطع كل من الحكومتين المصرية او الاثيوبية أن توقف نشاط هجراتها المستمرة بين المنطقتين لانهم ما زالوا يسعون نحو الكلا أينما كان . فأدى ذلك الى اضطراب العلاقات بين الدولتين . هذا الى نشاط عصابات الشفتا وعلى رأسهم الرأس كاسا الذي أصبح فيما بعد تيودوروس الثاني . وفرضهم الاتاوات على الاموال ووصل نفوذهم الى القلايات ومديرية فازوغلى الداخلة في حدود السودان .

وكانت انجلترا تسعى من جانبها الى زيادة الجفاء بين الدولتين . بسبب سياسة سعيد الفرنسية . وسيره في اجراءات حفر قناة السويس رغم معارضة انجلترا ورغم تدخلها لدى السلطان أكثر من مرة من أجل ذلك . وكان مما يتفق ومصلحتها أن يشغل سعيد في حرب توقف حفر القناة . لأنها كانت تخشى سيطرة فرنسا عليها فقد أخذت الأحوال تضطرب في الهندس وظهرت أهمية مصر كطريق للمواصلات السريعة بين انجلترا وممتلكاتها في الشرق الأقصى (١) فعزم سعيد على أن يرسل حملة تؤدب فبائل الحدود وتعيد الى المنطقة هدوءها . ولكن الباب العالي لم يلبث أن أرسل اليه يثنيه عن عزمه

(١) مصر والسودان ص ١١٢ .

لأنه لم يصدر من جانب الاتيوبيين ما يستدعى اتخاذ هذا الاجراء (١) فلم يجد سعيد بدا من اللجوء الى السياسة فالتجأ الى الأنبا كيرلس الذى يتيح له مركزه كبطريرك الاسكندرية فى النوبة واتيوبيا والخمس مدن الغربية ان يتدخل فى الامر . فلم يتردد الأنبا كيرلس فى أن يسافر الى اتيوبيا من أجل ازالة سوء التفاهم رغم ما عرف عن وعورة الطريق . وأمر سعيد فجهزت للبطريرك ولمن معه باخرة نيلية وحمله الهدايا النفيسة وخرج من القاهرة فى الرابع من سبتمبر سنة ١٨٥٦ (٣٠ مسرى سنة ١٥٧٢) وأمر سعيد أن يستقبل الركب استقبالا رسميا على طول البلاد التى يمر بها فكانت المدافع تطلق أجلالا وتعظيما وأمر أن يرسل الى الباخرة يوميا كل ما يطلبه ركبها من مؤونة .

وكانت سنة ١٨٥٦ السنة الثانية من حكم الامبراطور تبودوروس الثانى الذى عرف بعداؤه للانجليز فما ان علم الامبراطور بمقدمه حتى سارع لمقابلته فى موكب حافل على مسيرة ثلاثة ايام من الحدود الحبشية لأنه وجد فى هذه الزيارة فرصة طيبة تمكنه من توطيد مركزه الى درجة سوف يقضى بها على أعدائه . القضاء الاخير كما يقضى على كل محاولة تبذل من أجل الثورة عليه او اقصائه عن العرش . رغم تقويع الأنبا سلامة له فى فبراير سنة ١٨٥٦ .

ولكن صادف غياب البطريرك فى اتيوبيا زيارة سعيد باشا للسودان (٢) وهى الزيارة المشهورة التى اعلن فيها سعيد مراسيمه الاربعة باصلاح الأحوال هناك . قد وصل اليه مصطحبا جيشه على عادته . فانتهر الدساسون الفرصة فأوعزوا الى الامبراطور بأن زيارة البطريرك ليست الا ذرا للرماد فى العيون كى يتقدم سعيد باشا بجيشه الى اتيوبيا .

فقد كانت فرنسا ترى فى تتويج البطريرك للامبراطور القضاء الاخير على محاولتها التدخل من أجل استبداله اذ أنها لم تكن قد اعترفت به وتؤمل تغلب أنصار رجلها الرأس على عليه فقد أرسل نابليون الثالث بعثة رسمية من

(١) رسالة من الصدر الاعظم الى سعيد باشا فى ٢٢ مايو سنة ١٨٥٩ .
(٢) مصر والسودان ص ٨٤ .

أجل الاعتراف بهذا الأخير امبراطورا لقاء منح فرنسا امتيازات في بلاد اتيوبيا . فلم تكد تصل الى مصوع لتخترق الهضبة الى العاصمة حتى كان كاسا قد اودى معه بأحلام فرنسا في اتيوبيا (١) وجلس على العرش باسم تيودوروس . وكان وصول البطيريك الى اتيوبيا وقت زيارة سعيد باشا للسودان أكبر دليل على اتفاقه معه خصوصا وقد صور له أنه يحمل برنسا مسموما اذا لبسه الامبراطور سرى السم في جسده فموت .

فخدع الامبراطور بهذه الأموال وصمم على قتل البطيريك ، الا أن والدته تدخلت وأمرت أن يجرد البطيريك من ملابسه ويلبس هذا البرنس المسموم فوضع البطيريك في خيمة منفردا بعد أن لبس هذا البرنس وظل أربعة أيام تحل في أثائها كثيرا من الاهانات . وأرسل في أثائها رسولا الى سعيد يرجوه سحب الجنود المصرية من الحدود الاثيوبية . فلم تلبث براءة البطيريك أن ظهرت وتأكدت هذه البراءة عندما سمع الامبراطور بانسحاب الجيش المصرى . فتقدم الامبراطور اليه رافعا حجرا كبيرا على رأسه ثم انحنى أمامه وقبل قدمه فقبل البطيريك رأسه وسامحه .

ونجح البطيريك في مهمته وعاد الى وطنه مثقلا بالهدايا مصطحبا وفدا اتيوبيا يحمل معاهدة صداقة بين الدولتين موقعا عليها من الامبراطور وما ان جاءت الاخبار بوصوله من الخرطوم حتى أمر سعيد باستقباله رسميا . واذا ما وصل الى القاهرة في ١٣ فبراير سنة ١٨٥٨ بعد ان غاب سنة حتى استقبله الشعب والحكومة في موكب دينى سار فيه القسس والشمامسة متشحين بملابسهم المذهبة رافعين الصليبان من شاطئ النيل حتى حارة السقاين ، ومنذ هذا الوقت أصبح للأقباط أن يجهروا بشعائهم الدينية ومواكبهم في الشوارع بعد أن كان ذلك محرما عليهم . فكانه بذلك وضع الحجر الأخير في بناء سياسة المساواة التامة بين المصريين جميعا وهى الركن الركين فى

(١) المقتطف يوليو سنة ١٩٥٢ .

القومية المصرية . كما انزل الوفد الاتيوي في دار الضيافة ولم يلبث سعيد أن استقبله وتقبل ما معه من الهدايا ورد عليها ردا جميلا .

ومن العجيب أن البابا حينما رأى أن الاقباط الذين دخلوا في الكاثوليكية لم يحاولوا استغلال هذا التحول من الناحية السياسية أراد أن يتجه الى البطريرك مغريا اياه بحماية البابا لأقباط مصر تحت ستار اتحاد الكيستين ، فأرسل اليه رسولا يصحبه الخواجا حنا مسرة وكان وقتئذ جالسا أمام عمارة المدرسة بملايسه العادية . فما ان كاشفاه بالأمر حتى استهوله ولكنه ملك أعصابه وأمر لهما بالقهوة . وإذا ما شرباها . أمسك بالانجيل يقلبه بين يديه منشغلا عن ضيفيه فإذا سألاه عن سبب انشغاله قال لهما ان العمارة قد استنفدت كل ما كان لديه من مال . وانه طلب من أبناء الطائفة مالا فلم يستغفوه ففكر في بيع صكوك الغفران كما فعل بابا روما . وها هو يقلب صفحات الانجيل لعله يجد في ذلك سندا يسوغ له ذلك . وطال بحثه ولكنه لم يجد هذا المسوغ ولذا فهو يرجوهما أن يدللاه على ذلك . فكان ذلك نهاية النقاش: (١) .

ولم تكن محاولة اتحاد الكيستين الشرقية والغربية هذه بأول محاولة من نوعها فقد سبقتها أكثر من ثلاثين محاولة . ولكن مما يؤسف له ان هذه المحاولات لم تقتصد لذاتها بل كانت دائما تخفى وراءها أغراضا سياسية . فإذا ما دنت هذه الأغراض الحقيقية بالزوال . ضرفت التية عن مجهودات الاتحاد . فالدفاع عن الدولة كان الغرض الحقيقي الذي أثرت من أجله محاولات الاتحاد بين سنتي ١٠٥٥ ، ١٠٧١ حينما أراد الامبراطور قسطنطين التاسع أن يتخذ من البابا ونسيلا للدفاع عن بلده ضد غزوات النورمانديين .

وفيما بين سنتي ١٠٧٣ ، ١٠٩٩ كان ميشيل انسابع والكسيس كومنينوس . يبغيان الدفاع عن دولتهما ضد الاتراك السلاجقة .

وفي القرن الثالث عشر بذل أباطرة الدولة الرومانية الشرقية محاولات

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٢٦ .

الاتحاد مرة أخرى بنية القضاء على الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية .
وفي سنة ١٢٦١ عمل ميشيل باليوجوس على استعمال هذا السلاح
ضد شارل انجو .

وكانت مجهودات القرنين الرابع عشر والخامس عشر تشدد وتتراخى.
تبعا لهجوم الاتراك العثمانيين .

وعندما اشتد هجوم محمد الثاني دعا جون الثامن الى عقد مؤتمر في
فلورنسا سنة ١٤٤١ لغرض اتحاد الكنيستين . وقد اشترك في هذا المؤتمر
مندوب مصر هو الأب اندراوس رئيس دير القديس أنطونيوس وقد قبل
المفاوضون الشرقيون أن يعترفوا بسلطة البابا مضاي أن يدعو هذا الأخير ملوك
أوربا الى حملة صليبية لانقاذ القسطنطينية من خطر التوسع في يد الاتراك .
ولكن قرارات المؤتمر لم تكن عملية ولم تؤد الى نتيجة فقد وعد البابا بما لم
يستطيع أن يفعله فلم تحقق المعونة الاوروبية للدولة الرومانية الا جيشا هزيلا
لقى حتفه عند أول لقاء مع الاتراك (١) ولو خلصت النيات يوما واجتمع
السامعون للاتحاد اتحادا دينيا بحتا وتنزهت نياتهم عن الاغراض الذاتية
لتوصلوا سريعا الى الاتفاق لأن نقط الخلاف سطحية بحتة .

ولم ينف الانبا كيرلس عند حد بناء الكنيسة أو المدارس أو المطبعة ، بل
امتدت يده الى الاديرة فوضع للرهبان أنظمة صارمة لا يخلون بها ،
فحرم على الرهبان الخروج من الاديرة والطواف بالقرى لجمع المال . ولم
يتردد عن اظهار حزمه عند كل مخالفة حتى أطلق عليه الرهبان اسم
(أبو نيوت) هذا الي اهتمامه أيضا بمكتبات الاديرة فعين لكل منها أمينا
وجتم عليه أن يمسك سجلا بمحتوياتها كما جعل اهتمامه باللغة القبطية عمليا
فألف لجنة من عريان جرجس مفتاح والقس تكللا والمعلم قزمان وبرسوم
ابراهيم الراهب لتضع لها كتباً لتدريسها وأمر بإدخالها في منهج المدارس
القبطية (٢) .

(١) Lembriggs Gnedieval Hvrstory Vol.II.

(٢) الدليل العام للأقباط والمسيحيين في الامة ص ١٨١ .

ومات الانبا كيرلس الرابع فى ظروف غامضة فى ٢٣ طوبة سنة ١٥٧٧. الموافق الاحد والثلاثين من يناير سنة ١٨٦٢ ولم يتسن للأقباط أن ينتخبوا بطريركا جديدا خلال مدة قصيرة فاختر الانبا مرفس مطران البحيرة والاسكندرية قائما بطريكيا . واراد سعيد أن يتدخل فى انتخاب البطريك ليصير ذلك تقليدا تتدخل الحكومة بمقتضاه فى اختيار كل من يعتلى هذا المنصب الرفيع .:

وما أن شاع الخبر حتى وقف الاقباط كلهم معارضين هذا الامر الذى سوف :

١ — يسلبهم حق انتخاب البطريك بهلء حريتهم الامر الذى جروا عليه منذ القرن الخامس .

ب — يخالف تقاليدهم فى انتخاب البطريك من طائفة الرهبان .
ج — يخالف قوانينهم الصريحة فى عدم انتقال أسقف الى منصب آخر مهما كان رفيعا (١) ووقف المسيحيون فى وجهه واجتمع المجمع المقدس وأصدر قرارا

(١) ايما أسقف ترك كرسيه وعمله وابروشيتنه وما يعنيه من تدبير شعبه ومضى الى غير بلده ولو كان محتاجا مضطرا أو مضرورا فلينف . ويلق من درجته) .

المادة ١٣ من قوانين الرسل .

ب — (أمرنا ان لا يتعدى الاسقف من نفسه ولا القس ولا الشماس أن ينتقل من موضعه الذى سيم عليه ورسمه باسمه . فمن خالف لما رسمناه وتجاوز من موضع الى موضع وجبنا عن رأيه ويعود الى موضعه راجعا . ولا يتجرا على مقاومة الكنيسة والتعدى على سنتها وحرمانا . فانه لا بأس من سوء العقوبة من الله . وقد جعلناه تحت السنودس المقدس . وحرمة وسياتى عليه سخط الله عاجلا) القرار الخامس عشر من قرارات مجمع نيقية سنة ٣٣٥م .
ج — (لا يجوز لأحد من الاساقفة أن ينتقل من أبرشيته الى أخرى) .

د — (السيف أو النار أو الرمي الى الاسود أو النفى أو السبى لا يغلبنى فلست أدخل تحت مالا يجب ولا أدخل تحت حرمة . الذى كتبته وبدأت به ان لا يصير أسقف بطريكا) .

(قرار الانبا ميخائيل بطريك الاسكندرية السادس والاربعين . تاريخ البطارقة ج ١) .

بحرمان الاسقف الذى يتطلع الى منصب البطريركية او يسعى اليه (١) ولما مات البطريرك ديمتريوس سنة ١٨٧٠ أراد اسماعيل باشا ان يعيد الكرة وينجح فيها فشل فيه سابقه فاختير الانبا مرقس مرة اخرى قائمقاما بطريركيا والبس اسماعيل المحاولة الثانية ثوب القانون . واوعز الى وهبة بك رزق باشكاتب ديوان المالية ان يجمع من الاقباط تركيبة بذلك ونجح وهبة بك فى التأثير على بعض الناس الذين كانوا يخافون نية اسماعيل . وكاد الامر ان يتم وفق ما يشتهى . ولكن الاقباط وقفوا هذه المرة ايضا كما وقفوا فى المرة الاولى واجتمع المجمع المقدس وأصدر قرارا بحرمان كل من يتولى المنصب من الاساقفة (٢) .

واحتاجت مشروعات اسماعيل الى عدد كبير من الموظفين ليشتغلوا الوظائف فى الجهاز الحكومى الواسع الذى انشئ فى مصر فاشتغل فى هذه الوظائف عدد كبير من المصريين بينهم نسبة كبيرة من الاقباط . وكانت بعض الوظائف عدد كبير من المصريين بينهم نسبة كبيرة من الاقباط . حتى راينا عزمى باشا يشغل وظيفة رئيس الديوان الخديوى وجرجس بك النيشاوى يشغل سكرتيرته .

كما شهد السودان خلال هذه الفترة نشاطا ليس اقل مما شهدته مصر . فان الجهود التى بذلت فى السودان خلال هذه الفترة (١٨٦٣ — ١٨٧٨) جعلتها من أهم الادوار فى تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر (٢) واستوعبت هذه الوظائف كثيرين من الاقباط الذين بلغوا فيها مبلغا كبيرا من الرشى .

-
- (١) كل من يطلب رتبة البطريركية من الاساقفة او المطارنة . أو أصحاب الكراسى أو سعى فيهما أو رضى بها . أو أحد سعى له فى شأن يطلبوه لها . كاهن أو رئيس كهنة أو علمانى يكون محروما .
قرار المجمع المقدس للكنيسة القبطية فى ١٥٨٥ ش .
- (٢) قد نحقق ان المنتخب للبطريركية الا يكون الا بكرا . وان كان له بعض مراتب المذبح لا يكون أكثر من كاهن . وان بطاركنا المائة والحادى عشر ليس منهم من كان أسقفا على ابروشية وتركها وان القانون منع انتقال الاسقف من كرسيه) .
- (٣) مصر والسودان ص ٩٨ .

وكان السودان يتبع ادارة خاصة فى القاهرة حملت اسم (ادارة السودان) عين لها ابراهيم روفائيل الطوخى رئيسا فى سنة ١٨٧٣ وظل بها حتى سنة ١٨٨٢ حين منيت مصر بالاحتلال البريطانى ولم يتركها حتى عمها الاضطراب فلم تمض بضعة أشهر حتى استدعى اليها مرة ثانية لبقى بها الى سنة ١٨٨٤ واذا ما انشئت المحاكم الاهلية عين قاضيا بمحكمة الاستئناف الاهلية وله فوق ذلك مؤلفات دينية عديدة .

وعلى شاكله ابراهيم الطوخى رأينا كثيرين يتولون مناصب هى موضع الحسد من كثيرين كما فعل ميخائيل بك شاروبيم الذى كان سكرتيرا خاصا لاسماعيل باشا صدقى حتى سنة ١٨٧٦ حين نقل وكيلًا لمصلحة الجهارك ثم مديرا لجهرك دمياط والى نسيم بك شحاتة كبير كتاب مصلحة المكك الحديدية يعزى فضل تنظيم أعمالها الكتابية والحسابية على قواعد علمية عالية . واليه أيضا يعزى فضل انشاء نظام ادارى دقيق للترقية يقضى على كل اثر للمحسوبية ويجعل الترقية على اساس الكفاءة ليس غير . فكان ذلك موضع اعجاب الوزير الذى اثنى عليه لدى اسماعيل وطلب له الرتبة الثانية فأنعم عليه بها . ونقل الى ادارة الخزانة العامة بوزارة المالية (١) .

ووصل بعض الاقباط الى مناصب مديرى المديریات وهو منصب يعتبر نيابة عن الخديوى ومن أمثال هؤلاء جرجس بك وصفى الذى كان مديرا للمنوفية وعوض بك سرور الذى كان مدير القليوبية (٢) .

وقد ساهم الاقباط فى النشاط الكبير الذى شمل نواحي الزراعة والصناعة . ولم تكن هذه المساهمة يسيرة بل كبيرة الاثر حتى اقتنى كثير منهم ثروات يحسدون عليها وقد شهد كثير من السياح الأجانب الذين زاروا

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٤ ص ٧٥ .
(٢) محاضر المؤتمر المصرى فى القاهرة سنة ١٩١١ .

مصر في السنة الأولى من الاحتلال البريطاني ثراء كثير من الإقباط في أسبوط وقالوا ان هذا الثراء يبدو في عمائمهم البيضاء النظيفة وملابسهم الغالية وسلوكهم الراقى وتعبيرهم المؤدب مما أعطاهم مكانا اجتماعيا مرموقا (١) كما شهدنا كثيرين من الأعيان الذين تولوا مكان الزعامة في قراهم أمثال بشارة عبيد بقنا ومقار تادرس ومشرقى عبد النور بجرجا (٢) بل رأينا عائلات استطاعت بفضل تعاون أفرادها ان تمتلك مئات الأمدنة بل الآلاف تستغلها فيما يعود بالمنفعة عليهم وعلى من حولهم من الفلاحين وعلى بلادهم مثل عائلتي ويصا وشنودة وحنا ميخائيل بأسبوط (٣) والبطارسة جرجا (٤) وتكلا في بهجورة (٥) وطلب اسماعيل من هذا الأخير ان يسفل وظيفة ناظر بقلم قضايا مديرية جرجا فنزل عند ارادته .

ولم يقتصر نشاط الإقباط في هذا العهد على الميدان الحكومى أو الزراعى فحسب بل اتجهوا الى الناحية الثقافية أيضا وساهموا فيها بنصيب لا ينكر ففي سنة ١٨٧٨ أنشئت مدرسة الإقباط الصناعية لتتيح للبلاد ما تحتاجه من مهرة الصناع المثقفين وذلك بفضل عالم كبير هو وهبى بك الذى اتجه الى فائدة مواطنيه عن طريق التأليف فوضع عدة كتب للدارسين مثل العقد الانفسى في ملخص التاريخ المقدس () والتحفة الذهبية في تقريب اللغة الفرنسية () و (ارتشاف الراوى في صرف النحو الفرنساوى) ويبدو أن الكتابين الآخرين وضعوا لمساعدة دارسى اللغة الفرنسية .

ولما كان متبحرا في اللغة العربية الى جانب تبحره في اللغة الفرنسية فقد طلب العلم في الأزهر (٦) فوضع « الخلاصة الذهبية في علم العربية » فكان أول كتاب في النحو كما وضع « مرآة الظرفى فن الصرف » كما أقبل على

-
- (١) الإقباط في القرن العشرين ج ١ ص ١٧١ .
 - (٢) الإقباط في القرن العشرين ج ٣ ص ٧٢ .
 - (٣) نفس المصدر ص ٨١ .
 - (٤) نفس المصدر ص ٨٦ .
 - (٥) نفس المصدر ص ٣٤ ج ٣ .
 - (٦) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٤ .

نظم الشعر فأجاده حتى لقد ترجم شعر لرواية تمثيلية هى رواية « تليماك » بل يعزى اليه فضل أول رواية تمثيلية عربية « التوفيق فى قصة يوسف الصديق » وقد مثلت على مسرح الاوبرا وحضرها الخديوى توفيق وأثنى على مؤلفها . وكان هذا التشجيع داعيا له لأن يندفع فى تيار التأليف فوضع « الأثر النفيس فى تاريخ بطرس الأكبر ومحكمة الكسيس » التى مثلت كذلك فى نفس الدار فى عهد توفيق كذلك (١) .

وتولى منصب البطريركية هذه الاثناء الانبا ديمتريوس (١٨٦٢ — ١٨٧٠) ثم كيرلس الخامس (١٨٧٤ — ١٩٢٧) وقد كان الاول شديد الاهتمام بالناحية الثقافية فتابع اثر سلفه فى الاهتمام بمدارس الاقباط حتى بلغ عددها فى نهاية حكم اسماعيل اثنتى عشرة مدرسة بالقاهرة وواحدة بمصر القديمة وواحدة فى الجيزة ومدرستين بالاسكندرية يتعلم فيها الطلبة القبطية والعربية والفرنسية والانجليزية والايطالية والحساب ومبادئ الهندسة والتاريخ والجغرافية وبعض المنطق وأئاشيد الكنيسة وذلك خلاف مدرسة اكيركية (٢) يتعلم فيها اثنا عشر طالبا من راغبى الكهنوت اللغة القبطية والعربية والالحن الكنسية . وكانت أهم هذه المدارس المدرسة البطريركية وقد بلغ عدد طلبتها فى سنة ١٨٧٧ ثلاثمائة وتسعة وسبعين طالبا منهم ثلاثمائة وأثنى من الاقباط . كان عدد تلاميذ حارة السقاين والآخرى بجانب الازبكية وكان فى الاولى خمس وأربعون بنتا وفى الثانية ما فوق ذلك (٣) وقد عرفت الحكومة فضل هذه المدارس فكان رفاعة بك يحضر سنويا لامتحان طلبتها وتقرر اعفاؤهم من الخدمة العسكرية (٤) ووهب لهم اسماعيل ألفا وخمسمائة فدان هى تفتيش رأس الوادى لينتفعوا بريعتها رنل هذا التفتيش وقفا عليها حتى أواخر أيامه حينما رأت لجنة التصفية

-
- (١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٣ ص ٣٤ .
 - (٢) لم تعش هذه المدرسة طويلا بسبب ضعف مواردها المالية .
 - (٣) تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل ج ١ ص ٢١٠ — ٢١١ .
 - (٤) الاقباط فى القرن العشرين ج ٣ ص ٣٤ .

الاستيلاء على أملاك اسماعيل علاجا لمسألة الديون والحق ان الاقباط اقبلوا على التعليم في نهم غريب خلال هذه الفترة من تاريخهم حتى لقد وصلت نسبتهم الى مجموع عدد الطلبة في المدارس الاميرية الى ٦٦ ٪ .

ولكن يبدو ان المؤرخ نسي مدرسة اخرى للاقباط وهى مدرسة الخياط الواصفية باسيوط وهى التى انشأها فى سنة ١٨٦٧ واصف خياط فكانت بذلك المدرسة الرابعة للبنات فى مصر ثلاث منها للاقباط ورابعة حكومية وقد تولى الاتفاق على هذه المدرسة بسطوروس خياط ومن بعده ابنه أمين خياط ثم انجاله واصف وشكرى خياط وجدد بناء هذه المدرسة امينة خياط وهذه المدرسة وان كانت تعلم البنات نظير مصروفات الا انها كانت منخفضة وكان ربع عدد الطالبات ينعلمن بالمجان وتقوم احدى سيدات شائلة خياط بسد العجز سنويا دون أن نلجأ الى جهة حكومية أو أهلية (١) .

واذا ما أراد للبطريرك ديمتريوس أن يزور المسيحيين فى الصعيد ليتفقدهم (٢) كما يتفقد الراعى رعيته وضعت الحكومة تحت تصرفه باخرة نيلية وأمرت أن يستقبل فى كل البلاد التى ينزل بها استقبالا رسميا .

وفى ظل سياسة المساواة التامة بين المصريين اقبل الاقباط على بناء الكنائس حينما أرادوا دون أن يتطلب الامر اذنا أو تصريحاً بل لم يجد بعض الاقباط حرجا فى بناء المساجد ووقف الاوقاف عليها كما فعل مرقس بك يوسف الذى انشأ فى طنطا كنيسة سنة ١٨٦٥ ومسجدا فى بلدة جناح .

وقد ساهم الاقباط أيضا فى هذه اليقظة الفكرية التى شملت مصر فى نهاية عصر اسماعيل وكان أسهامهم فعالا فقد أسس ميخائيل عبد السيد جريدة الوطن سنة ١٨٧٨ وعمل جرجس ميلاد مديرا لها وكان الاخير متضلعا فى

(١) أهرام ١٩٥٧/١١/٨ .

(٢) السنكسار ١٠ بؤونة .

اللغة الانجليزية داعيا الى انتشارها وقد أثر عن هذه الجريدة فهمها للتطورات السياسية الخارجية وعمق بحثها لما تناوله من موضوعات . فقد انتهزت فرصة الحرب البلقانية الاولى (١٨٧٥ - ١٨٧٨) لنشر تاريخ الروس وجغرافية بلادهم وأسباب الحرب مشيرة الى موقف الروس من الدويلات العثمانية في أوربا الشرقية وأحقية هذه الشعوب في الحرية التي تسعدها والدستور الذي تلح في طلبه والمذاهب السياسية الجديدة التي تتف تركيا دون تحقيقها ووالت الجريدة تتبع هذه الحرب وقرنت أخبارها ببحوثها العميقة حتى أضحت اعدادها سجلا لأطوار الحرب (١) وإذا ما طلبت الحكومة التركية من الحكومة المصرية مناصرتها بإرسال الجيوش المصرية ورفضت الحكومة المصرية هذا الطلب بحجة تصور الميزانية وقفت الوطن تؤيدها دفاعا عن الاستقلال المصرى الذى حصل عليه اسماعيل بفرماناته المتعددة . وإذا ما اقترحت الصحف البريطانية على حكومتها احتلال مصر لتمنع انتشار النفوذ الروسى اليها قصدت لها جريدة الوطن تندد بهذا الموقف الاستعماري وتنبيه الأذهان الى ما يحاك من الدسائس من أجل الانقاص من الاستقلال المصرى (٢) .

ولم تقف جريدة الوطن هذا الموقف لعدائها ولا لصداقتها لروسيا بل وكانت تنظر الى مصلحة مصر وحدها فما أن انتهت الحرب ووقفت روسيا في مؤتمر برلين تحاول أن تنقض على تركيا فتتترح مساهمة مصر في تسديد الغرامة الحربية التي فرضت على تركيا بسبب هزيمتها حتى تصدت جريدة الوطن لتدافع مرة أخرى عن مصر المستقلة وبعدها عن الشؤون التركية بعد فرمان سنة ١٨٧٣ (٣) .

وإذا كانت جريدة الوطن قد وقفت هذه المواقف المشرقة وكانت كلها في صف اسماعيل خديو مصر الشرعى فانها لم تتردد في التعريض به وبحكمه

-
- (١) تطور الصحافة المصرية من ٧٥ .
 - (٢) الوطن مارس سنة ١٨٧٨ .
 - (٣) تطور الصحافة المصرية من ٧٨ .

الاستبدادى وانتهزت فرصة تعيين الوزارة النوبارية لتشرح مساوىء العهد القديم فى تقريره ضرائب (غير مقررة ولا جائزة ولا مبررة) وحملت على الموظفين الذين (اثروا من فقر الفلاح حتى أصبحوا من أهل اليسار والثروة وصارت فى حيازتهم أخصب الأطيان) ورجعت بالوزارة النوبارية كمظهر من مظاهر تقييد سلطة الخديوى (١) .

ولم تكن جريدة الوطن كما لم يكن الاقباط مرحبين بالنفوذ الاجنبى الا على أنه واسطة لاصلاح الخلل الذى انتشر فى ظل حكومة اسماعيل الاستبدادية ولكنها لم تتردد فى الوقوف فى وجه هؤلاء الأجانب اذا ما رأتهم يحاولون فرض سلطتهم واستغلالها لنشر نفوذهم فحملت الجريدة على كل من المستر ولسن المراقب البريطانى والمسيو دوللنيار المراقب الفرنسى حينما أراد شغل بعض المناصب الكبرى بالبريطانيين والفرنسيين وذكرت ان ذلك سيجرم أبناء الوطن المتعلمين من حقهم فى مناصب بلادهم (٢) .

واذا كان الوطن قد رحب بوزارة نوبار التى سوف تتحمل المسؤولية فى حكم البلاد فانها لم ترحب بالمسؤولية الوزارية لذاتها بل رحبت بها لتكون مقدمة لما هو أجل وأعظم (ليست هناك نائدة مطلقا من هذه المسؤولية ما لم يكن هناك مجلس نواب الذى هو الزم لمصر من لزمه للدول الأوربية) لان الوزارة المصرية مختلطة. وهؤلاء الوزراء الاوربيون سوف يقدمون مصالح بلادهم على المصالح المصرية فمجلس النواب هو القوة التى توقف هؤلاء الأجانب عند حدهم وتلزمهم انبتهاج سبيل خدمة مصر وتقديمها على مصالح دولهم (٣) .

فاذا كانت جريدة الوطن ومن ورائها الاقباط قد أيدوا اسماعيل فانهم لم يفعلوا الا حين رأوا مصلحة وطنهم تقتضى هذا التأييد واذا ما عادوا بعد ذلك فنقدوا اسماعيل مؤيدين التدخل الاجنبى ثم انتقدوا هذا التدخل

-
- (١) تطور الصحافة المصرية ص ٨١ .
 - (٢) الوطن ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٧٨ .
 - (٣) تطور الصحافة المصرية ص ٨٦ .

آخذين يضحى بمصالح مصر فانهم لم يكونوا في ذلك الامصريين قوميين يبحثون عن مصلحة مصر وحدها فيقفون لها مدافعين عنها واذا كان التاريخ قد سجل لاسماعيل فخر انشاء اول مجلس نيابى في مصر الحديثة فان الاقباط كانوا من ورائه يطلبون هذا الطلب ويلحون فيه ويتهجون لتحقيقه واذا كتب لمصر يوماً أن تؤرخ تاريخها الدستورى وتسجل للأبطال الذين ساهموا في الثورة على استبداد اسماعيل والمطالبة بالحكومة الديمقراطية الدستورية فان اسماء ميخائيل عبد السيد وجرجس ميلاد يجب أن تكون في مقدمة هذه الأسماء ، فقد كانت جريدتهم هى التى عالجت شئون مصر من وجهة نظر مصرية بحتة متخطية جميع الصعاب الرسمية من انذار وتعطيل فتحدثت عن مساوئ الحاشية والوزارة النوبارية معاً وهاجمت الاجانب ووزيريهم وشجعت مجلس النواب واتاحت فرصة الظهور وأمدت رجاله بالرأى السديد وناقشت أموره الفقهية كواجب انتخاب رئيسه لا تعيينه وحق المجلس في فرض الضرائب ومسئولية الوزارة أمامه كما بحثت في وجوب فرض الضرائب على الاجانب وخاصة (الوزيرين اللذين يتقاضيان آلاف الجنيهات من شعب مفلس) (١) واذا ما عزل اسماعيل رحب الوطن بهذا العزل وذكرت ان الله جلى عن الأمة الظلم والظلمة (٢) .

ولأجل حسن ادارة ما بيد الاقباط من أملاك عرض الانبا مرقس مطران البحيرة على اسماعيل تشكيل مجلس ملى من أبناء الأمة يتحد مع البطريك ورجال الاكليروس في نظر ادارة الاوقاف فأجيب الى طلبه وصدر الأمر بانتخاب اثني عشر عضواً أصلياً واثنى عشر نائباً فكان أول مجلس ملى في مصر . ولكن لم يلبث الخلاف أن أودى به وصديت اللائحة به في العشرين من فبراير سنة ١٨٧٤ وبدأ عمله بتولييه اصلاح المدارس والبنت في قضايا الاحوال الشخصية واصلاح الكنائس والاقواقف .

وجاءت الثورة العربية فاشتراك الاقباط فيها جنباً الى جنب مع بقية الأمة فقد راوا في عربى البطل الذى يحاول ابعاد النفوذ الاجنبى (٣) ودفع الطغيان

(١) الوطن ٥ يوليو سنة ١٨٧٩ .

(٢) جريدة مصر عدد ١٨٨١٩ في ١٣/١١/١٩٦٤ .

Egypt and Egyptian Question p - 106

(٣)

الخديوى (١) .

ومن الطبيعى أن يكون الجيش جنودا وضباطا مكونا من أبناء الأمة دون تفرقة فى دين أو مذهب فقامت الجرائد المصرية وبينها جريدة الوطن تذكر علو همة الضباط الثائرين وعدالة مطالبهم ثم تلج فى وجوب اتفاق الحكومة والشعب على انشاء برلمان مسئول يجعل غابته أن تكون مصر للمصريين وحدهم بعد أن رأت المناصب العالية مغلقة فى وجوه المصريين مع أن مصر مهما بلغت بها الحال ملك للمصريين فأشادت بهوقف المويلحى عضو مجلس شورى النواب حين وقف ليعترض على مرسوم رياض باشا بحل المجلس ويؤكد أن النواب مصممون على دوام انعقاد المجلس ورات الجريدة أن من واجبها أن تذيع على الناس ذلك الموقف ليشهدوا المعركة بين الاستبداد والحرية كما ألحت فى اطلاق حرية الصحافة وسن قانون لها ينظم امورها (٢) وإذا ما اقيمت وزارة الثورة عقب المذكرة المشتركة اشترك بطريق الاقتباط الانبا كيرلس الخامس مع غيره من رؤساء الدين فى التوجه الى الخديوى برجاء الإبقاء على عرابى لانه الوحيد القادر على حفظ الامن وإذا ما ادلهمت الأمور اشترك الفلاحون والاقتباط فى تزويد الجيش بما يحتاجه من مخلف المؤن فكان تادرس بك شنوده المنقبادى يعمل معاونا لوابورات النيل فى اسيوط فعمل على تشغيل جميع الوابورات لنقل العساكر والمهمات الحربية من الوجه القبلى الى اسيوط التى كانت نهاية الخط الحديدى وكان عرابى يتصل به رأسا لثقتته به (٣) .

كما انهالت التبرعات على عرابى من أعيان البلاد وكان بينهم عدد كبير من اقتباط الصعيد (٤) فقد كانوا يتبنون من صميم قلوبهم أن ينجح عرابى فى طرح سلطة كل من السلطان والخديوى لأنهم كانوا يرون أن اشتراك أكثر من طبائخ لابد أن يؤدى الى حرق الطعام (٥) .

(١) انجلترا والجلء عن مصر (يوسف خليل) ص ٢٠ .

(٢) تطور الصحافة المصرية ص ٨٩ .

(٣) الاقتباط فى القرن العشرين ج ٣ ص ٣٥ .

Egypt and Egyptian Question p - 106 (٤)

Egypt and Egyptian Question p - 107 (٥)

وكأنها أراد أعداء الحركة ان يشوهوا من جلالها فأشاعوا ان الغرض الحقيقى لعرابى انما هو دفع المسلمين الى الاستيلاء على أموال النصارى . فكان من أثر ذلك ان اندفع بعض الغوغاء يحاولون الاستفادة من هذه الفرصة الا أن عرابى بادر بمقاومة هذه الحركة التى تعارض القومية وتؤدى الى انهيارها فأرسل الاوامر المشددة الى المديرين بالمحافظة على أموال الاقباط وحياتهم ولم تكن هذه الازمة اليسيرة بصارفة الاقباط عن بذل العون لهذه الحركة المباركة فاستمروا فى مدها بما يملكون (١) .

وليس أدل على التعاون والتآزر والحب بين أبناء الوطن من أن يؤلف بطرس غالى الجمعية الخيرية القبطية فى سنة ١٨٨٠ ميقوم بالخطابة فى حفل افتتاحها الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار وعبد الله النديم (٢) .

الباب الخامس

عهد الاحتلال البريطاني

وجاء الاحتلال البريطاني في سبتمبر سنة ١٨٨٢ فخسرت مصر استقلالها المحدد . وضاعت على مصر جهود ثمانين سنة بذلت فيها ما فوق طاقتها من الدم والمال . وخسرت امبراطوريتها الواسعة . فقد كانت مؤامرات الانجليز هي التي اضاعت السودان بعد ان أصبحت امور مصر تدار من لندن (١) . وتقاطر الناس هناك على المهدي يبيعونه بالزعامة بعد ان ايقنوا ان زمام الامور في مصر أصبح في يد جماعة من (الكفرة) يديرونه كيف يشاءون (٢) لا لغرض اسعاد الاهالى بل لغرض سحق الاسلام .

وبذلك أصبحت مصر ذات مركز دولي شاذ فهي تحت السيادة الحثمانية اسما بمقتضى فرمانى سنة ١٨٤١ وما تلاهما من فرمانات امتدت حتى سنة ١٨٧٣ بينما لا تملك هذه الدولة من أمر مصر شيئا . والسلطة فيها في يد اصحاب احتلال غير شرعى . ينادى أصحابه بعدم شرعيته (٣) ويعسدون بالجلاء في أسرع فرصة لما تستتب الامور ولكن تقدير هذا الاستتباب راجع اليهم وحدهم بينما المصريون تواقون الى التخلص من هاتين السياتين سواء الاسمية او الفعلية كي يتمتعوا باستقلالهم وقوميتهم كاملتين .

ومنذ اللحظة الاولى اتجهت سياسة المحتلين الى تضييع القومية المصرية وهدمها وكانت خطواتهم في ذلك سريعة ولسكنا وطيدة . فالغى

(١) تلغراف جرانفل الى بارنج رقم ٦ سرى في يناير ١٨٨٤ .

(٢) مصر والسودان ص ١٥٣ .

(٣) انجلترا والجلاء عن مصر ص ٢٩ و ٣٠ .

الجيش الوطنى وسرح أفرادہ فعدادوا الى قراهم يملأ نفوسهم السخط على هؤلاء المحتلين ، كما بدء فى انشاء جيش جديد لا يزيد عن أن يكون قوة بوليسية لا يسلح أفرادها للعمل خارج الحدود المصرية (١) يسيطر عليه ضباط بريطانيون . وليس اذل للقومية من تسلط اجانب على جيش وطنى . ولكن ادهى من ذلك هو محاولة بث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد حين تحببوا الى الاغلبية ليظهروا أنفسهم بمظهر الآخذين بيدهم الناصرين اياهم ضد الأقلية (المتطفلة) .

ولعل اقرب طريق الى سحق القومية المصرية هو محاولة جانزة البلاد اى صبغها بالصبغة الانجليزية وقد ظهر ذلك واضحا فى الغاء المدارس الوطنية بحجة الاقتصاد فى النفقات من أجل اصلاح المالية فوجهوا أولى ضرباتهم الى المدارس التى تحيى الشخصية وتنبه القومية وهى المدارس العالية كما الغيت المدارس الثانوية الحكومية أيضا واذا كان قد بقى بعد ذلك التعليم الابتدائى فقد أصبحت الانجليزية لغة التعليم فيه ، ثم ملئت الوظائف العالية بالانجليزية ليوجهوا سياسة البلاد وفق مصالحهم . فكان أن عين المستشارون البريطانيون فى الوزارات المختلفة خصوصا وزارة المالية بعد ان الغيت المراقبة الثنائية ووزارة المعارف لتوجيه الشباب والتحكم فى نزعاته . فلم يعد المصريون الا مجرد آلات تنفذ أوامر الاسيات الجدد . ولا بد ان يحتاج هؤلاء المستشارون الى من يعاونهم ويهيىء لهم العمل .

فانبت البريطانيون فى جميع أجزاء الجهاز الحكومى . وكان أظهرها جهاز الامن الداخلى . فجعل منهم المفتشون فى المديریات . مع بقاء المديرين من المصريين وعلى عاتق هؤلاء تقع التبعة أمام الشعب ، بينما المفتش هو الذى يوجهه كما أصبح رؤساء هذه الادارة (رؤساء البوليس) من البريطانيين أيضا .

وغرّضت الرسوم العالية على التعليم وأصبح على الطالب الذى يرغب فى الانتظام فى سلك التعليم أن يدفع مصروفات أخذت تزداد مع سنوات الاحتلال فغدد بلغت فى سنة ١٨٩٠ ما يقرب من ١٧ ألف جنيه ووصلت عام ١٩٠٤ الى ٧٦ ألف جنيه وكان معنى ذلك أن لا يستمر فى التعليم سوى أبناء القادرين الذين يمثل كبار الملاك عمودهم الفقرى وكانت نسبة الطلبة المجانيين فى سنة ١٩٠٢ فى المدارس العليا ٦٣ ٪ نقصت الى ١٨ فى المائة فى سنة ١٩٠٣ والى ١ ٪ فى سنة ١٩٠٤ واختفت تماما فى العام التالى (١) .

ولم تكن بريطانيا بالدولة الغريرة التى تنهاون فى فرصة اتاحتها لها الاقتدار وأتاحها لها سعيها المتواصل طوال السنين الماضية فمضت فى تثبيت أقدام الاحتلال فى مصر فاقنعت المصريين أن تركهم لمصر سوف يتيح للمهدين فرصة غزو مصر من الجنوب تنفيذا لبرنامجهم الذى رسمه المهدي لأنصاره (٢) خصوصا بعد أن فقدت مصر جيشها القديم فى موقعة شيكان وأصبح جيشها الجديد لا يزيد عن قوة بوليسية . ولم يكن ملا الحكومة البريطانيين الا وسيلة أخرى من وسائل تثبيت الاحتلال . الى جانب تحبها وتقربها الى الشعب وذلك بأن تركت للموظفين المصريين يدبرون الامور وفق ما يشتهون على أن يتقدم البريطانيون لاصلاح ما يقعون فيه من اخطاء فكان مفتش الرى ومفتش الداخلية البريطانى هما سماما الامن فى نظر الفلاحين المصريين كما أعلن السير افلين بارنج أن بابه مفتوح لكل شكوى وكانت وسيلتهم فى ذلك دعايات ضخمة بواسطة الجرائد التى أخذوا فى انشائها كالمقطم الذى أغروا أصحابه ورئيس تحريره بأن ينقله من السودان الى مصر على أن يدبروا له أمر الاشتراكات . كما لم يكن اصلاحهم نظام الرى فى مصر وتحويلهم رى الحياض الى رى دائم سوى احدى هذه الوسائل أيضا . ولم يكن موقفهم من الخديوى توفيق حين نصحوه بأن يؤلف مجلس شورى القوانين سوى محاولة أيضا للتحبيب الى الشعب رغم أن هذا المجلس لم يكن الا صورة باهتة للحكم النيابى وكما نجح البريطانيون فى سياستهم هذه نجحوا أيضا فى التقرب

-
- (١) الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال ص ٦ .
(٢) مذكرة شريف باشا الى بارنج فى ٢٢ ديسمبر ١٨٨٣ .

الى الاجانب بالعمل على تنظيم دفع الديون وكانت هذه مشكلة المشاكل امام الدائنين كما عملت على تشجيعهم على القدوم الى مصر والعمل بها .

وكان موقف المصريين من هذا كله موقفا سلبيا بعد ان وجدوا جيشهم يسرح وزعمائهم ينفون . والخدوي يسلم لهم بكل شيء في ذلة وخضوع . فكانوا مأخوذين بهذه القوة الجبارة التي استطاعت ان تكتسح كل شيء امامها . فاستكانوا الى الواقع . ولم تبدأ هذه الغمة بأن تنزاح من عقولهم الا بعد سنين من الاحتلال حين نمت طبقة المثقفين فقام مصطفى كامل يحاول بحركته ان ينبه اذهان المصريين الى ما كانوا عليه والى ما هم سائرون اليه . ونجح مصطفى كامل في هذا التنبيه بعض الشيء وان لم يلق التأييد من جميع الطبقات لما شاب حركته من نقائص . وحين التف حوله بعض الاجانب الذين أضروه اكثر مما أفادوه .

وفى سنة ١٨٩٦ اتاح لانجلترا مركزها في مصر ان تمد نفوذها الى السودان . وأخذت تشق طريقها نحو جنوب افريقيا ولم تقف في وجهها محاولة فرنسا الهزيلة التي وقفتها في فاشودة . وفي هذا القطر الجديد وجدت انجلترا مجالا جديدا لعدد من الموظفين البريطانيين بثتم أيضا في جميع المراكز الرئيسية حيث استطاعت ان تدعى انها هي التي نشرت الحضارة الجديدة في ربوع السودان . بعد ان قضت على الحكم الوطنى الفاسد هناك واخذت تقود السودانين نحو المدنية الأوربية . وتقضى على تجارة الرقيق وتفتح انحاء السودان للاستغلال الاقتصادى الحديث . كسبت انجلترا كل هذه المكاسب رغم مركزها غير الشرعى في مصر وان حاولت ان تسبغ عليه بعض الشرعية . حينها عقدت الاتفاق الفرنسى البريطانى في سنة ١٩٠٤ وهو اتفاق كانت بريطانيا نفسها أول من اقتنعت بعدم جدواه في تصحيح مركزها في مصر .

وبعد ذلك وإذا ما قامت الحرب العالمية الاولى . أرادت انجلترا ان تحاول هذا التصحيح مرة أخرى ولكنه كان تصحيحا كمن يحاول ستر جريمته بارتكاب جريمة أخرى . فأعلنت عزل الخديوى وعلان الحماية البريطانية على مصر وكان عزلا لم يقره الشعب وكاست حماية من جانب واحد فلم تكن عدم شرعية هذين الاجرائين الجديدين بأقل من عدم شرعية الاحتلال .

الاقتصاد أولا ثم لاحتلال قلة من الموظفين البريطانيين الكبار مكانهم ثانيا . فقد كان الطرد من نصيب الاقباط أكثر من نصيب غيرهم . وإذا كان البريطانيون الجدد قد احتاجوا الى عدد من الموظفين الذين يجيدون اللغات الأجنبية لمعاونتهم في العمل . فقد وجدوا ما فوق كفايتهم في اللبنانيين والسوريين (١) .

وإذا عمد البريطانيون الى تسريح الجيش المصرى القديم فقد أصاب الاقباط جزء من هذا التشريد وعاد الاقباط الى قراهم فلم يجدوا أمامهم الا الجوع والشقاء **إلا إذا قلنا ان هذا الجيش كان اسلاميا خالصا .** وهذا أمر يخالف الواقع جد المخالفة . فقد كان شرف الخدمة العسكرية من نصيب المصريين جميعا دون تمييز منذ أيام سعيد حين أجاب ملتمس البابا كيرلس الرابع في هذا الشأن كما حرمت المدارس القبطية تفتيش الوادى الذى أوقف عليها فحرمات المورد الذى تعتمد عليه كما سحبت الاعانة السنوية وقدرها مائتان وخمسون جنيها .

ولعل أبلغ الضرر الذى حاق بالاقباط هو ما وقع عليهم في السودان الذى ضاع — كما قلنا — نتيجة للسياسة البريطانية الخاطئة ولم يكن قد مضى على الاحتلال أكثر من سنتين ونصف سنة . فقد استولى المهديون على الخرطوم في يناير سنة ١٨٨٥ . ولم يعد للحكومة المصرية نفوذ هناك . وترك المصريون وكثرتهم من الاقباط لنصيبهم المحتوم حيث نهبت املاكهم وسلبت أموالهم بل أن بناتهم وزعن على زعماء المهديّة ومن رفضت قتلت أو انتحرت دون أن تجد من يدافع عنها بل هدمت كنائسهم وأرغموا على ترك دينهم (٢) أو التظاهر بذلك وإذا كان المهدي قد استخدم بعض المصريين في الاعمال العامة فقد ترك الاقباط يدبرون أمر أنفسهم ومع كل ما وقّع على الاقلية من غبن وظلم سواء في مصر أو السودان قيل عنهم بعد ذلك أنهم كانوا عمد الاحتلال البريطانى في مصر . وكانت غاية البريطانيين من كل ذلك أن يتقربوا الى الأغلبية على حساب الاقلية وهى سياسة يخطتها المحتلون في كل بلد ينزلون به على أمل أن يلجأ هؤلاء المظلومون الى الشكوى فيقوم المحتلون

Ibid p - 143

(١)

Ten Years In Mahdio 's Captivity p - 66

(٢)

بانصافهم ولكن الاقباط كانوا اكثر وطنية من أن يشكو (١) ولذا كان غيظ الانجليز منهم كبيرا فتقدموا الى الاغلبية بمظهر من يرد اليهم بعض ما كان مسلوبا منهم فأعطوهم الحق في اغلبية وظائف الحكومة بحكم ماكانوا عليه من اغلبية عددية بل عمدوا — عامدين — الى ابعاد المسيحيين عن بعض الوظائف العليا مثل مديري المديرية ونظار المدارس ورؤساء المحاكم وباشمهندسى الري وحكمدارى البوليس وحكيمباشى الصحة بالمديرية ومنتشى الداخلية والمالية ولجنة المراقبة القضائية (٢) بدعوى ان هذه الوظائف تمثل حاكم البلاد المسلم فكان الاحتلال هو الذى بث جرثومة التمييز الدينى للمرة الاولى منذ القرن التاسع عشر ، فكانت نتيجة هذه السياسة البريطانية الداخلية ان شعر بعض المسلمين ان المسيحيين لا يستوون فى الحقوق كما يستوون فى الواجبات . الامر الذى يعصف بالقومية ويذهب بها الى غير رجعة فأخذوا فى مقاومة هذه الفكرة وكذلك فى مقاومة الاحتلال ولكن بطرقهم الخاصة وكان أهم هذه الطرق ابلغها اثرا هو التعليم .

نفى الوقت الذى أغلقت فيه المدارس الحكومية بحجة الاقتصاد ظلت المدارس القبطية المنهل الوحيد للمصريين يرشفون من مواردها وكانت تنادى بالمساواة على أوضح صورها حين فتحت ابوابها امام جميع المصريين على اختلاف دياناتهم .

وفى الوقت الذى جعل فيه التعليم الابتدائى الحكومى مقابل مصاريف باهظة ظلت المدارس القبطية تمنح تعليمها المجانى لمن يطلبه ولم تقف مدارسها عند حد القاهرة أو الاسكندرية كما كان الحال فى المدارس الحكومية بل انتشرت فى جميع قرى مصر وتألقت الجمعيات القبطية التى تمنح معونتها للفقير والمحتاج لتمنع عنهم ذل السؤال والفاقة . وحفظ ماء الوجه والكرامة من أن تمتهن أولى خطوات القومية الصحيحة فتألقت الجمعية الخيرية القبطية فى سنة ١٨٨٠ ووسعت نشاطها بعد ذلك فأنشأت مشغلها سنة

(١) تذكارات المؤتمر القبطى ص ٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٢ .

[illegible]

تبعه ولا يسبله الى مختلفات من هذا الا بالمال ولا سبيل اليه من الحكومة
بعد ان تم اعلان انتهاء هذه الايدي الاجنبية فلم ير الاقباط بدا من أن يديروا
شؤونهم بانفسهم فتنظروا في اوقافهم مبعثرة ولا تستغل بطريقة اقتصادية ناجحة
فجميعها على ما هي المستهولة في ادارتها فكان انشاء المجلس الملى الاول في سنة
١٩١٨ ليعمل على تجميع هذه المادته السابعة على أن يكون اختصاصه النظر في

- 11. -

الأمور الدينية المحضة والفصل في الدعاوى التى تقام على الاكليروس بحسب قانون الكنيسة كما نصت مادته التاسعة والعشرون على أن يكون للمجلس حق ادارة الاديرة الكائنة بمدينة القاهرة وضواحيها . أما اديره الرهبان خارج القاهرة وضواحيها فيكون النظر فى أمر أوقافها وكذلك ترقية رجال الاكليروس وانشاء المدارس اللازمة لهم من اختصاص البطريك وأربعة ينتخبهم من رؤساء الاديرة . فيقوم بضبط أوقافها وتحسين ايراداتها وصرفيها فيما يعود بالمنفعة حسب شروط الواقفين وحتم الثانون عنى رؤساء الاديرة تقديم حساباتها سنويا الى البطريك .

وتم انتخاب المجلس الاول فى أول مارس سنة ١٨٨٣ وتألقت من أعضائه أربع لجان هى لجنة الادارة ولجنة المدارس ولجنة الفقراء والكنائس . ولجنة لقضايا الأحوال الشخصية (١) .

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٥ ص ٩ - ١٣ .
لم تلبث هذه اللائحة ان عدلت فى سنة ١٨٩٢ ومرة أخرى فى سنة ١٩٠٥ وجعل أعضاء المجلس أربعة وعشرين وجعل اختصاصه طبقا للمادة الخامسة (جميع ما يتعلق بالاوقاف الخيرية التابعة للأقباط عموما وكذا ما يتعلق بمدارسهم ومطبعاتهم وبقرائهم وكافة المواد المعتاد نظرها بالبطركخانة) .
أما فيما يتعلق بالاوقاف فقد نصت 'المادة التاسعة على أن عمل المجلس هو :

- أ - حصر الأوقاف وتقيدها .
- ب - حفظ جميع الحجج والتقاسيط وسائر مستندات الملكية .
- ج - طلب كشوفات بيان المتأخرات الموجودة .
- د - الحصول على حسابات عن الإيرادات والمصروفات والنظر فيها وحفظ ما يكون زائدا من الإيرادات وتخزينه بالبطريركية لصالح وقف أهله .
- هـ - ادارة الاوقاف المذكورة واجراء ما يؤول منه وتحسين حالتها والنظر فيما يلزم لها من انشاء وتصليح والترخيص باجراء ما يرى لزومه من ذلك كما أجازت له افتتاح مدارس ومكاتب جديدة ومدارس دينية وإيجاد كتب خانات وترتيب وتنظيم ما يكون موجودا منها على أن تكون كافة المدارس تحت ملاحظة نظارة المعارف .

فلا عرابة اذا ادى هذا الاصلاح الى الاندفاع فى تيار اصلاحي قوى ظهر
اثره اول ما يكون فى الناحية التعليمية . فاذا كانت اول مدرسة ثانوية اميرية
انشئت فى الاقليم كانت فى طنطا سنة ١٩١٤ فان المدارس القبطية اندفعت فى
اترها منذ سنة ١٩١٦ وان امتازت عنها بتعليم نسبة كبيرة من طلبتها
بالمجان .

واذا ما انشئ التعليم العالى اندفع الاقتباط ينهلون بل يعبون منه عبا
فقد وصلت نسبتهم بين طلبته فى سنة ١٩١٠ الى اكثر من ٢٩ ٪ بينما لم ترد
نسبتهم فى التعليم الابتدائى الحكومى عن ١٧ ٪ وفى التعليم الثانوى عن
٢٤٦ ٪ (١) .

ولم يترك الاقتباط المكاتب الاهلية التى كانت تديرها وزارة الاوقاف
وتصرف عليها من اوقاف المسلمين دون أن يلتحقوا بها فقد بلغ عدد تلاميذها
فى سنة ١٩١٠ (٤٢٩٢) تلميذا كان بينهم ٩١٢ قبطيا وكذلك بعض المدارس
الابتدائية التى كانت تديرها وزارة الاوقاف أيضا بلغ عدد تلاميذها ١٨٨٧
تلميذا بينهم ٢٤٢ قبطيا أى بنسبة ١٢٨ ٪ .

ولكن نوعا واحدا من التعليم العالى لم يرض عنه الاقتباط ولم يتجهوا اليه
هو مدرسة المعلمين الخديوية فلم يزد عدد الطلبة الاقتباط منذ سنة ١٨٨٨
الى سنة ١٩١٠ أى مدى ربع قرن كامل عن أربعة من الطلاب هذا شىء

== أما من الناحية الاجتماعية فقد نصت المادة الثالثة عشر على أن يقوم
المجلس :

- ١ — بحصر وجمع الإيرادات المخصصة للفقراء .
 - ٢ — توزيعها على المحتاجين بالعدل والانصاف .
 - ٣ — صرف ما يلزم لدفع المعتمدين وتربية ابناءهم .
 - ٤ — البحث والنظر فيما يترتب عليه زيادة تحسين الإيرادات وتحسين
حالة الفقراء واجراء ما يؤدى الى ذلك .
- (١) محاضر المؤتمر المصرى .

يعاب عليهم . ولعل السبب في ذلك ما كانت عليه وظيفة المدرس في مدارس الحكومة من ضعف في المرتبات وكثرت تناسوا أن المدرس هو منشيء الجيل ولذا كان تعليمهم تنقصه الناحية الروحية ومعرفة الدين الصحيح ، ولعل هذا هو ما يعلل نكبتنا الطائفية الحالية .

ولكن الإقباط وإن عزلوا عن ميدان التدريس فقد إقبلوا على ميدان آخر من ميادين القيادة وهو ميدان الجرائد فقد أنشأوا جريدتين هما الوطن لإنشئها ميخائيل عبد السيد التي ظهرت في أواخر عهد إسماعيل كما بر بنا ، ثم جريدة مصر لمنشئها تادرس بك شنودة الإنقيادي وقد ظهرت عام ١٨٩٥ . ولم تكن إحداها طائفية بل كانت شاملة وكانت إنشاء الطائفة إحدى نواحي نشاطها . كما أنشأوا مجلات عدة مثل المفتاح ورمسيس وصهيون والأولى والثانية مجلتان جامعتان شهيرتان . كانت كل منهما فيما يقرب من ١٦٠ صفحة من الحجم المتوسط بينما كانت الثالثة قاصرة على بحث الأمور الدينية .

وشئ آخر أهتم الإقباط بإنشائه ولم يكن غرضهم فيه ربحا ماديا بل كان ولا يزال مصدر الهام بالقومية المصرية الحية على توالى العصور . ذلك هو المتحف القبطي فقد دأب مرقس سمكة على جمع المخطوطات القبطية منذ عام ١٩٠٠ وأمرد لحفظها حجرة بجوار الكنيسة المعلقة بمصر القديمة وما يزال يدأب على هذه المهمة الجليلة وهو يصرف عليها من ماله الخاص حتى استطاع أن يجعل نه بناء مستقلا ومازال هذا المتحف ينمو ويكبر حتى ضمته الدولة الى مؤسساتها القومية في سنة ١٩٣١ بعد أن عرفت أهميته كممثل هام لجزء من تاريخ الحضارة المصرية . ونقلت اليه ما كان بالمتحف المصرى من مجموعات قبطية نفيسة . وبه الآن — علاوة على قسم المعروضات — مكتبة ثمينة حوت أكثر من ٤٥٠٠ مجلد بين مطبوع ومخطوط كلها في التاريخ القبطي (١) .

ولقد عرفت الإقباط في هذا العصر سبب نكبتهم الماضية الا وهو ضعف القادة وعدم وجود الكليروس القوي الذى يرعى شعبه حق الرعاية ولذا

(١) الدليل العام للأقباط ص ٨٩ .

اتجهوا في هذا الوقت الى خلق الراعى الصالح الذى يرعى خرافه الضالة .
ولذا كان انشاء المدرسة الاكليريكية عام ١٨٩٣ مظهرا من مظاهر النهضة
القطبية الشاملة . ولعل اكبر ما حفزهم على ذلك ما راوه من نشاط
الاساليات الانجلىكانية

وان مدرسة الاسكندرية القديمة التى اُسست فى القرن الاول
الميلادى التى اخرجت جهاذة العلماء المسيحيين والتى طار صيتها فى انحاء
العالم المسيحى هى صاحبة الفضل الاول فى محاربة البدع والضلالات
والقضاء على الآراء الفاسدة التى تخالف التعاليم المسيحية القديمة (١) بل
هى صاحبة الفضل الاول فى المحافظة على روح القومية المصرية من ان
تبتصها القومية الرومانية . فقد لقيت المسيحية فى الاسكندرية مصاعب لم
تلق مثلها فى غيرها من البلاد بسبب ازدحامها بالعلماء الوثنيين الذين تنقفوا
فى مدرسة الاسكندرية ثقافات الاغريق الواسعة العميقة والذين ظلوا
يجادلون النظريات المسيحية مجادلات مبنية على الفلسفة فعرف المسيحيون
حينئذ ان لا سبيل لهم الى مجادلة الفلسفة الا بمثلها . فانشئت مدرسة
الاسكندرية الاكليريكية ونجحت هذه المدرسة فى تخريج طائفة من الفلاسفة
المسيحيين الذين وقفوا امام الوثنيين وتمكنوا اخيرا من الانتصار عليهم . وفى
عهد اكليمنديس الاسكندري وأوريغانوس بلغت هذه المدرسة اسماى درجات
التفوق (٢) وناقت مدرسة أنطاكية . واذا كانت المدرسة قد لقيت الاضطهاد
أيام دقلديانوس كما لقبه جميع المسيحيين الا انها عادت بعده الى رونقها
الاول وتخرج فيها كثيرون من أبطال المسيحية الذين قامت على اكتافهم كنيسة
الاسكندرية القوية من امثال البطارقة بطرس ، واثناسيوس ، وكيرلس الكبير
وغريغوريوس ، ثم يوليوس المؤرخ واليسيميوس صاحب القانونى
اليونانى ، والقديس مكاريوس الملقب بالشاب ، ونيديموس الملقب بالضرب .
ولعل نجاح اثناسيوس فى مجمع نيقية ثم كيرلس فى مجمع خلقدونية ليمثلان

(١) المدرسة الاكليريكية ص ٤٢ — ٤٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٣١ .

نحاح يمثل هذه المدرسة خير تمثيل .

وقد افتتحت المدرسة الاكيريكية الجديدة في سنة ١٨٩٣ واختير لها
اولا اثنا عشر طالبا علمانيا واثنى عشر قسا وأسندت رئاستها الى يوسف
منقريوس .

ولقد كانت الكنيسة في خلال هذه الفترة تعاني أزمة مالية عنيفة من
جاء زيادة المصروفات على الإيرادات حتى لقد كانت مرتبات الموظفين تتأخر
أكثر من ستة شهور الا ان حماسة الاقباط ووعيهم دفعا بهم الى التبرع
للمدرسة بمبالغ لم تكن تخطر على بال أحد حتى لقد تمكن ناظرها من ان يجمع
من مدينة أسيوط وحدها أكثر من ألف جنيه في يوم واحد وبلغت جملة
التبرعات مبلغا مكن ادارة المدرسة من ان تبتاع لها بناء خاصا علاوة على ٣٦٥
فداناً بمبلغ ٢٢٨٠٠ ج أوقف ريعها على الصرف على هذه المدرسة والمدرسة
الصناعية التي انشئت في بولاق (١) .

ورغم ما قاسته هذه المدرسة من أزمات في أوقات متفاوتة الا انها
ما كانت تكبو الا لتنهض (٢) فلم تكن مواد هذه المدرسة قاصرة على المواد
الدينية بل وجدت ان رسالتها الدينية لا تعفيها من تدريس المواد المدنية كي
لا يخرج طلبتها بعيدين عن الوسط الذي يعيشون فيه فدرست فيها مواد
التاريخ والجغرافيا والرياضة والمنطق وعلم النفس والتربية الى جانب
اللغات العربية والانجليزية والقبطية والعبرية . وقد أدت هذه المدرسة
رسالتها في تخريج عدد كبير من الرعاة الصالحين وفي تأليف عدد وافر من
المؤلفات الدينية والرسائل القيمة والبحوث العميقة كما أنها هي التي أخذت
على عاتقها النهوض باللغة القبطية ونفخت فيها من روحها وعملت على
نشرها بين الافراد والأسر كما ان خدمتها لم تقتصر على الاقباط بقدر ما كانت
شاملة لأبناء الأمة جميعا من حث على عمل الخير ونهى عن الشر

(١) المدرسة الاكيريكية ص ٢٥٠ و ٢٥١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٠ و ١٥١ .

والفساد (١) .

وما يؤسف له ان هذه النهضة الشاملة لم تمتد الى الرهبان في اديرتهم . فقد نقص عدد الرهبان من ١٠٠٣ في سنة ١٨٧٠ الى ١٨٩ في سنة ١٩١٠ (٢) بل من المؤسف حقا ان يكون بعضهم ممن سددت في وجوههم ابواب العمل بل من طريدى العدالة اذ لم يهتم أحد بتفقدتهم وتعليمهم . ولذا كان بعض المطارنة والاساقفة — وهم ينتخبون دائما من بين الرهبان — على درجة من الثقافة اقل مما يتطلبه منصبهم وقد عمل مركب النقص عمله فيهم فاتجهوا الى ان يختاروا القسس ممن يقلون عنهم ثقافة ويزيدون عنهم جهلا وتناسوا جريحي الكلية الاكليريكية رغم صدور المنشورات البطيريكية المتكررة التى يلفت فيها البطيريك نظر المطارنة الى ضرورة رسم القسس ممن إتوا الدراسة بالمدرسة الاكليريكية وحصلوا على اجازتها النهائية (٣) .

كما اتجهوا الى قبول السيمونية وبيع المناصب الدينية الامر الذى دعا المفكرين الى وجوب الانتباه الى هذه الناحية ولكن انتباههم لم يأت إلا متأخرا .

ومن الطبعي ان هذه الحالة السيئة لم تمنع من ان يكون بينهم من تثقف ثقافة دينية رفيعة وعرف ما لهذا المنصب من كرامة فحافظ عليه وقام بواجبه خير قيام ولم ينس الاقباط ان يتجهوا في جهادهم اتجاها اجتماعيا يربى في افراد الأمة روح التعاون الاقتصادى . ولعلنا لا ننكر ان هذا التعاون الاقتصادى كان ولا يزال السمار الاول في نعش الاحتلال البريطانى الذى سعى منذ بدايته الى تحطيم المصرى وجعله مستندا على الاقتصاد الاجنبى .

فسعى تادرس بك شنودة المتقاعد فى سنة ١٨٠٩ الى تأسيس صناديق توفير اهلية فى اسبوط وسوهاج وجرجا وقنا والمنيا والفيوم والعاصمة ولم يكن سكان هذه البلاد اقباطا فقط كما لم ترفض هذه الصناديق ودائع غير

-
- (١) الاقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ١٢٤ .
 - (٢) الاقباط فى القرن العشرين ج ٥ .
 - (٣) المدرسة الاكليريكية .

الاقباط (١) ونجحت هذه الصناديق في بث ثقة المصريين في انفسهم وظلت هذه الصناديق تبأثر عملها حتى انشئت مصلحة البريد نظام التوفير فضمت هذه الصناديق اليها وجعلتها ملحقة بها والفت قبيل ذلك الشركة التجارية القبطية في سنة ١٨٨٤ برأس مال قدره الف جنيه موزعة على الف سهم وجعلت مجال نشاطها الاعمال المنزلية ، فكان تخفيض ثمن السهم الى جنيه واحد داعيا الى اشتراك كثير من الفقراء ودوى الدخل المحدود في عمل اجماعى نضالهم الغرض منه تخفيف اعباء الحياة عن عاتق الطبقة المكودة دون ان ينتظروا من ذلك ربحا فقد خصص ربح هذه الشركة للأعمال الخيرية وتبكت الجمعية في النهاية بما تجمع لديها من ارباح ان تشتري اطينا اوقفها على مدرسة ثانوية في اسيوط . وكان نجاح هذه الشركة داعيا الى شركات اخرى تماثلها في كل من سوهاج وجرجا وأخميم في سنة ١٨٨٦ .

وما زالت سياسة الأمة في وقتنا الحاضر بل سياسة الحكومات الوطنية المتعاقبة تتجه نحو تشجيع الاقتصاد الوطنى وحث دوى الدخل المحدود على التعاون من أجل تخفيف اعباء الحياة عنهم وما هذه الشركات الخيرية المساهمة التى تقوم بالأعمال الكبيرة في الوقت الحاضر وأشارك كثيرين من دوى الدخل الضعيف فيها واقبالهم على حضور جلسات جمعياتها الغنومية ومناقشة أعضاء مجالس ادارتها ألا تطورا طبقيًا لما قام به الاقباط في العشرين سنة الأخيرة من القرن الماضى فكان عمل الاقباط في ذلك انما هو اللبنة الاولى في بناء الاقتصادى المصرى القائم على تعاون جهود الطبقة الشعبية العاملة الكادحة .

وفي سنة ١٨٩٨ استعيد السودان وأبى الانجليز إلا أن ينفردوا بالامر فيه ولكن الاقباط موتوا عليهم غرضهم . فلم تمض سنتان على الاستعادة حتى كان الاقباط قد اخلتوا رفعة كبيرة شغالى اثم دربان القدينة وابتنوا فيها مساكنهم فحملت اسمهم التقليدى (خارة النصارى) (٢) .

(١) الاقباط في القرن العشرين ج ٥ .

Baedeker's , Egypt p - 388

(٢)

يزعم بعض قصار النظر أن البريطانيين لم يسخروا للاقباط بدخول السودان الا ليكونوا لهم انصارًا ولكن هذا كلام العاجزين وانها نسوا ما قام به الاقباط من نشاط علمى واقتصادى كان أبعد ما يكون عن رغبة البريطانيين .

فاذا افتخر الانجليز بأنهم هم الذين عملوا على تمدين السودانين فنشروا المدنية بين ربوع هذا القطر كذبهم الاقباط في دعواهم فقد أسرعوا هم اليه وانبثوا في بلاده المختلفة يعملون في مختلف نواحي النشاط فشغلوا جزءا كبيرا من وظائفه . وقبل أن يجاذف البريطانيون بقرش واحد من أموالهم في هذا الجزء المجهول بادر الاقباط بطرح أموالهم في السوق والاشتغال بالتجارة فيه ولم يمض على وجودهم هناك أربع عشرة سنة حتى بلغ عددهم مبلغا اذ كانت لهم ست كنائس منها اثنتان أنشئت في سنة ١٩٠٠ وهما كنيسة أم درمان ووادى حلما ، ثم أنشئت واحدة أخرى في سنة ١٩٠٥ هي كنيسة الخرطوم وواحدة في سنة ١٩١٠ في الدامر واثنتان في سنة ١٩١٣ هما الخرطوم بحري والأبيض . وكانت تكاليفها جميعا من تبرعات الاقباط الذين استقروا هناك (١) فاذا ما ارتفعت قيمة التجارة السودانية في سنة ١٩١٤ الى مليون وثمانمائة الف جنيه كان الاقباط من ورائها يدفعونها بالجهد والعرق والدم .

واذا ما أراد الانجليز أن ينشئوا كنيسة لهم لم يتمكنوا من ذلك الا في سنة ١٩١٢ وكانوا شعروا أنهم لا يستطيعون أن يعملوا الا اذا تفرغوا الى الاقباط وطلبوا الحماية منهم فدعوا نيافة البطريرك الى حضور حفل تدشينها فاعتذر . وفي هذا الحفل القى مطران لندن خطبة قال فيها انه يعترف لقبطة البطريرك برؤاسته لأقدم أمة وانه يعتبر الكنيسة القبطية الشقيقة الكبرى للكنيسة الانجليزية (٢) واذا ما حضر الى القاهرة بادر بمقابلة البطريرك وقال له « أملنا أن تعمل الكنيسة كتنا لكتف فتنهض كل منهما من عزيمة الأخرى على القيام بخير الأعمال » فكان الانجليز هم الذين طلبوا حماية الاقباط لهم ولم يكن الاقباط هم الذين عملوا في ظل الاحتلال البريطاني كما يزعم البعض .

اما قصة نشر الحضارة الحديثة في السودان والارتفاع بمستوى سكانه من الحياة البدائية الاولى الى حياة المدينة فليست في احتياج الى جهد كبير لاثبات فضل المصريين في ذلك ؟ فمن القادر على أن يأخذ بيد السوداني في

(١) السودان في التاريخ القديم ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) الاقباط في القرن العشرين ج ٥ ص ١٤ .

هذا السبيل ؟! أهو الموظف البريطاني الذي عاش يتردد الى مكتبه صباحا والى بيته الانيق المزود بطبيب التنس وحمام السباحة ظهرا واخيرا الى ناديه الذي لا يستطيع السوداني اقتحامه الا اذا كان يعمل خادما فيه ؟ وفي كل هذه الحالات لا يعيش معيشة اوروبية فحسب ، بل اوروبية رفيعة لا يستطيع السوداني أن يرقى الى مجرد التفكير فيها . أم هذا القبطى الذي يعيش فى أم درمان وأخيرا يستقبل السودانيين فى منزله ويستقبله السودانيون فى منازلهم .

لا جدال فى أن الاقباط وحدهم هم الذين قادوا المجتمع السودانى نحو الحضارة الاوروبية وليس انصاف الالهة من الاوروبيين . ولم يكن هذا التأثير قاصرا على الموظفين بل شاركهم فيه هؤلاء التجار واساط الناس من المصريين الذين عاشوا فى مدن السودان . واختلطوا بالسودانيين . وكان اقبال المصريين على سكنى الخرطوم وابتناؤهم البيوت والكنائس والنوادى هو الذى رفع ثمن الارض من مليمين للمتر المربع الى جنيهين فى مدى الخمس سنوات الاولى من الاستعادة .

وقد أخذت الادارة الجديدة فى تنفيذ جملة من المشروعات كان منها الاهتمام بفتح المدارس فلم تجد من يعمل مدرسا الا هذا القبطى الذى أخذ على عاتقه قيادة الجيل الجديد من السودانيين لا الى الحضارة بل الى الافكار والاهداف التى بنى عليها السودان الحديث .

ولم يقتصر نشاط الاقباط فى هذه الحقيقة على السودان فحسب ، بل كانت صفحاتهم فى اتيوبيا انقى واثمن . فقد ارتقى الامبراطور منليك العرش الاتيوبى فى سنة ١٨٩٠ بعد قرن من الفوضى (١) لم تنقطع خلاله العلاقات الروحية العتيقة التى ربطت بين الكنيستين المصرية والاتيوبية (٢) فعول على أن يدخل بلاده ضمن نطاق الحضارة الاوروبية وأولى خطواتها خلق الجهاز الادارى الحديث الذى يقسم الأعمال الحكومية فى وزارات يشرف على كل

منهم وزير مختص يرأسهم الوزراء وجميع هؤلاء الوزراء مسؤولون عن أعمالهم أمامه ، فكان منها وزارة التعليم وعين مصري هو الاستاذ حنا صليب سكرتيراً عاماً لها فعول على ادخال التعليم الحديث الى اثيوبيا فانشأ مدرسة منليك الثانية مقسمة الى ثلاثة اقسام قسم انجليزي وآخر فرنسي وثالث ايطالى . وارسل الى البطريركية في القاهرة يطلب اختيار اساتذة لهذه الاقسام . فاشرك البطريرك معه في اختيار الاساتذة لجنة المدارس والتعليم بالمجلس المالى وكذلك تادرس بك شتودة المنقبادى (١) وأخيراً اختير ستة من الاساتذة المصريين سافروا الى هناك فى سنة ١٩٠٧ عن طريق البحر الأحمر حتى وصلوا الى شرع جيبوتى الفرنسى حيث أخذوا القطار الى ديدوا ثم اكبلوا رحلتهم على ظهور البغال الى اديس ابابا. وهناك بدأوا عملهم واستمروا فيه فخرج على أيديهم كثيرون من الشباب الذين سرعان ما تبوأوا مراكز الدولة وحين سافرت الى اثيوبيا سنة ١٩٣٤ كان وزير التعليم آنذاك هو بلاتن جينا سهلا سيدالو الذى منحه يقر بأنه كان تلميذاً لهؤلاء الاساتذة المصريين . والى هذا الوزير يعزى فضل انشاء المسرح الاول فى اثيوبيا . وظلت البطريركية ثم وزارة المعارف المصرية توالى ان ارسال الاساتذة المصريين لهذه المدرسة حتى قضى الاحتلال الايطالى على استقلال اثيوبيا عام ١٩٣٦ ، اى قرابة تسع وعشرين سنة متوالية فكان معظم هؤلاء الاساتذة حتى سنة ١٩٢٧ من خريجي انكليزية . أما العشرة سنين الأخيرة فقد تولت وزارة (المعارف) انتقاها من خريجي مدارس المعلمين والجامعة . فكان الاقباط بذلك اول من نشر الثقافة المصرية خارج الحدود المصرية منذ بداية القرن العشرين . وان كان ذلك بلغة اجنبية . قبل ان تعرف الحكومة المصرية نظام انتداب المدرسين الى الاقطار الشقيقة بربع قرن .

وقد ظل هذا الرغيل الاول من المدرسين يقوم بواجبه حتى مات منهم من مات وآثر الباقون الاستقالة للاشتغال بالأعمال الحرة فعمل أحدهم وهو الأستاذ نصر عوض فى تجارة البن حتى أصبح من أكبر تجارته الى ان مات فى سنة ١٩٣٩ وقد اقبل هذا التاجر اثناء اقامته الطويلة على دراسة اللغة الامهرية

(١) الانباط فى القرن العشرين ج ٣ ص ٥٥ .

حتى بز فيها أهلها واستطاع ان يقرض فيها الشعر الجيد الرصين الذي
بادرت الجرائد الامهرية بنشره له وفي مقدمتها جريدة برهاننا سلام « النور
والسلام » وظل اخذ هؤلاء المدرسين يعيش في اديس ابابا بعد ان اعتزل
التدريس واصبح وكيلًا للرأس كاسا الى ان مات منذ عامين .

ولنعود الى مصر . فقد قام فيها مصطفى كامل يدعسو الى جلاء
البريطانيين عنها وكان الرجل وطنيا في دعوته وان لم يكن وطنيا كمالا . ففى
الوقت الذى دعا فيه الى جلاء البريطانيين عن مصر وندد بهم وبأعمالهم ونعى
على المخزيين ثأؤنهم واستسلامهم وتسليمهم للبريطانيين لم يذكر الاثراك
يسوء . فمستند أمن بالولاء التام للسلطان . ودعا الى الخضوع له كما آمن
بالجامعة الاسلامية ديننا وسياسيا .

ولم يستطع الاقباط ان يهضبوا هذه الدعوة . فهم وان آمنوا بعدم
شرعية الاحتلال وعملوا جهدهم على مقاومته بطريقتهم الخاصة من حيث
تعليم الشعب ونشر الوعي القومي بين الناس الا انهم لا يستطيعون مطلقا ان
يؤيدوا دعوة تدعوهم الى ان يستبدلوا بالسيد البريطانى سيذا آخر هو السيد
العثمانى الذى قاسوا من حكمه ما قاسوا وكادت القومية المصرية تحتحكمهم
الفاسد ان تصبح فى خبر كان . خصوصا وقد كان الحكم العثمانى فى ذلك
الوقت افسد من الفساد . فقد كان على رأسها السلطان عبد الحميد الثانى
ينشر فيها حكمه الملتطخ بالدم .

لم يستطع الاقباط ان يؤمنوا بـ مصطفى كامل وهم يرون أحرار تركيا
يعانون الاضطهاد والنفى ويذرعون أجزاء أوروبا طولا وعرضا هربا من هذا
الطاغية الذى كان يتعقبهم ليقتلهم عليهم بينما كان مصطفى كامل يسافر سنويا
الى استنبول ليلقى كل احترام وترحيب كما كان موضع عطف من السلطان
ورجاله المجرمين حتى لقد منحه رتبة الميرمان التى تبيح له ان يلقب (بالباشا) .

لم يستطع الاقباط ان يهضبوا دعوة تفضح الأيراني والامبغاني والتونسي
الى جانب المصرى المسلم على قدم المساواة ثم تفضح القبطى المصرى فى
مرتبة اقل منهم فالقومية المصرية كما يفهمها الاقباط هى ان خيرات مصر حلال
للمصريين وان اختلفت دياناتهم جرام على غيرهم . وان حبههم لغير وقتانيهم فى

سبيلها وموتهم من أجلها انما ينصب على هذه الرقعة من الارض الى تحدها الحدود السياسية المعروفة . وقد تضيق هذه الحدود تحت حكم ظروف خارجة عن ارادتهم كما كان الحال بين ١٨٨٥ — ١٨٩٩ . أو تتسع كما كان الحال في النصف الأول من القرن التاسع عشر الا انها تحمل اسم مصر . ولذا وقف الاقباط من حركة مصطفى كامل وقفة التردد غير المؤمن بها فلم ينضم الى الحزب الوطنى الا قبطى واحد هو الاسناذ ويسا واصف فاطلقوا عليه اسم يهودا (١) .

ولم يكن الاقباط في موقفهم هذا نسيج وحدهم فقد شاركهم هذا الراى اغلبيّة الامة اذ لم تستطع جريدة اللواء أن تعيش الا عن طريق المساعدة التى كان مصطفى كامل يتلقاها من السلطان (٢) والخديوى . ويوم انقطع عنه هذا المورد الأول بعزل السلطان والمورد الثانى باعراض الخديوى عن الحزب الوطنى قبيل وفاة رئيسه بقليل اخذت الخسارة تكتنفها واخذ محمد بك فريد يسدّد هذه الخسارة من ماله الخاص . وقد الف بعض هؤلاء المعارضين وعلى رأسهم احمد لطفى السيد حزب الامة الذى جعل ينادى بمصر المستقلة البعيدة عن اى نفوذ اجنبى سواء كان بريطانيا و عثمانيا . ولم يكن أفق أعضاء الحزب الوطنى ليتسع لمثل هذه النظرة القومية الصحيحة ولذا رمى هذا الفريق الأخير بالخيانة .

وقد برهن الاقباط بموقفهم هذا من حركة مصطفى كامل على وطنيّة عريضة وقومية صحيحة مأثورة عنهم طوال تاريخهم . فان الاقباط بعد أن رأوا تخلى فرنسا عنهم في سنة ١٨٠١ أيام المعلم يعقوب وكذلك تخليها عنهم عام ١٨٤١ أيام محمد على وتخليها عنهم في سنة ١٨٦٧ في حادثة فاشيودة حين أرادت أن تقف في وجه التقدم البريطانى في أفريقيا (٣) ثم تخليها عنهم في سنة

(١) لم يلبث الرجل أن استقال عندما أصبح الشيخ عبد العزيز جاويز رئيسا لتحرير جريدة اللواء ونشر مقالته « الاسلام غريب في بلاده » التى شبه فيها الاقباط بزنج الكونغو (أغسطس ١٩٠٨) .

(٢) آخر سبابة عدد ١١٩٧ في ٢ اكتوبر سنة ١٩٥٧ مقال لعباس مدهود العقاد .

(٣) مصطفى كامل لفتى رضوان ص ٦٨ .

١٩٠٤ لم يعودوا يؤمنون بدول أجنبية يعتمدون عليها بل أصبح إيمانهم الوحيد ان القومية المصرية يجب أن تنبع من مصر وحدها وأن تعتمد على أذرع المصريين وحدهم . أما غير ذلك فعبيث في عبيث .

وقد حاول من تصددوا للدفاع عن مصطفى كامل أن يذكروا أنه كان لا يبغي غير الاستقلال التام وأنه لم يتخذ من تركيا غير تكأة يتكأ عليها تعاونه على هذا الاستقلال . وهذا كلام من السهل أن يقال . ولكن هل كانت تركيا هي الدولة التي تسدى الجميل دون أن تأخذ له ثمنًا . إذ لم يكد مصطفى كامل يبدأ دعوته حتى هرع الى استنبول ونجح في أن يقابل السلطان . الذي دعاه الى صلاة الجمعة في الجامع الاحمدى وتقابل معه وفي أثناء هذه الزيارة أهدى اليه هدية من الذهب والماس ومن الطبيعي أن هذه الهدية لم تكن الا نتيجة تفاهم تام بينهما .

وإذا كان مصطفى كامل قد تنصل في خطبته من تهمة اخلاص مصر لتركيا فقد كان صادقا في ذلك فهو بإيمانه بالجامعة الإسلامية دينيا وسياسيا لا يجد تعارضا مطلقا في تبعية مصر للدولة العلية وكونها مستقلة استقلالا تاما . فهو في حديثه مع الأمير الای بازنج شفيق اللوزد كروم من سألته الآخر عن جنسيته فأجاب (مصرى عثمانى) وحين تعجب الآخر لذلك وسأله (هل تجتمع الجنسيتان) فأجاب مصطفى « ليس في الامر جنسيتان بل هي في الحقيقة جنسية واحدة . لان مصر بلد تابع للدولة العلية والتابع لا يختلف عن المتبوع (١) .

وقد كتب مصطفى كامل كتابا عن المسألة الشرقية وتطورها وصفت فيه علاقة تركيا بالدول الأجنبية خلال القرن التاسع عشر وما كانت عليه من الضعف وتكالب الدول الأجنبية وخصوصا إنجلترا على اكتساب المنافع منها فلا يكاد يكتب كلمة سوء واحدة عن تركيا ولا يصورها إلا ضحية مسكينة لأطماع الدول الا شغبية القاسية . بل تمنى لتركيا الاحتفاظ بمصر حين كتب يقول « حسب الانجليز أنهم يبلغون متمناهم من مصر وراء النيل ويضعون بذلك

(١) مذكراتي في نصف قرن لاحمد شفيق باشا ، والحياة الحزبية في مصر في عهد الاحتلال ص ١٨ .

أيهم على الحجر الاساسى للخلافة الاسلامية . والسلطة العثمانية ولكن
مما لا ريب فيه هو أن نصيبهم في مصر الفشل عاجلاً أو آجلاً .

بل اندفع مصطفى كامل في تأييد السلطان عبد الحميد في أعماله
الاستبدادية فوصم الوطنيين الاتراك الذين كانوا يعارضون سلطة السلطان
المطلقة ويطالبون بالدستور أنهم سابعون في الاحلام . بل وصل الى حد
تهديد المصريين أعضاء حزب الأمة الذين يطالبون بأن تكون مصر للمصريين
بمحاكمتهم طبقاً للقانون لان السيادة العثمانية مقررة فيه (١) ولا أستطيع أن
أقول ان مصطفى كامل لم يؤد الى مضر خدمة بل كان الرجل وطنياً ولكن
من طراز خاص آمن بحقيقة واحدة وهى وجوب أن تكون مصر جزءاً من تركيا
مسمى الها . هذا الى أنه نجح في التشهير بالحكم البريطانى في مصر والعالم
الخارجى . وبذل في ذلك جهداً مشكوراً كما سعى الى نشر العلوم والمعارف
بين المصريين بالمشاركة في فتح المدارس على اساس من الدين القسوم
السليم من أجل تنبيه الراى العام بنشر الكتب وانشاء الصحف وفهم الوسيلة
الفعلية لبث الروح الوطنية واتجناد حب السؤدد والرغبة ومسابقة الأمم
الراقية وجعل الاستقلال رائدها (٢) .

وخلف محمد فريد مصطفى كامل في زعامة الحزب الوطنى فلم تختلف
سياسته عن سياسة سلفه في أول الامر بل صرح في خطبته تأييد مصطفى
كامل (أن أحسن تأييد لفقيدتنا المرحوم هو أن نسير في نفس الطريق الذي
رسمه ومهده لنا) ولكنه اختلف عنه في المبادرة بطلب الدستور وصرح بذلك
للمستتر كتل العضو بـ مجلس العموم في حديث له حين لخص له مطالب
مصر في .

أولاً : الجلاء عن مصر .

ثانياً : انشاء مجلس نواب .

ثالثاً : تأسيس حكومة اهلية محضه . ولم يشر الى تركيا يكر أو

(١) مجلة آخر ساعة عدد ١١٩٣ في ١٩٥٧/٩/٤ مقال لغياس محمود
العقباد .

(٢) اللواء سنة ١٩٠٧ .

سوء . وإذا ما بدأ إلهاد الإيجابي بادر بالسفر الى استنبول كما كان يفعل سلفه فوصلهم في أبريل سنة ١٩٠٩ وكان جل عمله هناك تقوية روابط الود بين مصر وتركيا (١) ولتعريف إحرار تركيا بمقاصد الحركة الوطنية واجتياح مساعي إنجلترا في حبل تركيا على الاعتراف بمركز الاحتلال في مصر (٢) . وكان من شأن هذه الدعاية (الناجحة) ان اكثرت الصحف التركية من شأن مصر وامجبت بجهادها ضد الاحتلال ومجدت الحركة الوطنية .

ولا اظن احدا مهما بلغ به حسن الظن بهذا السعى يظن ان تهجيد الصحف التركية لإلهاد هذا البطل واعجابها بالحركة الوطنية معناه خروج مصر من التبعية العثمانية ، بل اذا سائرنا المدافعين عن الحزب الوطنى فى حسن ظنهم به لوجدنا ان أقصى آماني إحرار تركيا هو أن تكون تركيا ومصر دولة ثنائية شبيهة بنظام الإنمسا والمجر (٣) ما كان أحد من الإتيان يطبع في ذلك مطلقا .

وليس أدل على ولاء محمد فريد لتركيا من انه جند نشاطه من أجل تأليف كتاب في تاريخ تركيا (تاريخ الدولة العلية) بل انه دعا في صيف سنة ١٩١١ الى التطوع في صفوف الأتراك لنصرتهم ونصرة الطرابلسيين في حربهم ضد إيطاليا . ولم ينس بعد هذه الدعوة المرور على استنبول ليتلقى ثمن هذه الدعوة من صحافتها ومن دوائرها السياسية كل حفاوة واجلال . وعندما دخلت تركيا الحرب في صف ألمانيا سافر محمد فريد الى ألمانيا وركز دمايته على نصرة تركيا وألمانيا ضد إنجلترا . وإذا كان محمد فريد قد تخلى بعد ذلك عن مبدأ نصرة تركيا ومناداته بمبدأ « مصر للمصريين » فليس له في ذلك فضل . انما هو فضل الأتراك بعد ان اظهروا له وللعالَم أجمع سياسة (الاتحاد والترقى) من احرارهم على احياء الجامعة الطورانية التي تنادي باستيعلاء العنصر التركي على غيره من العناصر التي تكون الامبراطورية العثمانية واحتقارهم للعرب .

وظهرت هذه السياسة صريحة حين ابغاه الأمير سعيد حليم في نوفمبر

(١) الشهيد محمد فريد ص ١٣٠ . (٢) المرجع السابق ص ٨٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦ .

١٩١٤ نقمة الباب العالي منه ومن الحزب العيسى قولهم دائما « مصر
لمصريين وعندما تبين الرجل أن هذه الأفكار لسبت أفكار الامير نسعيد
حليم ، بل شاركه فيها معظم زعماء الترك وبخاصة طلعت وجمال فلم
يرضوا أن يقيدوا أنفسهم بأى عهد لمصر خلال الحرب بل ظهرت هذه
السياسة منهم بطريقة عملية حين عين جمال باشا واليا على الشام فى بداية
الحرب العالمية الاولى فنصب المشانق فى ميادين دمشق وبيروت لزعماء
الشام المطالبين بالاستقلال .

واذا كان الاقباط قد وقفوا من الحزب الوطنى هذا الموقف فانهم لم
يترددوا عن مؤازرته حين راوا مطالبه معقولة تحقق آمالهم فى الحكم القومى
الضحيح وذلك حينما طلب من الخديوى اصدار الدستور فاقبلت الامة على
تفضيده عن طيب خاطر اقبالا جماعيا واخذت فى توقيع العرائض التى طبعها
لذلك حتى اكتمل لديه الفوج الاول وعليها خمسة واربعون الف توقيع
فرفعها الى الخديوى فى ٢٩ ابريل سنة ١٩٠٨ (١) . الى جانب الحزب
الوطنى وان عارضه فى الاتجاه قام حزب الامة باعلان مفاجىء لحسن
عبد الرازق باشا فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧ . وكان معنى هذه الخطوة
ان تلاميذ الشيخ محمد عبده لم يكتفوا بالعداء لأفكار مصطفى كامل بل عزموا
على تكوين حزب سياسى يساند (الجريدة) فى ابداء وجهة نظرهم ورأس
هذا الحزب محمود سليمان باشا احد اعيان الصعيد البارزين وجعل أحمد
لطفى السيد محرر (الجريدة) سكرتيرا عاما له .

وكان الحزب فى الواقع يضم أغلبية رؤساء العائلات . وعلى اثر اعلان
قيامه انضم اليه عدد من المحامين والاعيان ورأى الاقباط فى هذا الحزب
ما يعارض الاتجاه الدينى الذى بدا واضحا فى خطاب مصطفى كامل لا سيما وقد
نادى هذا الحزب بأنه الممثل (للامة المصرية) فانضم اليه أربعة عشر قبطيا
جعل اقدمهم ضمن اللجنة الادارية .

وانحصرت مبادئ هذا الحزب الجديد فى أول الأمر فى محاولة الاشتراك
مع الحكومة فى وضع القوانين والمشروعات العمامة بالسفلى فى توسيع

(١) قبل اعلان تأليف الحزب الوطنى بشهر تقريبا .

اختصاص مجالس المديريات. ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ،
ثم النهوض بالتعليم والعمل على تقدم الزراعة والصناعة والتجارة . وكان
الاقتصار على هذه (الوسائل) يعنى ارجاء الهدف وهو المستقبل السياسى
للبلاد من هنا ظهر عداء رجال الحزب الوطنى له كمتعاضين مع سلطات
الاحتلال التى كان يمثلها آنذاك سير الدون جورست (١) .
والى جانب هذين الحزبين الرئيسيين كانت هناك اجزاب اقل شأننا
وهى :

١ - الحزب الوطنى الحر او حزب الاحرار رأسه محمد وحيد الذى
اتهم جماعة الحزب الوطنى بأنهم جرثومة التعصب والفتن ويرى مسألة
المحتلين والسعى فى نيل ثقتهم والسعى الى الشعب بنشر التعليم الابتدائى
ثم السعى الى الحكم النيابى .

٢ - الحزب الدستورى ورأسه ادريس راعب ويدعو الى الولاء
للسلطة الشرعية والبريطانية والخديوية ثم الى طئب الدستور على أن يكون
للأمرى صوت وللمتعلم خمسة أصوات .

٣ - حزب النبلاء ورأسه حسن حلمى زادة ويدعو الى الدفاع من
الخديوى والى عودة السيادة للعناصر التركية والشركسية .

٤ - الحزب المصرى ورأسه اخنوخ فانوس بعد أن اثارى مبادئ الحزب
الوطنى مخاوف الاقلية القبطية التى كانت تضيق بالدعوة العثمانية ويلج فى
اصدار الدستور بعد ازالة التفرقة بين المسلمين والمسيحيين فى الحقوق
والمصالح . وكان يشجع الانباط على طلب العلم الذى يراه خطوة أساسية
فى التقدم وبلغ الأمر برئيسه أن أرسل فى سنة ١٩٠٨ عشرة من الشبان الى
الخارج فى بعثة علمية على نفقته .

٥ - حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ورأسه الشيخ على يوسف

(١) الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال ص ٥٠ - ٥٥ .

ودعيا إلى تدعيم السلطة الخديوية ومطالبة إنجلترا بإعتبارها السلطة الحقيقية بتحقيق وعودها وكان الخديوى يؤيده لا لأنه يؤمن بالدستور بل لأنه كان يراه مساندا له ضد سلطة الاحتلال كما فعل جده إسماعيل .

٦ - الحزب الجمهورى ورأسه محمد فائز ويدعو الى استقلال الجمهورية واتخذ من شعار الجمهورية الفرنسية (حرية - أخاء - مساواة) شعارا له وذلك يعد نيل الدستور والاستقلال التام الذى فسره بأنه استقلال ادارى فكان ان اتهم بالخيانة (١) .

ولم يخل الامر من رجال كانوا يعملون بعيدين عن هذه الاحزاب بمنا يرونه من الوسائل لمصلحة بلادهم . ويعيدون أيضا عن صحت الدعاية الكاذبة وليست لهم جرائد تعبر عن وجهة نظرهم ومن هؤلاء بطرس غالى باشا الذى شغل منصب وزير الخارجية فى وزارة مصطفى فهمى باشا ثم أصبح رئيسا للوزراء الى ان اغتيل فى سنة ١٩١٠ ومما يؤسف له ان هذا الرجل لقي نفس الجحود والنكران الذى وجده سلفه المعلم يعقوب حنا بعد ان اتهم مثله بالخيانة .

ولد بطرس غالى فى الايام الاخيرة لحكم محمد على وعاش حتى عصر عباس الثانى .

كان والده غالى بك نيروزا احد رجال مصطفى باشا فاضل بن ابراهيم باشا . وقضى صباه يتعلم فى مدرسة حارة السقاين التى أنشأها كيرلس الرابع ثم فى مدرسة مصطفى باشا فاضل ثم التحق بمدرسة الترجمة حيث اتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية ثم تعلم القبطية وهو فى الثلاثين من عمره . واشتغل فى اول الامر مديرا بمدرسة حارة السقاين ثم تقدم فى امتحان مسابقة بمجلس تجار اسكندرية (وهو الذى صار فيما بعد المحكمة المختلطة) وكان ترتيبه الاول فاشتغل كاتباً به . وما زال يرتقى حتى صار رئيس كتاب المجلس ولم يكمل الثلاثين سنة ومنها انتقل الى رئيس كتاب نظارة الحفانية .

(١) الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال من ٢١ - ٦٤ .

وبدأت الحكومة فى انشاء المحاكم الاهلية واخذت فى ترجمة القوانين الاجنبية الى اللغة العربية فلم تجد خيرا منه للقيام بهذه الترجمة . وهناك التقى بنوبار باشا . ولم يكن قد تجاوز الثلاثين الا قليلا حين أصبح سكرتيرا عاما لوزارة الحقتانية . كما عين مساعدا لمدوب الحكومة فى لجنة صندوق الدين . واذا عين رياض باشا رئيسا لهذه اللجنة أصبح بطرس غالى مندوبا للحكومة بها . ولم يكن قد تجاوز الخامسة والثلاثين سنة حين عين وكىلا لوزارة الحقتانية .

وقد وصفه معاصروه بالذكاء وبعد النظر واتساع الافق وتوة الشخصية ولذا لم يكد يعين فى هذا المنصب حتى اخذ فى تعيين الاكفاء فى وظائف القضاة الجديدة . وان اتهم بالتعصب الدينى حين جعل للأقباط نصيبا من هذه التعيينات . الا انه لم يحفل بهذه الصفائر . فقد كان يرى مساواة افراد الأمة جميعا فى الحقوق والواجبات دون نظر الى دين . الامر الذى هو من الوطنية لبها وصميمها . وفى يونيو سنة ١٨٨٢ طلب عرابى باشا الانعام عليه برتبة الميرمان فاجيب الى طلبه .

واذا ما اضطربت امور العربيين والخدوى . نصح العربيين بالتريث وطلب منهم أن يطلبوا الصفح من الخديوى كى لا يتخذ اعداء البلاد هذه الفرصة للفس بين أبناء الوطن الواحد فانساعوا لنصيحته ولم يجدوا خيرا منه ليحمل هذا الرجاء الى الخديوى .

ولا ينسى الاقباط له جهاده الحق فى سبيل انشاء المجلس الملى نقسـد عرف كيف يحمل الحكومة على أن تجافى الرئاسة الدينية على ما بيدها من أموال لتتصرف فيها بما فيه مصلحة الشعب . هو فى هذه الخطوة لم يكن قبطيا بقدر ما كان مصريا يسعى الى تعويد الشعب محاسبة رؤسائه مهما كانت سلطتهم ومهما كان مصدر هذه السلطة (١) .

واذا كان معاصروه قد ظلموه ووجهوا اليه مختلف التهم التى تنقص من

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ١٢٨ .

وطنيته نهذه كلها لا تثبت أمام التمحيص النزيه . واول هذه التهم انه كان صنيعه الاحتلال يعمل بأمر المحتلين والحق انه لو كان هؤلاء مكانه فما فعلوا غير ما فعل . فقد كان شابا حين رأى الاتجليز يطيحون باسماعيل كانه ملك من ورق اللعب دون أن يحفلوا بشيء . وآهم وهم ينصبون توفيق رغم ارادة السلطان . وآهم وهم يدسون بين توفيق والشعب . وكان الأول في ايديهم لعبة من اللعب .

وآهم وهم يدخلون العاصمة دخول الظافرين ويكادون يحطمون كل مقدسات الوطن فرأى من الخير لوطنه أن يصانعههم . فالثورة عليهم لا تعنى غير الضرر ببلاده . وان نجحت هذه الثورة فمن تعنى غير العسودة الى الحكم التركى الفاسد الذى لا يعنى شيئا سوى الفوضى والرجعية . ولم تجن مصر من تبعيتها لتركيا طوال ثلاث قرون سوى التأخر والجهود والانتحطاط . سواء فى مبدان التجارة أو الصناعة أو التعليم والاخلاق ولم يكن الحكم التركى فى هذه الآونة بالذات — تحت حكم السلطان عبد الحميد الثانى — فوق مستوى الشبهات . فالمصانعة هنا حكمة لا جن ولم يكن بطرس غالى فى هذه المصانعة نسيج وحده . بل آمن بها غيره كثيرون من رجال عصره . آمن بها سعد زغلول وآمن بها الشيخ محمد عبده وآمن بها لطفي السيد . ولم يتهمهم أحد بالخيانة كما اتهم بطرس غالى وآمن الرجل بعد ذلك بأن خير سياسة نرسم من أجل مصلحة الشعب هى الرقى بهذا الشعب الى مستوى يؤهله للوقوف على قدميه قبل أن يرفع صوته بالمطالبة بالاستقلال . فقد يكون هذا الاستقلال مضرا به فى هذه المرحلة من النضوج غير المتكامل . واذا كانت انجلترا قد احتلت مصر وقضت على استقلالها كما قضت على دستورها وبرلمانها فما فائدة هذا الدستور وهذا البرلمان الذى لم يكن أكثر من لعبة يتلهى بها كل من الشعب والخبوى . كما ان الدستور لم يكن فى يوم من الايام غاية فى ذاته . بل هو لا يعدو أن يكون وسيلة لرفاهية الشعب . أما اذا لم يكن كذلك فبئس الدستور . وبئس أصحاب الدستور .

ووقع فى سنة ١٨٩٩ بصفته وزير الخارجية اتفاقيتى الحكم الثنائى للسودان وهى سيئة أخرى يأخذها أعداؤه عليه . والاتفاق فى حد ذاته — دون النظر الى مساوئه — نهاية طبيعية لسيطرة البريطانيين على مصر منذ

احتلالهم في سنة ١٨٨٢ ثم لاشتراك الحكومة البريطانية في استعادة السودان ما دامت الحكومة في ذلك الوقت عاجزة عن استرداده بمفردها . وكانت الظروف تحتم عليها أن تقوم بهذا الاسترداد في هذا الوقت بعد أن امتدت يد فرنسا وبلجيكا تحاولان الاستيلاء على أجزاء منه ومل كان من المنتظر أن تشترك إنجلترا في الاستعادة لتتركه خالصا للمصريين . وكان هذا الاشتراك هو الثمرة التي سعت إنجلترا إليها منذ ١٨٦٩ حين افتتحت قناة السويس للملاحة واصبحت ومعها البحر الأحمر شريان المواصلات البريطانية نحو أملاكها في الشرق الأقصى (١) .

ومن المدهش أن ينصب جزء كبير من الحملات بل كل الحملات التي قادها الوطنيون على رأس وزير الخارجية دون غيره من الوزراء لأنه هو الذي وقعها باسم الحكومة المصرية . ولم يوجه أى عتات الى رئيس الوزراء مصطفى باشا فهي باعتباره المسئول الاول عن سياسة وزارته أو غيره من الوزراء باعتبارهم متضامنين مع رئيسهم ووزير الخارجية في تحمل المسئولية الوزارية .

وهذه المعاهدة وان كانت قاسية على مصر بالنسبة للدور الذي قامت به وللمصاريف التي تكبدتها وللدماء المصرية التي أريقَت . الا اننا نسأل . هل كان هناك من بين المصريين من يستطيع عقد اتفاق أفضل منه . فضلا عن أنها لم تمس حقوق السيادة المصرية على السودان مطلقا وأنها لا تعد أن تكون اشتراكا في الإدارة . وإذا كانت مصر قد حرمت من مباشرة حقوقها في السودان . فان هذا الحرمان لم يأت نتيجة لشروط هذا الاتفاق بقدر ما أتى نتيجة لعجز الجهات المصرية عن الاشتراك الفعلي في الإدارة والاستفادة من الاتفاقية بقدر ما تنفد من نصوصها .

هذا الى ان إنجلترا قد اعترفت أكثر من مرة بأن موقف مصر بالنسبة للسودان لم يتغير مطلقا فقد صرح اللورد كرومر ان هذه المعاهدة لم تبرم لغرض

(١) مصر والسودان ص ١١٢ .

انتقاص حقوق مصر الشرعية فعندما طلب مجلس شورى القوانين تبليغه تناصيل ايرادات حكومة السودان ومصرفاتها لم يتردد اللورد في اجابة هذا الطلب (١) كما ان انجلترا رفضت أن تتحمل أى نصيب من نفقات الادارة في السودان (٢) لأن موقفها منه لا يعدو أن يكون موقف من أوّتمن على وديعة ليسلمها الى صاحبها غير منقوصة .

وقد حوت هذه المعاهدة كثيرا من الغموض ومع ذلك لم يحاول أحد من الوطنيين فيما بعد حتى سنة ١٩٥٢ الاستفادة منه . فاذا كانت هذه المعاهدة قد بينت كيفية تعيين حاكم السودان العام . فانها لم تبين كيفية تعيين بقية الموظفين الكبار ولا جنسيتهم وعندما عين ونجحت في سنة ١٩١٠ السكرتيرين الثلاث ثم مجلس الحاكم . لم تحاول السلطة المصرية مطلقا ان تفرض عليه ولو مصريا واحدا . وكذلك عند تعيين كبار الموظفين لم تحاول السلطة المصرية التدخل مطلقا من أجل تعيين بعض المصريين في بعض المناصب التى لها خطرهما في السودان . وهذا الجبن الذى مكتبه المصريون على انفسهم لا ينصب فقط على وزراء مصر حتى سنة ١٩١٤ بل يتعداهم الى كل من تولى السلطة حتى عام ١٩٥٣ .

هذا ، الى هذا الاتفاق وان بين كيفية تعيين الحاكم ومدى سلطته . الا انه كان غامضا من حيث حق مصر في معارضة التعيين وحق مصر في عزله . ولم يحاول أحد من الذين ادعوا الوطنية فيما بعد حتى سنة ١٩٥٣ الاستفادة من هذا الغموض . مع ما اتاه الحاكم العام في كثير من الاحوال من تحدى السلطة المصرية في أكثر من مناسبة . واذا جاز أن نقول أن محاولة تدخل الوزراء سواء في المعارضة أو من أجل عزل الحاكم لا تجدى لأنها لا تملك القوة التى تجعل قرارها نافذا . فان مجرد محاولة الوزارة عرقلة التعيين أو محاولتها العزل كان يكفى لأن يخلق حالة تجعل انجلترا تتردد مرة أخرى في

The Unity of The Nile Valley p . 74
I bid p - 66

(١)
(٢)

الانفراد بالامر . هذا الى ان الحالة بعد سنة ١٩٠٨ قد تغيرت بعد ان خلقت محكمة العدل الدولية وأصبح الاختلاف على تفسير المعاهدات أهم اختصاصاتها .

فمصر اذا كانت قد حرمت من كثير من حقوقها في السودان بمقتضى هذا الاتفاق فهذا الحرمان لم يأت نتيجة لشروط هذا الاتفاق قدر ما أتى من عجز الجهات المصرية الوطنية عن الاشتراك النفعلى فى الإدارة . بعد ان سلموا متوالين للبريطانيين بجميع الحقوق على طول الخط مدة استطلت الى أكثر من نصف قرن . رغم تغير الظروف التى أبرم فيها هذا الاتفاق ورغم قيام الحركة الوطنية وازدياد الشعور بالقومية المصرية . وازدياد الشعور بالغبن الذى وقع على مصر . هذا الى ان الزعماء الوطنيين الذين حاولوا مفاوضة انجلترا منذ سنة ١٩١٩ والذين تولوا الحكم لم يحاولوا مطلقا تغيير نصوص هذا الاتفاق بل كان جل أمانهم هو العمل على تنفيذ هذا الاتفاق والاشتراك فى الإدارة عمليا بالقدر الذى يتيح لهم الاتفاق (١) .

ولنسائر المتشائمين فى تشائمهم لنرى ماذا ضيع هذا الاتفاق من حقوق لمصر فى السودان فقد استأذن محمد على السلطان فى فتح السودان . ولسنا الآن فى صدد بحث الاسباب التى أدت الى هذا الفتح — فأذن له على أن يضم ما يشاء من أراضى السودان على أن يكون ذلك باسم السلطان (٢) وتقدمت الجيوش المصرية الى السودان ونجحت فى مهمتها . فأصدر الباب العالى أمرا الى محمد على بتعيين ابنه اسماعيل حاكما على سنار سنة ١٨٣٢ ولا جدال فى أن معنى هذا الامر تبعية السودان للسلطان لا لمصر . اذ ليس لدولة مسلوبة السيادة أن يكون لها سيادة على دولة أخرى .

حتى اذا ما تأزمت الأمور بين السلطان ومحمد على فى سنة ١٨٣٩ تدخلت الدول الأجنبية انتهى امر الى صدور فرمانى ١٣ يوليوس ١٨٤١

-
- (١) الكتاب الاخضر المصرى عن السودان ص ١٧ و ٤٠ و ٦٢ .
(٢) مصر والسيادة على السودان ص ٥ .

وبمنح أحدهما محمد على ولاية مصر على أن يكون حكمها وراثيا . ويعطيه
الثانى حكم السودان مدة حياته وقد جاء فى فرمان السودان ما نصه (لوزيرى
محمد على باشا والى مصر المعهودة اليه مجددا ولايات مقاطعات النوبة
ودارفور وكردفان وسنار ان سدتنا الملكية كما نوضح فى فرماننا السلطاني
السابق قد ثبتكم فى ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة
وقد قلدتكم فضلا عن ولاية مصر ولايات مقاطعات النوبة ودارفور وكردفان
وسنار وجميع تعابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق
التوارث) (١) .

ولا اظن هذا الا دليلا واضحا على السودان لا يتبع مصر بحال من
الاحوال وحدث بعد ذلك أن صدر فرمان سنة ١٨٦٩ بتولى عباس باشا حكم
مصر والسودان (على أن يكون لعباس حكومة مصر وتعابعها على أن يكون
ذلك بالشروط التى وردت فى فرمان المرسل الى محمد على باشا) ومعنى
ذلك ان حكم مصر وراثى فى أسرة محمد على أما حكم السودان فلمدى
الحياة (٢) .

وواضح من كل ذلك انه لم يترتب على هذه الفـرمانات أى نوع من
السيادة المصرية أو الحقوق فى السودان . فالسلطان وان كان لا يملك حق
سلب أسرة محمد على ولاية مصر الا انه يملك حق سلبها حكم السودان
فى أى وقت يراه .

وفى سنة ١٨٦٦ نجح اسماعيل باشا فى الحصول على حق الوراثة
الصلبية وامتد هذا الحق الى السودان (على هذا جميعه أن تنتقل ولاية مصر
مع ما هو تابع اليها من الاراضى وكامل ملحقاتها وقائم مقاميتى — سواكن
— ومصوع الى أكبر اولادك الذكور بطريق الارث بالصورة نفسها الى أكبر
اولاد ذريتك » (٣) .

(١) مصر والسيادة على السودان ص ٢٠ .

(٢) مصر والسيادة على السودان ص ٣٠ .

(٣) فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ الموافق ١٢ محرم الحرام ١٢٨٣ .

فإذا كانت مصر قد كسبت من هذا الفرمان حق التوارث الصلبي في
السودان أيضا إلا أن مركز السودان القانوني لم يتغير عن كونه تابعاً
للسلطان لا لمصر وهو يملك حق سلبه له .

وحدث أن عجزت الحكومة المصرية عن إدارة السودان إدارة حسنة
فلم تأت سنة ١٨٨١ حتى كان هذا الجزء يغلى بالثورة وعجزت الجيوش
المصرية عن سحقها ولقى هكس باشا حتفه وأببد جيشه في موقعة شيكان
سنة ١٨٨٣ . مما جعل الحكومة البريطانية وقد أصبحت صاحبة الأمر في
مصر منذ سبتمبر ١٨٨٢ تشير على الحكومة المصرية باخلاء السودان
وعملت الحكومة المصرية بهذه النصيحة . وأرسل لذلك الجنرال جوردون
الذي فشل لا في الاخلاء فحسب بل في انتقاذ الجيش المصرى الذى كان هناك
بل قتل جوردون في السابع من يناير سنة ١٨٨٥ .

ومنذ الثامن من يناير سنة ١٨٨٥ لم يعد للحكومة المصرية صورة من
نفوذ في السودان وأقيمت هناك حكومة وطنية تجحت في فرض سلطتها
على بعض اجزاء السودان وهى وان فشلت في الحصول على اعتراف
الحكومات الاجنبية بها الا انها كانت الحكومة الشرعية الوحيدة وصاحبة
السلطة الفعلية هناك .

واعترفت الحكومة البريطانية بأن السودان قد أصبح أرض خلاء .
ودعت الحكومة الاجنبية أن تضع يدها على اجزاء منه . فإذا ما أبرمت في
يوليو ١٨٩٠ اتفاقاً مع المانيا لتعيين المناطق الاستعمارية لكل من الدولتين
بساحل افريقية الشرقية احتفظت انجلترا لنفسها بجميع حوض النيل الاعلى
حتى الحدود المصرية . . وكانت تعتبر هذه المنطقة أرض خلاء لا يملكها
أحد . اذ لم يذكر في هذا الاتفاق ان انجلترا تحتفظ بالمنطقة المشار اليها
نيابة عن السلطان العثمانى أو الخديوى (١) وإذا كانت فرنسا قد نادت بغير
ذلك فلم يكن موقفها هذا بسبب مصر بل بسبب موقف العناد الذى وقفته
امام بريطانيا منذ انفراد الاخيرة باحتلال مصر . حتى اذا غيرت انجلترا
موقفها وعادت تذكر ان السودان من املاك مصر . (وما كان يوما من

(١) مصر والسيادة على السودان ص ٦٣ .

املاكها) . وقفت فرنسا في الناحية الاخرى واعلنت انه ارض خلاء وارسلت جيشها بقيادة الجنرال مارشان لاحتلال اعالي النيل ونجح فعلا في الوصول الى فاشوودة واذا كان مارشان قد انسحب بعد ذلك منها فلم يكن ذلك تسليمها منه بحقوق مصر او السلطان في السودان بل لان فرنسا لم تكن مستعدة للاشتباك في قتال قد يعود على مستعمراتها وعليها بأوجم العواقب (١) .

واذا كانت مصر قد نجحت بعد ذلك في استعادة السودان فلم يكن ذلك نتيجة لمساعدة السلطان العثماني لها سواء بالمال أو الجند كما انه لم يكن نتيجة لدعواها في السيادة السابقة على السودان . وكانت الاستعادة بالاشتراك مع البريطانيين . وكانت نتيجة هذا الاشتراك عقد هذا الاتفاق الذي اطلق عليه اسم اتفاق السودان وهو الذي يبيع لبريطانيا الاشتراك مع مصر في ادارة السودان .

فليست هناك اذن أى حقوق لمصر أو سيادة مصرية أو شبهة لسيادة مصرية ضيعها هذا الاتفاق . واذا كانت هناك سيادة على السودان . فانها كانت لتركيا ولم تحاول هذه الدولة الاحتفاظ بهذه السيادة أو يذل أى مجهود للاحتفاظ بها فهذا الاتفاق اذا كان قد بدد سيادة ما . فقد بدد السيادة التركية التي كانت قد تبذرت من تلقاء ذاتها منذ قيام الحكم الوطني في السودان .

ويبدو ان مصطفى كامل كان حريصا على هذه السيادة التركية أكثر من حرصه على أى شيء آخر ولعله كان يرى نفسه ممثلا للدولة التركية في مصر أكثر مما هو مصرى ، فبطرس غالى بعقده هذا الاتفاق لم يكن الا معترفا بالحقيقة الواقعة وهي ان مصر وانجلترا قد فتحتا بالاشتراك ارضا جديدة . لهما الحق في حكمها .

ومع ذلك فقد حرص بطرس غالى على أن يؤكد « حقوق » مصر في السودان التي كان يرى ان الاتفاق المصري البريطاني لم يمسه في قليل أو

(١) مصر والسيادة على السودان ص ٦٦ .

كثير . فقد انتهز فرصة المفاوضات البريطانية الفرنسية بشأن فاشودة ليكتب الى القنصل البريطانى « ان حكومة الخديوى كما تعرف سيادتكم لم يغيب عن نظرها فى حين من الاحيان العودة الى استئناف احتلال الاقاليم السودانية التى هى مصدر الحياة لمصر . ومصر لم تنسحب من تلك الاقاليم الا عقب قوة قاهرة . وان استعادة الخرطوم تفقد الغاية منها اذا لم يعد الى مصر وادى النيل الذى ضحت مصر فى سبيله الضحايا العظيمة » .

« ولعلم الحكومة المصرية أن مسألة فاشودة هى موضوع مفاوضات الآن بين بريطانيا العظمى وفرنسا . فانها تكل الى أن اطلب الى سيادتكم أن تتفضلوا يحسن الوساطة لدى اللورد سالسبرى ليتم الاعتراف لمصر بحقوقها التى لا تقبل نزاعا ولكى تعاد اليها الاقاليم التى كانت تحتلها حتى قيام ثورة محمد ابن عبد الله المهدي (١) .

ورأى بطرس غالى بصفته وزيرا للخارجية ما جرت به على البلاد سياسة وخز الابر التى سار عليها كل من اللورد كرومر والخديوى . فقد كان كل منهما يحرص على أن تكون الكلمة العليا له ولم تكن البلاد من ذلك سوى ضياع هيبتها وفقد كرامتها . فقد كانت الازمات فى العادة تنتهى بانتصار اللورد كرومر ، فقد انتقد الخديوى الشاب نظام الجيش المصرى عندما زار الحدود الجنوبية فعد اللورد كتشنر هذا الانتقاد انتقاضا لقدرته كسردار عام للجيش المصرى وكانت النتيجة أن أرفق الخديوى على الاعتذار . وأمثال هذه الحادثة كثير . فلم يجد الوزير الحريص على كرامة بلاده بدا من التقريب بين الخديوى والإنجليز فما ان زار معه إنجلترا فى سنة ١٩٠٨ . حتى انتهى مع وزارة الخارجية البريطانية الى تغيير هذه السياسة الى سياسة الوفاق أى تفاهم الطرفين على الاشياء قبل تنفيذها . أى تنازل الحكومة البريطانية عن سياسة حصر السلطة كلها فى يد المعتمد البريطانى والمستشارين البريطانيين . بل تركت للمصريين أمر التصرف فى سياستهم داخل اطار خاص . فأُسندت بعض المناصب الكبيرة الى الكفاء من المصريين فأقبلت وزارة مصطفى باشا فهمى وأُسندت الوزارة الجديدة

(١) الامبراطورية السودانية ص ٢٢٨ .

الى بطرس غالى فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨، ولم يدخلها من أعضاء الوزارة القديمة غيره وسعد زغلول باشا ودخاها حسين رشدى باشا ومحمد سعيد باشا وكل منهم وطنى صادق الوطنية . وجدير بنا أن نشير الى تاريخ تولية بطرس غالى الوزارة كحدث وطنى جدير بالتسجيل فى التاريخ المصرى اذ كان بطرس غالى باشا أول وزير من أصل مصرى تولى منصب الوزارة منذ انشائها . بل أول رئيس وزراء اختاره الخديوى دون تدخل من الانجليز .

ونستطيع الآن أن نذكر فى كثير من الايجاز ما عرف فى السياسة المصرية (بأزمة طبّا) دليلا على وطنية هذا الرجل وصدف خدمته لبلده أن سياسة الدفاق التى أسسها مع بريطانيا لم تكن خيانة معه لبلده كما ادعى المعارضون .

فى سنة ١٨٩٢ حين تولى عباس الثانى السلطة أصدرت له تركيا كعادتها فرمان التولية ولكنه هذه المرة جاءت به بعض التعديلات عما سبقته من القرارات التى صدرت لكل من عباس الاول وسعيد واسماعيل وتوفيق . وقد قصدت تركيا بهذا التعديل استرداد شبه جزيرة سيناء من مصر وهى التى حصلت عليها بمقتضى فرمان سنة ١٨٤٠ — وهو فرمان الذى جعل حدود مصر الشرقية خطأ مستقيما يصل من رفح ورأس خليج العقبة — جزءا من مصر .

وتد حاولت تركيا بهذا فرمان — الى جانب استرداد شبه الجزيرة التى أصبحت على درجة كبيرة من الاهمية منذ افتتاح قناة السويس — تحرير علاقتها بمصر من الصيغة الدولية التى كسبتها فى اتفاق سنة ١٨٤٠ .

ومما يؤسف له أن الحزب الوطنى ومن ورائه مصطفى كامل لم يتردد فى تأييد الباب العالى فى هذه المحاولة حتى وان أدى الى تمزيق وحدة الاراضى المصرية التى لم تكن تعنيه قدر عنايته بوحدة اراضى الدولة العثمانية وهو المبدأ الذى اتخذه مصطفى كامل أساسا لجهاده الوطنى .

ولكن مصر لم تلبث أن تنبهت الى هذه المحاولة وعدل فرمان التولية واحتفظت مصر بسياستها كاملة على شبه الجزيرة .

وفي سنة ١٩٠٥ — حين كان مصطفى فهمى باشا رئيسا للوزارة المصرية وبطرس باشا غالى وزيرا للخارجية — حاولت تركيا هذا الأمر مرة ثانية حين شرعت فى تعزيز قواتها فى طابا الذى تقع على الناحية الغربية من رأس خليج العقبة .

ووقف الحزب الوطنى من جديد نفس موقفه السابق متفاضيا أيضا عن المصالح المصرية مضحيا اياها على مذبح المصالح التركية التى كانت نهده بالمال والتأييد من أجل مقاومة الاحتلال البريطانى لمصر متناسيا ان كلا من بريطانيا وتركيا مستعمران لبلده . ولكن الحكومة المصرية بادرت الى التصدى لهذه المحاولة الجديدة وحفظت وحدة الاراضى المصرية بالرغم من ان الوالى (عباس الثانى) حاول أن يلعب فيها دورا مزدوجا حين تظاهر بتأييد الوزارة فى مسعاها فى الوقت الذى أرسل فيه أحمد شفيق باشا الى استنبول ليقابل السلطان ليطعن الوزارة من وراء ظهرها .

وقد استندت تركيا فى هذه المحاولة الجديدة الى ان (مصر كلها مقاطعة متممة للممالك الشاهانية وليس هناك من حدود بينهما الأمر الذى يعد منافيا لصداقة التبعية) .

ووجهة النظر التركية هذه وان بدت منطقية لعلاقة مصر بتركيا الا انها كانت منافية منافاة صريحة للاتفاقات الدولية المبرمة بشأن مركز مصر الخاص تحت ولاية بيت محمد على (١) وقد كانت الحكومة المصرية ومن ورائها بطرس غالى وزير الخارجية متشددا غاية التشدد فى موقفه وظهر هذا التشدد واضحا فى ردوده على السلطان الا أن الخديوى كان كثير التدخل من أجل تخفيف لهجة التشدد كما أنه كان يرسل الى السلطان من وراء ظهر وزير خارجيته برقيات متتالية بهدم النظرية المصرية ويقول « ان نفسى

(١) لم يجر الى جعل العلاقة التركية المصرية الى علاقة دولية الا ضعف تركيا واستئجارها لكل من انجلترا وروسيا حين هددت الجيوش المصرية استنبول وبدا العرش السلطانى على وشك الانهيار .

الاتفاقات وايضاها هما من حق صاحب الامر دون سواء وان الدولة التي تترك ادارة جهة من جهاتها الى احد اتباعها « مصر » هي صاحبة الحق في ان تسترد هذا الحجة » .

ونحن لا ننكر ان موقف التشدد الذي كانت الحكومة المصرية تقفه كان مؤيدا من بريطانيا تحقيقا لمصالحهما من ناحية وتأييدا لسيادة الوفاق التي اتفقت عليها مع وزير الخارجية المصرية ولكن هذا التأييد لا يجب ان يعيننا عن انه كان لصالح مصر ١٠٠ ٪ .

وكان من نتيجة هذا التشدد ان تراجعت تركيا عن محاولتها بعض التراجع وعرضت اقتسام شبه الجزيرة بين مصر وتركيا ولكن الحكومة المصرية ظلت محافظة على موقفها الامر الذي ارغم الخديوى على التراجع عن دوره المزدوج لا سيما وقد ترددت الاشاعات ان انجلترا لم تكن تتردد في عزله .

ومما هو جدير بالذكر ان الخديوى حاول خلال الازمة ان يلعب على وتيرة الدين حين جعل رسوله شفيق باشا مبعوثه الى السلطان يسال السلطان التساهل في مسألة دير السلطان للقدس الذي كانت الكنيسة المصرية تتمسك بملكيتها والموافقة على وجهة نظرها لقاء رضا بطرس غالى القبطى فيتساهل في تبعية سيناء لمصر ولكن وظيفة بطرس غالى تنأ به عن هذا الموقف .

وانتهت الازمة في مايو سنة ١٩٠٦ (على بقضاء القديم على قدمه) واحتفاظ مصر بشبه الجزيرة كاملة لسيادتها .

ولنتصور معا ما كان يحدث لشبه جزيرة سيناء ولقناة السويس فيما لو نجحت تركيا في هدفها وزحفت الحدود التركية حتى قناة السويس ثم جاءت الحرب العالمية الاولى وقسمت الاراضى العربية بين الدول المنتدبة وجاءت انجلترا الى فلسطين ومعها وعد بلفور وسمحت لليهود بالهجرة وسكنى شبه جزيرة سيناء واستقروا على الضفاف الشرقية للقناة منذ سنة ١٩٢٠ .

وكان بطرس غالى الوطنى قد نظر الى المستقبل بعين السياسى البعيد

النظر ورسم سياسة الوفاق التي ضمنت لمصرية تأييد إنجلترا لموقفها في هذا النزاع وهو الموقف الذي رماه بعض المؤرخين بسببه بتهمة الخيانة (١) .

منذ سنة ١٩٠٢ أخذ عدد اليهود اللاجئين الى إنجلترا هربا من الاضطهاد الروسى والرومانى يزداد والحكومة غير راضية عن وقتهم بسبب سياستها ، ولكنها من ناحية أخرى لانهم كانوا يقبلون أجورا أقل من أجور البريطانيين مما أدى الى تفاقم العطلة بين العمال .

وحضر هرتزل الى لندن طالبا اتخاذ أرض لتجبيع اليهود عارضا أوغندا أو قبرص أو سيناء وكان هرتزل قد عرض هذا الاقتراح على السلطان (عبد الحميد الثانى) بعد أن اتخذ فيه مؤتمر بازل الخامس قرارا بالموافقة عليه وقابل فى ذلك اللورد روتشلد (وكانت أوغندا تشتمل أوغندا الحالية وكنيا) واتفق الاتفاق على تركيز جهودهم على لندن حتى اذا قابل هرتزل مستر تشامبرلن وزير الخارجية مال هذا الاخير الى قبوله رغبة فى التخلص من اليهود الوافدين على إنجلترا ولم تلبث قبرص ان استبعدت لثلا تثار الروسيا النى كانت تدعى حماية الارثوذكس فى العالم (ما عدا مصر) واستمر الراى على أن فلسطين ومعها شبه جزيرة سيناء هى ارض الامل .

وكان تشامبرلن يرغب من ناحية أخرى فى ارضاء اليهود واهالى جنوب افريقيا للاستيلاء على مناجم الذهب هناك وكانت سياسة بريطانيا ازاء هذا الجزء من مستعمراتها هى استرضاء أهلها بعد أن هزموا فى حرب التحرير كما ان استقرار اليهود فى فلسطين تحت حماية بريطانيا تجعل من هذا الجزء أملا بريطانيا بعد انهيار تركيا .

وكان مفتاح هذا الموقف اذن فى يد الحكومة المصرية التى تملك التصرف فى أمورها منذ فرمان سنة ١٨٤٠ كولاية ممنازة وتحت ارشاد بريطانيا منذ سنة ١٨٨٢ وانتهى الامر الى قدوم بعثة صهيونية فى يناير سنة ١٩٠٣ مكونة من ستة اقليهم من المهندسين ومكثت بها نحو شهر وكتبت تقريرا عن احوال

(١) ابراهيم أمين غالى فى « شبه جزيرة سيناء عبر التاريخ الحديث » عدد ٤٨ من مجلة السياسة الدولية اكتوبر سنة ١٩٧٤ م .

شبه الجزيرة قدرت عدد سكانها ٤٨٠.٠٠٠ مواطنًا يتطنون خمس مناطق وانتهت الى ان المنطقة غير صالحة لسكنى الأوروبيين ولكن اذا حلت مسألة الماء بانشاء الآبار أمكن اصلاح أجزاء كبيرة منها زراعة القمح والذرة والشعير والبقول كالعديس والفلول والصويا ومن الفواكه البلح والتين والبرتقال والليمون والزيتون والخروب وبعض الاشجار الخشبية كالكاפור ، كما يمكن انشاء بعض الصناعات الزراعية للزيوت وسكر القصب والفواكه المجففة والأنبذة والكحول بل بلغت بها الجراة أن حددت حدود المنطقة التي تجرى المفاوضة بشأنها مع الحكومة المصرية بالحدود التركية شرقا وقناة السويس غربا والبحر الأبيض شمالا ومرتفعات القية جنوبا أى كل شبه جزيرة الجزيرة بل يرى التقرير أن يقوم الفلاحون المصريون بالمجهود الزراعى بل حرروا صيغة عقد لعرضه على الحكومة المصرية يتيح لهم (احتلال) الأرض واستعمارها مدة ٩٩ سنة ثم استغلالها بالصورة التي يرونها ، بل للشركة حق تجديد الامتياز لمدة مماثلة ، ورغم الاقتراح الى الوزارة المصرية مشفوعا بتوصيات الحليف البريطانى ولكن لم يكدم أسبوعان حتى تلقت من بطرس غالى وزير الخارجية المصرية ردا بأنها (لا تستطيع وفقا للقرارات الشاهانية لاي سبب أو مبرر التنازل عن جزء أو كل الحقوق المتعلقة بالسيادة وكذا فإنه يجب أن تستبعد بصفة قاطعة كل فكرة ترمى الى الحصول على اتفاقات من هذا النوع) وفي نفس اليوم ارسل اللورد كرومر الى حكومته صورة من رد الوزير مع رايه الشخصى انذى يقول ، ان الحكومة المصرية غير مستعدة للأخذ بهذا الاقتراح لانها لا ترى فيه أى نسبة من العدل ومن ثم ترى وجوب صرف النظر عن هذا المشروع .

هذا هو موقف الرجل الذى يرميه بعض المؤرخين بالخيانة ومسايرته للانجليز فى كل مشروع وأن كان ضارا بمصر فهى الحكومة البريطانية تعضد المشروع وتوصى هرتزل بالمضى فيه بل ساعدته على ارسال القضية اليهودية ولكنها لم تملك الا النزول عنه بعد موقف التشدد الذى أبداه وزير الخارجية المصرى (١) .

(١) ابراهيم أمين غالى الدبلوماسية الخديوية والمطامع الصهيونية فى شبه جزيرة سيناء ، مجلة السياسة الدولية عدد ٤٣ يناير ١٩٧٦ .

أما بعث قانون المطبوعات فان المسؤولية لم تكن على بطرس غالى بل على الخديوى عباس نفسه ، ففى أكتوبر سنة ١٩٠٨ تقابل الخديوى مع جراهام نائب الدون جورست الذى حل محل كرومر وحدثه فيما وصلت اليه الصحف المصرية من تمادى فى نقده الى حد أن اتهمته صحيفة الحزب الوطنى بالخيانة وطلب وضع قانون لكبح جماحها فلم يرافق جراهام على هذه الفكرة ولكن ذلك لم يمنع الخديوى من أن يطلب الى بطرس غالى الذى أصبح رئيسا للوزراء سن هذا القانون فمرض بطرس غالى للرغبة الخديوية وقدم هو القانون الى مجلس الوزراء فعارضه كل من سعد زغلول وحسين رشدى ومحمد سعيد مما أدى الى تدخل الخديوى شخصيا لدى الوزراء المعارضين وبعد أن وافق على القانون مجلس الوزراء أرسل الى مجلس شورى القوانين الذى كان فى استطاعته رفضه ولكنه وافق عليه دون أى تعديل مما يدل على تدخل الخديوى لدى النواب أيضا .

وكان من ملتمسه هذا ان رأى بطرس غالى صورة ادخال تعديل على سلطة مجلس شورى القوانين يعطيه الحرية فى مراجعة أعمال الحكومة واتفق فى ذلك مع ممثل انجلترا وكان غريبا ان الحزب الوطنى عارض هذه الرغبة بدعوى ان الحكم الدستورى يعارض الاسلام (١) .

وقد حاولت انجلترا فى ظل هذه السياسة الجديدة ان تحمل الحكومة المصرية على مد امتياز شركة قناة السويس الى مدة جديدة نظير مبلغ عاجل من المال وزيادة نصيبها من الارباح وكانت الصفقة ولا شك خاسرة لمصر . فما كان من الوزير الا أن أوعز الى مجلس شورى القوانين — بعد ان تظاهر هو بالموافقة — بأن يطالب بمناقشة هذا الاتفاق وما تقدم المجلس بهذا الطلب حتى أسرع رئيس الوزراء بتبليته . أما عن دفاع الوزارة عن المشروع أمام المجلس فنيس بطرس غالى مسئولا عنه فقد مات الرجل قبل نظره . ولسنا فى ذلك نلقى الكلام على عواهنه بل نستدل عليه بأن بطرس غالى كان رئيس

(١) ابراهيم أمين غالى — شبه جزيرة سيناء عبر التاريخ — السياسة الدولية عدد ٣٨) .

الوزراء الاول الذى قرر علنية جلسات مجلس الشورى (١) بعد ان كانت سرية وجعل الوزارة مسئولية امام المجلس عن أعمالها (٢)، وبذلك مكن الراى العام من الاطلاع على أعمال كل من الوزارة ومجلس الشورى كما مكن السلطة الدستورية الصورية من أن تصبح سلطة دستورية فعالة وليس هذا بعمل رئيس الوزراء الذى يعمل عملاً يضاف ظهوره ولم يكن هذا العمل الوحيد الذى فعله رئيس الوزراء من أجل تمكين الشعب من الاشراف الفعلى على أعمال السلطة التنفيذية بل والاشتراك فيها فعدت وزارته قسانون مجالس المديرية فزادت من عدد أعضائها فجعل لكل مركزاً عضوين كما خولت هذه المجالس سلطة فرض ضرائب اضافية على الاطيان لانفاقها على المنافع العامة ومنها التعليم (٣) .

وكانت نتيجة شجاعة هذا الرجل الذى حمل رأسه على كتفه أينما ذهب ان اعتدى عليه علناً فى العاشر من فبراير ١٩١٠ ومات الرجل وهو يردد (يعلم الله انى لم أعمل عملاً يضر ببلادى) وكان الرجل صادقاً . فبطرس غالى هو الذى :

١ - علم المصريين قيمة العمل الهادىء المبني على التعاون الصادق والذى يرمى الى خدمة الوطن دون اللجوء الى الصخب الذى يرمى الى الدعاية أكثر مما يرمى الى الخدمة .

٢ - اشعر المصريين بضرورة تعاون جميع أبناء الامة وقد جعله ذلك موضع تقدير كثيرين من المسلمين الصادقى الاسلام كالشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار . اذ لم يكن يتردد عن خدمة أحد اذا وجد الحق فى جانبها .

٣ - علم المصريين كيف يقف الرجل مدافعاً عن رأيه فى شجاعة دون

(١) الشهيد محمد فريد ص ٨٤ .

(٢) مقال لجمال حسين هيكلى عن بطرس غالى بالمجلة الجديدة سنة ١٩٣٥ .

(٣) الشهيد محمد فريد ص ٨٤ .

النظر الى رأى الآخرين ما دام يرى الخير فى جانبه . اذ انه لم يتردد وهو الوزير القبطى عن أن يتدخل بنفسه عند اصلاح المحاكم الشرعية ويعطى حاكم البلاد حق تعيين قاضى القضاة وكذلك حق اصلاح ما يراه دون تدخل من السلطان فقطع بذلك خيطا قويا من خيوط السيادة التى تربطها بمصر بينما كان رجال الازهر وعلى راسهم الشيخ حسونة النواوى يعترضون ويصرون على أن السلطان العثمانى هو وحده الحاكم الشرعى المطلق فى الامور الشرعية وان القاضى الاكبر العثمانى هو نائبه يعين بأمراته ويفصل بمجرد ارادته ولا حق للحكومة المصرية باحداث أى تغيير فى هيئة المحكمة الشرعية لان ذلك ليس من اختصاصها (١) ووافقهم على هذا الرأى أعضاء مجلس شورى القوانين . وان هذا الموقف لذكرنا بموقف هؤلاء المشايخ أنفسهم أيام نابليون حين اراد أن يعين مصرى فى منصب القاضى الاكبر ورفضوا جميعا هذا التعيين .

فبطرس غالى هو الذى استيقظ قبل معاصريه ووقف على حقيقة بلاده ففضل ان يتجرع حقيقتها المؤلمة فحاول أن يجعل هذا العلقم مسلا عن أن ينام فى نعيم الخيال .

وقبل أن تصل هذه الحقيقة الى نهايتها فى سنة ١٩١٨ ظن الانجليز ان مصر قد خلصت لهم الى الأبد فقد أصبح التعليم المصرى خاضعا لهم تمام الخضوع واثبت رجالهم فى جميع مصالح الحكومة يسرونها ، كما خيل اليهم وراح السير الدورست يطوف أنحاء البلاد (٢) متفقدًا هذه البثرة التى أصبحت غنيمة سهلة للشركات البريطانية بعد أن توسعت فى زراعة القطن من أجل مصلحة لانكشاير بل أكثر من ذلك فقد قضوا على القومية المصرية حيث بثوا التفرقة بين أبناءها وأقصوا الاقباط عن مناصبها وجعلوا فريقا من الأمة يعتقد فى حقه وحده فى أن يحتل كبرى وظائفها بدعوى نيابة صاحبها عن ولى الأمر بل حرموا بناتهم من الالتحاق ببعض المدارس (٣) حتى اذا سن

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٢ ص ٩٣ .

(٢) تذكارات المؤتمر القبطى ص ٣٥ .

(٣) تصريح وزير المعارف بجلسة مجلس شورى القوانين فى ١٨/٦/١٩٠٩ .

القانون الذى يؤيد هذه التفرقة كان مشجعا لسن قانون آخر مشابه له خاص بالذكر (١) رغم المعارضة الشديدة لبعض أعضاء الهيئة التشريعية . وبذلك خلقوا غتنة التمييز المذهبى بين ابناء الوطن الواحد (٢) وتظلموا امام المصريين بأنهم اول من يتصر الضعيف ويأخذ بحقسه من الغالب (٣) ودفعوا بعض الأجانب كالشيخ عبد العزيز جاويش (٤) الى سب الاقباط سبا جارحا حين نددوا بسياسة التفرقة فتقدموا بالشكوى الى رئيس الوزراء مطالبين بمساواة المصريين جميعا فى الحقوق كما هم متساوون فى الواجبات (٥) وإباحة جميع الوظائف فى وجه الكفاء من المصريين جميعا بلا قيد بالمذهب أو الدين (٦) .

فى الوقت الذى ظن فيه الانجليز هذا الظن الخاطيء وناموا على سرير من الورد نسجوه من أحلامهم الواهية وجه الاقباط الى الاحتلال ضربة قاصمة حين دعوا الى عقد المؤتمر القبطى فى أسيوط ليرموا بالقناز فى وجه الانجليز وليعلنوا ان هؤلاء الدخلاء هم سبب هذا البلاء الذى تقاسيه الامة من حيث اشاعة التفرقة بين ابناء الوطن الواحد (٧) وانتخبت لذلك لجنة من بشرى بك حنا وجورجى بك ويزا وبسطوروس خياط وسينوت حنا وتوغيق دوس قررت توجيه الدعوة بعقد جمعية عمومية فى أسيوط فى ٦ مارس سنة ١٩١١ .

(١) جلسة ٢١ مايو سنة ١٩١٠ .

(٢) تذكارات المؤتمر ص ٥ .

(٣) تذكارات المؤتمر القبطى ص ١٠ .

(٤) الشيخ عبد العزيز جاويش رجل تونسى هرب من تونس سنة ١٨٨١ وترك أهله هناك ليطأهم الفرنسيون ويستقوهم المر والعلقم وقدم الى مصر متظاهرا بالحماية الدينية فخدع المصريون فيه فقابل احسانهم اليه بمحاولة التفرقة بين عناصر الامة فحاول بذلك أن يخلق لنفسه ميدانا للتضال . ولم يلبث ان هرب من مصر الى تركيا وعمل زمنا مع مصطفى كمال فى حركته المعروفة الا انه لم يلبث ان انقلب عليه وحاول التآمر عليه الا انه اسرع وعاد الى مصر حيث رحب به الملك فؤاد من أجل الدعاية للحركة التى ترمى الى تنصيبه خليفة للمسلمين فعينه فى وزارة (المعارف) وظل بها حتى مات .

(٥) تذكارات المؤتمر القبطى ص ٨ .

(٦) جريدة مصر فى ٢١ مايو سنة ١٩٠٨

(٧) تذكارات المؤتمر القبطى ص ٧٠ .

ولم يكن الاقباط وحدهم هم الذين اعتقدوا ان الانجليز هم أصل البلاء بل شاركهم هذا الرأي بعض أحرار الانجليز مثل الدكتور بتلر Butler الذي قال ان الاتحاد الذي كان قائما بين المسلمين والاقباط في مصر قبل الاحتلال البريطاني قد تحطم نتيجة لسياسة الحكومة البريطانية الخاطئة

وقد قابل أحرار البلاد هذا المؤتمر أحسن مقابلة فنشرت اللواء (اننا معاشر المسلمين نود من صميم أفئدتنا أن تعطى وظائف الحكومة لمن يستحقها من الأكفاء القادرين من الوطنيين من غير تمييز بين طائفة وأخرى ولا دين دون دين) .

كما نشرت الجريدة (ان رأى الجريدة في النومية بين المسلمين والاقباط معروف مشهور وانها تقول ان كل مصرى له حق في المساواة العامة من غير تمييز) بل زادت وقالت انه لا شك ان الاحتلال البريطاني هو المسئول الاول عن هذه الحالة السائدة بين المسلمين والمسيحيين .

ونشرت المؤيد تقول لا ندري لماذا لا يأخذ (الاقباط) حصتهم كوطنيين لهم ما للوطنى في الوظائف العمومية . .

كما طلب الشيخ عبد الرحيم الدمرداش شيخ الطريقة الدمرداشية (منع معاكسة المؤتمر القبطى) كما أرسل محمد بك توفيق الأزهرى صاحب جريدة الرائد العثماني برقية قال فيها « أسأل الله أن يكلل أعمال مؤتمرهم بالنجاح والافلاح لانه مؤتمر خير وسلام واثاق ووئام رغم انك الذين يعملون للتفرقة وأنقسام » (١) .

وسألت جريدة « مصر الفتاة » في عددها الصادر في ٢٩ يناير سنة ١٩١١ عن المسئول عن هذه الحالة التى يشكوها الاقباط . ومن هو الذى ينكر كفاءة الاقباط هل هم المصريون أم الانجليز ؟ كما أرسل عثمان بك عبيد المدير السابق الى جريدة الوطن في نوفمبر ١٩١٠ يقول « أن الاقباط مع مع ما عرف عنهم من تمسكهم الشديد بدينهم يشاركون المسلمين جميع

(١) تذكارات المؤتمر القبطى ص ١٦٨ .

شواطئهم من كل قلوبهم » . ولكن الانجليز عرفوا قبل غيرهم أن الضربة موجّهة اليهم فأوعزوا الى الحكومة بمنع الاجتماع كما تدخلوا لدى البطريرك كى يأمر بوقف المؤتمر . ولكن الاقباط بما عرف عنهم من وطنية ترقى فوق الصداقة والرعاية والدين صمموا على أن يبينوا وجهة نظرهم كاملة .

وعقد مؤتمر من الاقباط لابداء وجهة نظر خاصة فى مسألة عامة ليس فيه ما يؤخذ عليه فقد أجمع الاقباط فى مؤتمر عام فى سنة ١٩٥٦ فى القاهرة اشتركت فيه الحكومة وخطب فيه أحد أعضائها . أما عن المطالب الخاصة التى يتقدم بها الاقباط فليس هناك ما يؤخذ عليها أيضا . فليس الاقباط سوى فريق من الأمة له مطلق الحرية يحكم ما يتمتع به من مساواة فى الحقوق والواجبات أن يدلى برأيه فى مسألة من المسائل أو يطلب طلبا خاصا . أو ينبه الى خطر يراد بالوطن ولم يكن مؤتمر أسبوط فتنة كما وصفه البعض بل كان لطمة وجهها الاقباط الى الانجليز فى حنكة ودراية فكان بذلك تنبيهها للأمة لما كان يراد بها من بث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد وتنبيه الأمة الى أعدائها الحقيقيين . ولذا نشرت جريدة الاخبار القبطية ان أعداء المؤتمر ثلاثة :

(١) الحكومة لأن اعلان الحيف للقابضين على أزمة الحل بما لا يرضون أن يعرف عنهم .

(ب) السير الدون جورست . الذى يريد أن يرضى الاغلبية (على حساب الوطن) .

(ج) الحزب الوطنى لأنه يريد أن يصور الاقباط عبدا يتهاكون على محبة الانجليز .

وقبل أن يجتمع المؤتمر نشرت جريدة مصر فى فبراير سنة ١٩١١ مطالب المؤتمر التى تتلخص فى :

١ — المساواة فى الوظائف .

٢ — تمثيل الاقلية فى الهيئة النيابية .

٣ — صرف ضريبة الخمسة في المائة التي تجمعها مجالس المديرية على فتح مدارس لابناء الامة جميعا .

٤ -- محاكم الاحوال الشخصية القبطية تطبق شريعتهم .

٥ — التعليم الدينى والادبى للأقباط .

٦ — راحة الاحد .

على أن لجنة المؤتمر عادت في ٣ مارس وقصرت هذه المطالب على خمس نقطة هي :
١ — مساواة جميع المصريين في احترام يوم الراحة الدينى .

٢ — التعويل على الكفاءة دون سواها في الترشيح في الوظائف العامة للمصريين .

٣ — تمثيل جميع العناصر المصرية في جميع مجالسها النيابية تمثيلا يضمن الموافقة على حقوقهم والمحافظة عليها .

٤ — تمتع الاقباط بجميع حقوق التعليم الاعلى القائمة به لان مجالس المديرية تجبى لاجله ضريبة ٥ ٪ من جميع المصريين .

٥ — جعل خزانة الحكومة مصدرا للانفاق على جميع المرافق العامة المصرية .

ولم يكن الاقباط في هذه المطالب يطلبون شيئا جديدا او امتيازاً مستحدثاً انما كانوا يطلبون العودة الى ما كانوا عليه من مساواة مع جميع المصريين قبل عهد الاحتلال البريطانى واذا استثنينا المطلب السادس فليس هناك من مصرى قط الا ويرى ضرورة تحقيق هذه المطالب فقد نص دستور سنة ١٩٢٣، عليها جميعا كما ابقى عليها دستور سنة ١٩٣٠ والذى أصدره صدقى باشا والذى انتقض فيه كثيرا من حقوق الامة كما نص عليها ايضا دستور سنة ١٩٥٦ الجمهورى .

واجتمع المؤتمر بعليل في الميعاد المحدد وانفيض دون أن يحدث أى اختلال بالأمن وكان أول ما صرح به الخطباء اعلان ان وحدة الامة مقدسة بعيدة عن الاهواء والاغراض . فقد قال ميخائيل بك فانوس المحامى فى خطبته :

« أما مصر فشعب أصله واحد من سلسلة واحدة من آلاف السنين ، ولا يمكن تمييزهم من بعض اذ وجوههم واحدة وملامحهم واحدة متشابهة وما حقيقتهم الا عنصر واحد يختلف بعضه فى العقيدة عن البعض فمن ظلم الناس تسميتهم عنصريين » (١) .

وحين قرئت فى الجلسة الثانية رسالة من محمد بك وحيد يناشد فيها المؤتمرين « أن يضعوا نصب أعينهم تقوية الوحدة الوطنية » . صفق لها الحاضرون جميعا (٢) .

ونفى توفيق دوس مطالبة الاقباط بنصيب من وظائف الدولة يوازى نسبتهم العددية « فان هذا يستلزم أن يتربع فى المناصب العليا قوم غير لكفاء لإدارتها لا لعلية الا لكونهم اقباط . وفى هذا ضرر بالصلحة العامة » وساق للتدليل على كلامه نصا للشيخ على يوسف وهو ان (كفاءة القبطى الذاتية ككفاءة المسلم الذاتية لا تقف عند حد . وكلاهما توصلان الى أعلى المناصب » كما رمى بالقفاز فى وجه بريطانيا فساق تاريخ التمييز فى الوظائف انى سنة ١٨٢٢ فقط .

كما أعلن مرقس حنا بك انه ينكر أن يعين فى القانون عدد مخصوص من الاقباط لأنه يكره أن يذكر فى القانون كلمة قبطى ومسلم بل طالب باتباع الطريقة البلجيكية وهى طريقة الانابة النسبية بمعنى أن كل فئة تمثل بعدد من النواب يناسب عدد المنتخبين من هذه الفئة (٣) وهو رأى ينادى به كثيرون فى الوقت الحاضر .

وتكلم وهيب بك دوس مطالبا بوضع نظام لجالس المديرىات يكفل

(١) تذكّر المؤتمر القبطى ص ١١٥ .

(٢) تذكّر المؤتمر القبطى ص ١١٤ .

(٣) تذكّر المؤتمر القبطى ص ١٦٩ .

لجميع العناصر المتمتع بالتعليم الاهلى (١) وهو ما تسير عليه الحكومة فى الوقت الحاضر. فلم يكن المؤتمر اذن يستحق شيئا من الضجة اثرت لاجله انما كانت ضجة مفتعلة اثارها الانجليز لانهم ادركوا ان هذه الصيحات لا تؤدى الا الى كشف موقفهم فأشاروا على الخديوى بأن يسعى الى عقد المؤتمر المصرى فلم يجد الا محمود رياض باشا اليهودي الاصل العراقي المنبت البريطاني الهوى ليرأس هذا المؤتمر .

وتوالى الخطباء فى هذا المؤتمر الثانى من ٢٩ ابريل الى ٤ مايو سنة ١٩١١ واسترفوا جميعا بأن :

- ١ — الامة المصرية كلها من عنصر واحد (١) .
- ٢ — نواب الاقباط فى المجالس التشريعية قبلون (٢) .
- ٣ — نظام التوظيف فى الحكومة مختل فاسد (٤) .
- ٤ — الحقوق والمرافق فى مصر يجب ان تكون على الشيوع بين جميع المصريين على السواء لا امتياز لواحد منهم على اُحد بكونه مسلما او مسيحيا او يهوديا (٥) .

٥ — الانجليز هم الذين بدأوا سياسة التفرقة (٦) .
وبانتهاء المؤتمر الاخير انتهت الضجة كلها وعادت الامة الى صفائها السابق رغم ما حاوله الانجليز من إشعال نار الفتنة فقد كتب مراسل جريدة للتايمز فى مصر معقبا على المؤتمر الاول انه لا يمكن التسليم بمطالب المؤتمر لعدم كفاءة الاقباط فى تولى وظائف الادارة (٧) .

-
- (١) تذكّر المؤتمر القبطى ص ١٨٣ .
 - (٢) مجموعة أعمال المؤتمر المصرى .
 - (٣) مجموعات أعمال المؤتمر المصرى ص ٢٣ و ٣٢ و ٤٨ و ٨٠ .
 - (٤) مجموعات أعمال المؤتمر المصرى ص ٥١ .
 - (٥) مجموعة أعمال المؤتمر المصرى ص ٣٧ .
 - (٦) مجموعة أعمال المؤتمر المصرى ص ٦٣ .
 - (٧) مجموعة أعمال المؤتمر المصرى ص ٦٥ و ٦٦ .

ولكننا كأمة حية لم تفتننا هذه المناسبة لنتعظ بها فقد عرفنا عدونا الحقيقي كما أصررنا على وحدة الأمة وعلى وجوب إزالة سوء التفاهم وعودة الصفاء كما عرفنا اختلال أحوالنا الادارية والاجتماعية والاقتصادية ووضعنا كلها بعض الحلول التي أخذنا بها فيما بعد .

ولقد كان نجاح المؤتمر القبطي فذا في النتائج التي وصل اليها فقد شعر السير الدون جورست ان سياسته هي المقصودة بهذا الهجوم القبطي فكتب تقريراً الى حكومته (١) في أكثر من عشرين صفحة كانت كلها عبارة عن محاولة لتبرئة نفسه وحكومته من تهمة سوء الادارة البريطانية في مصر لعل اغرب ما جاء به من محاولة التنصل هو انه لم يسمع قبل ذلك عن هذه الشكوى ولكن ذلك لم يكن يعنى في الواقع غير الفشل الذريع للسياسة البريطانية في مصر والتي كان الاقباط سببا في اظهارها وكشفها فلم يكن بد من تغييرها وتغيير من يمثلها فعين اللورد كاتشنر معتمدا بريطانيا جديدا وهو الذي قال عنه السير ادوارد جراى في مجلس العموم في ١٨ يوليوسنة ١٩١١ « ان خبرته في الشؤون المصرية وكفائته وعدم تحيزه سوف تكسبه ثقة الجميع » (٢) وعد الاقباط هذا التعيين انتصارا لهم خصوصا وقد بدأ العهد الجديد عهده بإلغاء قانون المطبوعات . فأطلقت حرية الصحافة ولكن ليس معنى ذلك ان حال مصر قد تحسنت في هذا العهد الجديد بل ظلت سيئة ما دامت السلطات البريطانية تعتمد على أناس راعت فيهم جانب الولاء أكثر مما راعت جانب الكفاءة مما أشاع نوعا من السخرة وعدم العدالة التي ارتكبها موظفو الحكومة اعتمادا على سلطة الاحتلال التي تسندهم (٣) فكانت السلطة البريطانية تتدخل حينئذ لاقرار العدل بأخذ جانب الفلاحين وكانت هذه المطالب سببا في هذه الازمة التي اجتاحت البلاد قبيل الحرب العالمية الاولى مما أدى الى انهيار الاسعار انهيارا كبيرا مما أودى بمستوى البلاد الاقتصادى وكان غرض بريطانيا من ذلك الرد عن طريق غير مباشر على المطالبين بترك الادارة للمصريين .

Copts and Muslims p . 36 — 56

(١)

Copts and Muslims p . 137

(٢)

Copts and Muslims p . 140 , 141

(٣)

وأخيرا عرف المصريون ان خيرهم في اخراج اليد الاجنبية التى تسعى دائما الى النيل من وحدتهم وان الدين ليس الا مظهرا من مظاهر اختلاف الفكر . وان شعور المصريين جميعا ونفوس المصريين جميعا تحمل من عواطف الحب أكثر مما تحمل عواطف البغض . بل تحمل من عواطف التعاطف والتآزر والتعاون أكثر مما تحمل من عواطف التنافر والتناؤذ . وان طبيعة بلادنا السمحة الحلوة وأرضها السهلة ونيلنا المنتظم وشمسنا الساطعة ، بل احساسنا بارتباط مصالحنا وتداخلها، وكل هذه عوامل توصى بالوحدة بل ترغىنا على ان نشعر اننا شعب واحد بل جسم واحد وما يضر عضوا يضر بالعضو الآخر وأنه سرعان ما تتحد الاعضاء على طرد الجرثومة الغريبة وعرفنا أيضا ان طبيعة المصريين تحمل عاملا ديناميكيا يعمل تلقائيا من أجل الحياة لا من أجل الموت . انها نعمة من السماء ولا اظن شعبا آخر يحملها كمسا يحملها المصريون واننا يجب أن نحرس عليها ونحرسها ونحافظ عليها بل نميها وليس على ذلك من امثالنا الشعبية التى نتداولها فتمثل الروح المصرية الحقيقية اصدق تمثيل (اليد الواحد ما تصفقتش) - (انا واخويا على ابن عمى . وانا وابن عمى ع الغريب) .

ولقد عرف اللورد كرومر وهو الاسستعمارى الاصيل والذى كانت سياسة التفرقة بين العنصرين أهم ما يميز عصره ما فى اتحاد أبناء الوطن الواحد من تأصل حين قال « ان الفرق الوحيد بين الاقباط والمسلمين فى مصر انما هو ان الاولين مصريون يتعبدون فى كنائس بينها الآخرون مصريون يتعبدون فى مساجد » (١) .

الباب السادس

الحركة الوطنية منذ ثورة ١٩١٩

وأخيرا انتصر الإقباط وقامت الأمة كلها تنادى بما كان ينادى به الإقباط بعد أن آمنت أنها الدعوة الحق وكل ما عداها باطل . قامت الأمة كلها تنادى بالقومية المصرية بعيدة عن كل من الانجليز والأتراك . وانفك سحر هذا الطلسم الذي خلقه الحكام الأجانب . واستغلوه لمصلحتهم وحدهم . لا لمصلحة المصريين . ظلسم القومية الإسلامية الذي كان يعصف بالقومية المصرية .

كانت صرخة واحدة من سعد زغلول وعلى شعراوي وعبد العزيز فهمى في نوفمبر سنة ١٩١٨ كافية لأن يهيب المصريون جميعا بعد أن نسوا مصطفى كامل وعبد العزيز جاويش ورشيد رضا . متأخين متعاونين .

كانت صرخة لم يحسب (الانجليز) حسابها بعد أن هزمت تركيا وأصبح تنازلها عن أملاكها العربية حقيقة واقعة . وظن الإنجليز بعدها أنه قد خلص لهم هذا الركن من العالم . فبهتوا ولم يملكوأ إلا أن يصبوا الى صفوف الأمة ينادقهم ويدافعهم فقابلها المصريون جميعا وصدورهم مفتوحة فارتوت الأرض المقدسة بدمائهم ممتزجة فانبعث منها هذا المارد الذى ظل نائما قرونا طويلة . مارد القومية المصرية الصحيحة المنبعثة من نفسها . المخلوقة من ذاتها . لا للمصنوعة بيد أجنبية . فلم يكن القرن الماضى كله . بل والعشرون سنة الاولى من القرن العشرين سوى معركة واحدة متواصلة خاضها الإقباط بصبر وشجاعة كى يجعلون الشعب يؤمن بما يؤمنون . وأخيرا لاح النصر وكانت فرحة الإقباط به لا توصف . فقد أثر جهادهم الطويل واذنت صرخات المعلم يعقوب أن تصل الى آذاننا عبر السنين والأيام

فلم تكن وقفات المعلم رزق وراء على بك الكبير وصرخات المعلم يعقوب حنا ومدارس كيرلس الرابع ثم صرخات ثورة سنة ١٩١٩ إلا أجزاء من معركة متصلة ذات هدف محدد دائم هو هدف الاستقلال التام . وإذا كانوا الاقباط قد هزموا في مرحلة أو أكثر من مراحل هذا الكفاح إلا أنهم كانوا وما زالوا يحافظون على هذا الغرض الذى هو كالشملة المشتعلة التى تهديهم وتتوهم دائما نحو الهدف الاصيل . هدف الاستقلال التام فى ظل القومية الصحيحة .

وعرف سعد زغلول أن لا نجاح لهذه الحركة إلا إذا أخذ الاقباط مكانهم فيها فدعاهم فلم يترددوا وكتب سعد زغلول الى وأصف بطرس غالى وكان يقيم فى باريس منذ قيام الحرب — تلغراما يدعوهُ الى أن يأخذ مكانه الى جوارهم فأبصرهم مسكاً سلاحه . وجاؤا المتشككون أن يعيقوه فذكروه ان المسلمين قد قتلوا آياه منذ تسع سنوات فصرخ فيهم كما صرخ المسيح من قبل على لسان الاب وهو يقول لولده « أدخل وافرح معنا . لان أخاك كان ميتا فعاش . وكان ضالا فوجد » (١) .

وظهرت وحدة الامة صافية نقية وبدأت مظاهر هذه الوحدة حين وقف شيوخ الأزهر على منابر البكنائس كما وقف القسيس ورجال الدين الاقباط على منابر المساجد مباركين هذه الوحدة . منددين بالمحتلين . محرضين على التضحية والفداء من أجل الوطن . كما ظهر الصليب يعانق الهلال على الاعلام المصرية . وبدأت مظاهر هذه الوحدة أكثر من ذلك حين أخذت تبرعات المسلمين تنهال على الجمعيات القبطية فى المناسبات المختلفة فقد أقامت جمعية التوفيق القبطية معرضا لمدارسها كانت لجنته العليا مكونة من فتح الله بركات وعبد الرحمن فهمى ومصطفى النحاس ، وعاطف بركات ومحمد محمود خليل الى جانب سينوت حنا وصادق حنين وميريس حنا وغيرهم . كما أقامت الجمعية الخيرية القبطية سوتا آخر كانت لجنته مكونة من السيدات هدى شعراوي وشريفة رياض الى جانب أستر فهمى

(١) لوقا ١٥ : ٣٣ .

ويعا وروجينا خياط (١) واذا ما احتفل الحزب الوطنى بجنازة المرحوم محمد فريد اشترك جميع افراد الامة بها احتفالا شعبيا هائلا (٢) كما طافت لجنة الوفد المصرى بالبلاد لجمع التبرعات لنفقة اعضاء الوفد وكانت مكونة من فتح الله بركات ومرقس حنا وسينوت حنا ومصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى والاب مرقس سرجيوس .

فجمعت من مدينة الاسكندرية فى يوم واحد اربعة عشر الفا من الجنيهات ومن مدينة فاقوس ثمانية آلاف جنيها .

وكان من اثر هذا التضامن ان نشر المستر بوند القاضى السابق بالمحاكم المختلطة بيانا ينصح فيه حكومته بالتسليم بالمطالب المصرية . بعد ان اتحدت جميع عناصر الامة هذا الاتحاد المتين (٣) .

ولم تكف انجلترا عن سياستها التقليلية التى نجحت ايما نجاح فى القرن الماضى وهى سياسة التفرقة فأتجه معتمدها اللورد اللبى الى بطريك الاقباط يمينه بالحماية البريطانية له وللأقباط لو انتفضوا وتراجعوا . ورغم ما كان بين الاقباط وبطريركهم من جفوة نتيجة لما حدث بينهما منذ ابتداء وجود المجلس الملى حتى لقد نفى أكثر من مرة . فانه لم يتردد عن ان يأخذ مكانه الذى يحتمه عليه واجبيه الوطنى والدينى فرفض هذه الحماية كما رفضها غيره من اعيان الطائفة عندما عرضت عليهم . اذ لم يتورع الانجليز فى بعض الاوقات عن استغلال الصداقات الشخصية فى سبيل سياستهم . فقد قال المستشار الانجليزى لوزارة الداخلية لحبيب المصرى باشا مادام الاقباط يشكون من بعض تصرفات المسلمين فى الوظائف ام لا يكتب القبط لدار المندوب السامى يبالغون حمايتهم . فما كان من الرجل - رحمه الله - الا ان اجابه ردا حاسما فقال له « لنا من ضمائر مواطنينا . خير سياج يحمينا فنحن أبناء وطن واحد . نستطيع التفاهم مع بعضنا . أما أنتم فلا يعينكم الا مصلحتكم . فان استدعت هذه المصلحة عينها . أن تلعبوا دور المدافع لتفاخرتم بذلك على

(٢) جريدة الاهرام عدد ١٦/٢/١٩٢٠ .

(٣) جريدة الاهرام عدد ١٠/٦/١٩٢٠ .

(١) المقطم عدد ٧ يناير سنة ١٩٢٠ .

الملا . لقد عشنا معا . وليس لنا من يحمينا غير الله « (١) .

وفضل الاقباط ان يضطهدهم اخوانهم على أن يخونوا وطنهم . وما كان لـ اخوانهم في الوطنية أن يظلموهم فالمصريون جتبعوا حريصون على ما ورثوه من أخوة صادقة أمينة ووطنيتهم قدسية قدم النيل . فما دامت هذه الوطنية قد استيقظت فيهم فلن يعودوا لينقضوا هذه الوطنية أو يلطخوها بالوحل .

وتألف الوفد المصري الاول ومعظم أعضائه ممن اشتركوا قبل ذلك في حزب الأمة . وسمح له بالسفر الى باريس في ابريل سنة ١٩١٩ لغرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح فكان وداعهم يوما مشهودا غصت فيه الميادين والطرق بالآلاف المودعين وانضم اليهم الثلاثة المعتقلون في مالطة . ومن الاقباط الذين اشتركوا في هذا الوفد واصف غالى . وسينوت حنا وجورج خياط . ولكن الوفد لم يكد يصل الى باريس حتى وجد الرئيس ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية قد اعترف بالحمية البريطانية على مصر فكانت ضربة قاسية أصابت الوفد المصري في الصميم .

واستمر الوفد في باريس يطرق كل باب دون كلل أو ملل سنة كاملة وصلت الى مصر في اثنائها لجنة بريطانية برئاسة اللورد ملتر للوقوف على اسباب الاضطرابات المصرية . ولكن لما كان الوفد المصري الموجود في باريس هو الوحيد الذي أجمعت الأمة كلها — بما قدمته اليه من توكيلات أقبل جميع أفراد الأمة على توقيعها في حماس بالغ — على ترك مهمة المحادثة اليه وحده ولذا نظمت لجنة الوفد المركزية حملة نجحت في مقاطعة الأمة لجميع أفراد اللجنة .

وكانت هذه المقاطعة الاجماعية من الأمة للجنة ملتر هي التي دفعت انجلترا الى الاعتراف بالوفد المصري ودعته لفتح باب المفاوضات في صيف سنة ١٩٢٠ . ودارت مفاوضات طويلة حتى أوائل أغسطس انتهت بأن قدم الوفد البريطاني مشروع الذي عرف فيما بعد باسم مشروع ملتر ناقشه الوفد

(١) المذكرات الخاصة للسيد حبيب المصري باتن خاص من ورثته .

داخليا ورأى أن يعرضه على الأمة ليقول فيه رأيا .

وأعلن سعد زغلول على الأمة وجوب مقاطعة الحكم بأن لا يقبل أى مضرى تأليف وزارة فى ظل الاحتلال البريطانى ولكن حدث أن عرضت الوزارة على يوسف باشا وهبة (وكان مسيحيا) فى أكتوبر سنة ١٩١٩ فقبلها، فكان ذلك مثار سخط المصريين جميعا لا سيما وأن البطريك كان قد نصحه بعدم تأليفها . كما تقدم اليه وفد من الاقباط يطلب منه أن يرفض تأليفها فرفض مقابلته فكان من أثر ذلك أن اعتدى عليه فى ديسمبر من نفس السنة فكان أن تقدم قبطى هو عريان يوسف سعد أحد طلبة كلية الطب والذى قنبلة عليه وهو يمر بسيارته فى ميدان سليمان باشا وكان الجهاز السرى أثناء بحثه عن شخص يقوم بهذه المهمة أن تقدم هذا الطالب وطلب اختياره لهذه المهمة حتى لا يقال أن المسلمين قد اعتدوا عليه ولكن حدث أن نجا من هذا الاعتداء ، وإذا ما وصل الى مكتبه طلب رؤية هذا الشاب وسأله عن اسمه فأجابه (عريان يوسف سعد قبطى) فحكم عليه بالسجن عشر سنوات وقد حاول المحامى أن يخفف من الأمر أمام المحكمة بادعاء أن الشاب أراد نقط ارهاب الرئيس فكان يبادر بنفى الادعاء والتصريح بأنه القى القنبلة وهو ينوى قتله لا ارهابه (١) .

هذا فى الوقت الذى كان الوفد المصرى برئاسة سعد زغلول يطرق كل باب فأبدت الأمة رغبتها فى ادخال بعض التحفظات على المشروع وعرض الوفد المصرى هذه التحفظات على الوفد البريطانى فى نوفمبر من نفس العام فأتى ادخال أى تغيير على المشروع فتوقفت المفاوضات .

وحدثت بضع أمور داخلية فى الوفد المصرى لا تتصل بالقضية المصرية عن قريب أو بعيد أدت الى انفصال سبعة من أعضاء الوفد ووصولهم الى مصر فى ٢٧ يناير سنة ١٩٢١، وهذه الخاتمة ان دلل على شئ ففى تدل على أن القضية المصرية لم تأخذ من نفوس الاعضاء مكانا جيدا . وان المحافظة

(١) الكتاب المتنوع : على أمين ص ١٣٤ — ١٣٧ .

على كرامتهم الشخصية كانت ائمن لديهم من المحافظة على القضية المصرية .

وكان توقف المفاوضات سببا في عودة الاضطرابات من جديد وقيام المظاهرات فقايلها البريطانيون كما قابلوا المظاهرات الاولى بالعنف والقسوة حتى اضطرت الحكومة الى اغلاق المدارس .

وكانت عودة بعض أعضاء الوفد منشقين على الوفد الاول داعيسا لان تحاول إنجلترا اشعال نار هذا الخلاف فأرسلت في ٥ مارس ١٩٢١ بلاغا الى السلطان تبلغه فيه رغبتها في الغاء الحماية البريطانية وطلبت تعيين وفد مصرى رسمى للمفاوضة مع الحكومة البريطانية على أساس هذا الالغاء . وكان المعنى الواضح لهذه الدعوة العودة الى تجاهل الوفد المصرى الذى ما زال فى باريس تحت رئاسة سعد زغلول .

فدعا السلطان عدلى باشا الى تأليف وزارة جديدة تقوم بالمفاوضة وأسرع هذا الى تأليف الوزارة الجديدة وأبرق الى سعد زغلول بذلك فكان هذا دليلا على تسامحه عن الموقف السابق الذى أدى الى استقالة الاعضاء السبعة . فقابلهم فريق باريس بالدعاء لهم بالتوفيق وأسرع سعد زغلول بالعودة الى مصر وقامت الامة كلها تستقبله استقبالا ما زالت تذكره وتحدث به حتى الآن .

واذا كان سعد زغلول وصحبه قد وصلوا الى مصر فى الخامس من ابريل سنة ١٩٢١ فانه لم يعن بمقابلة السلطان أو تقييد اسمه فى التشريعات كما تقضى التقاليد آنذاك بل أسرع الى مقابلة الطيريك فى السابع من ابريل واستقبله هذا ومعه الاقباط جميعا بل والمسلمون أيضا وتبادلا خطبا كلها تحت على الاتحاد وبذلك ظهر لكل انسان ان هذه الدار المتواضعة التى تقع فى أحد الشوارع الضيقة من القاهرة أصبحت قبلة لجميع أهالى مصر سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين وان لا مكان لدخيل بينهما كما كانت جميع نداءات الوفد تحض على التمسك بأهداب هذا الاتحاد .

ولكن لم يكن ينقضى شهر ابريل سنة ١٩٢١ حتى ظهر الخلاف بين

الوزارة والوفد فقد طلب الثانى :

- (١) أن تكون له رئاسة الوفد الحكومى .
- (ب) أن تكون أغلبية أعضاء الوفد الحكومى من أعضاء الوفد المصرى .
- (ج) أن يصدر مرسوم سلطانى بتحديد مهمة الوفد .
- (د) إلغاء الأحكام العرفية والرقابة على الصحف .

وانكرت الوزارة هذه الأشياء وانقسمت الامة الى معسكرين الاول مع الوفد ينصر سعد زغلول والآخر مع الحكومة ورئيسها عدلى يكن . وسعى انساعون لأجل الصلح وحاولوا ان يوفقوا الى حل بصرون وحدة الامة ولكن دون جدوى .

ويلاحظ على هذا الخلاف شيان أولهما ان جميع من انشقوا على الوفد عندما كان فى باريس — الا اذا استثنينا حمد اناسل — قد انضموا الى 'المعسكر الوزارى . مما يدل على ان الخلاف الثانى كان متأثرا بالخلاف الاول . وانه يتعلق بما خيل اليهم جميعا أنه شيء من الكرامة أكثر ما يتعلق بمستقبل المناويزات القادمة ومستقبل البلاد 'لسباسبى وما كانت تبغيه من ضمان الوحدة .

أما الأمر الثانى فهو انقسام الاقطاب أيضا مع المعسكرين فلم ينضموا جميعا الى معسكر الوفد أو الى معسكر الوزارة ولو فعلوا لكان موقفهم غير طبيعى ولأمكننا أن ننعتهم بالطائفية بل انضم فريق منهم الى جانب الحكومة كيوسف سليمان وتوفيق دوس وهيب دوس بينما انضم آخرون كسينوت حنا ومرقص حنا وجورجى خياط الى جانب سعد زغلول . وهم جميعا وقفوا صفا واحدا فى المؤتمر القبطى سنة ١٩١١ مما يدل على ان اختلاف الرأى هو الذى يسيرهم كما هو رأيهم وليست الطائفية . وهذا الموقف وان كان غير جديد عليهم بل هو ما اثر عنهم فى كل حياتهم الماضية الا انه جدير بالتسجيل هنا أكثر من أى وقت آخر .

وسرعان ما تألف الوفد الرسمى فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ مكونا من عدلى يكن باشا رئيسا وحسين رشدى باشا نائبا للرئيس وعضوية اسماعيل

صدقى ومحمد شفيق وأحمد طلعت ثم يوسف سليمان .

ومما يؤخذ على هذا الوفد انه تألف على النحو الذى جرى عليه تأليف الوزارات قبل ذلك من وجود قبضى واحد يمثل الأقباط وهو موقف ما كان يجب أن يقفه عدلى يكن مطلقا . فقد اشترك الأقباط فى كل الخطوات السابقة دون النظر الى نسبة عددهم الى عدد المصريين أو الى نسبة ثروتهم كما ان رصاص الانجليز عندما أطلق على المتظاهرين لم يكن ليصيب الأقباط بنسبة عددهم الى عدد المصريين . بل وقفوا جميعا جنبا الى جنب ليتلقوا مصيرا واحدا امام الخطر الاجنبى فكان من الواجب أن تكون نظرة الحكومة الى مثل هذه الامور أوسع من نظرتها السابقة . فالحكومة مازالت تمثل حكومة اسلامية وهى التى تملك حق التصرف فى مثل هذه المواقف فكان يجب ان تبدى هذه النظرة المتسعة كى تظهر للعالم أجمع وللأقباط خاصة ان موقفها بعد الحركة الوطنية يختلف تماما عن موقفها قبلها .

وكان مظهر الخلاف بين الفريقين هذه الخطب النارية التى أطلقوها كل فريق على الآخر ينعتة بأقبح النعوت وبذلك نجح الانجليز فيما فشلوا فيه أولا من محاولة بث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد عن طريق الدين .

ولعل اظهر ما حدث آنذاك هو تقديم الحكومة لتسعة من الموظفين اعلنوا رأيهم فى هذا الخلاف معارضين رأى الحكومة الى المحاكمة التأديبية وهم صادق حنين وسلامة ميخائيل ووليم مكرم وأحمد خشبة ونجيب اسكندر ومحمود نهى النقراشى وزكى جبره وفؤاد شيرين وحسن أبو الفتوح فقضت بفسطهم جميعا .

وطالت المفاوضات بين الوفد الحكومى واللورد كيرزون حتى نوفمبر سنة ١٩٢١ وانتهت بالفشل بعد أن تبين المفاوضون المصريون ان الحكومة البريطانية لا ترغب فى شىء — كما كانت دائما — أكثر من استخلاص اعتراف مصرى بشرعية الاحتلال . فقد كان مشروعها الجديد — الذى دارت لمفاوضة على أساسه — خلوا من كثير من المزايا التى كان اللورد ملنز قد اعترف بها فى مفاوضاته الاولى . وكان موقفا طبيعيا من الحكومة البريطانية

بعد أن رأت أن الخلاف قد مزق وحدة الأمة وكان موقفنا يستحق أن يبادر رؤساء الفريقين لأجله إلى نسيان الماضي والعودة إلى الاتحاد يجسّابهبون بريطانيا . فكان موقفنا مخزيا حقا .

وكان هذا الموقف هو الذى حدا ببريطانيا إلى ابلاغ السلطان رأبها في أنها لا توافق مطلقا على فكرة الجلاء عن مصر بل تصر على الاحتفاظ بجيش بريطانى كى يحافظ على المصالح البريطانية وأهمها المواصلات بينها وبين ممتلكاتها فى الشرق الأقصى . خصوصا بعد أن غدت قناة السويس أهم حلقة من حلقاتها . وهى لا نرى سبيلا إلى معالجة الحال فى مصر إلا بعقد محالفة دائمة تظل فيها بريطانيا وصية على مصر فى كل أمورها والخارجية منها على وجه خاص (١) .

وقبل أن يمر شهر على هذا التبليغ اتهمت بريطانيا سعد زغلول وسبعة من أعضاء الوفد بأنهم يعملون على الإخلال بالنظام وطلبت منهم أن يسافروا إلى الريف والامتناع عن كل عمل سياسى وهم — عاطف بركات وفتح الله بركات ومصطفى النحاس وسينوت حنا ووليم مكرم وصادق حنين ومحمد عز العرب فبادر الآخيران إلى تنفيذ هذا الطلب إلا أن مقاومة الباقين دعت السلطة البريطانية إلى القبض عليهم ونفيهم إلى عدن ثم إلى جزيرة سيلش .

وكان هذا فى الوقت الذى استقالت فيه الوزارة ولم تتألف بعد وزارة أخرى . فكان اجراء قاسيا قصد به تحدى الأمة وأرهابها أولا ثم اعطاء الفرصة للفريق الآخر كى يتقدم بما يراه من مقترحات عملية بعيدة عن تأثير الزعيم . هذا التأثير الذى يصل إليه فى سهولة ويسر عن طريق خطبه التى كانت تجتذب الجماهير ولتستثيرهم . وكان الرجل حقا . خطيبا بارعا . وتمكن ببراعته هذه من امتلاك ناصية الجماهير وحركها كيف يشاء وكانت الجماهير من ناحية أخرى متعطشة إلى هذه القوة غير المنظورة التى تفيض عليها وتقودها .

(١) من اللورد اللبى إلى مظمة السلطان فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢١ .

فقامت المظاهرات صاحبة عنيفة قابلها البريطانيون بالنشدة وسقط كثيرون
صرعى رصاصهم. وهرعت طوائف الأمة الى السلطان تحنّج على هذا الاعتقال
وهذا العنف وبادر الاقباط من ناحيتهم فاحتجوا على طريقته الخاصة. فأعلنت
الجمعية القبطية الخيرية الكبرى عدم الاحتفال بعيد الميلاد فسرعان
ما وجد هذا الاحتجاج الصامت صداه في نفوس الاقباط فبادرت جمعية
الاقباط في مصر الجديدة الى الموافقة على هذه الخطوة وتلتها جميعات
دمياط والمنيا والسنبلاوين وطوخ النصارى وشبين الكوم وطنطا وغيرها .
وفي أول يناير سنة ١٩٢٢ أصدر القس بطرس عبد الملاك رئيس الكنيسة
المرقسية الكبرى بيانا بعدم المعايدة فكان ذلك بمثابة احتجاج طائفي صامت
أعلنه البطريق الذى شارك الأمة احتجاجها فكان اعلانا لهذا التضامن
المقدس الذى أصبح حقيقة لا سبيل الى الشك فيها .

وأصدر بقية أعضاء الوفد بيانا موقعا من حمد الباسل . ومحمد
محمود وويصا واصف وعلى ماهر وواصف غالى وأحمد لطفى السيد وجورج
خياط وعنوى الجزار وحافظ عفيفى ومراد الشريعى يستتكرون هذا الاعتقال
ويدعون الى عقد مؤتمر وطنى لتقرير الخطة الجديدة (١) .

وجاءت هذه الضربة المباغتة على رأس الشعب فأفقدته وعيه بعض
الشيء الا انه سرعان ما أفاق وتآلف وقد جديد من حمد الباسل وواصف غالى
ومرقص حنا . وويصا واصف ومراد الشريعى . وجورجى خياط (٢) . اجتمع
ليعلن حلوله مكان الوفد المعتقل وأصدر بيانا الى الأمة دعاها الى عدم
المعاونة مع المحتلين . وبين لهم في هذا البيان أوجه تنفيذ هذه السياسة
الجديدة وهى الاضراب عن تشكيل الوزارة وعدم التعامل مع البريطانيين
سواء كانوا أفرادا أو هيئات بمقاطعة البنوك البريطانية والسفن البريطانية
والتجارة البريطانية .

(١) المقطم ١٠ يناير سنة ١٩٢١ .

(٢) أهرام ٢٢ يناير سنة ١٩٢١ . — وآخر ساعة عدد ٢١٧١ فى
١٩٢٦/٦/٢ .

وكانها هذا الصراع المصرى البريطانى تد ايتظ روح العناد فى الشعب واستعد لحركته القادمة . ولم ترهبه هذه القوات البريطانية التى انبثت فى الشوارع (للمحافظة على الامن) خصوصا بعد ان قبضت السلطة البريطانية على موقعى هذا البيان فى الثامن والعشرين من يناير سنة ١٩٢٢ وارسلتهم الى ثكنات قصر النيل ولكنها خافت تبعة هذا العمل فأسرعت باطلاق سراحهم فى اليوم الثانى . وكان هذا التحدى من جانب انجلترا ومقابلة التحدى بمثله من جانب الشعب سببا فى تأخير تأليف الوزارة الجديدة . ثم اصدار تصريح ٢٨ فبراير .

وقابلت الامة هذا التصريح بما هو جدير به من الاستنكار وقامت المظاهرات من جديد تستنكر قيام الوزارة واستنادها الى هذا التصريح الاعرج وكذلك اقرارها بحق انجلترا فى ابعاد المصريين . ولم نكد البلاد تهدا بعض الشيء حتى بدت وطنية الاقباط مرة أخرى حين قاموا يستنكرون حق انجلترا فى حمايتهم اذ عرفوا تماما ماذا تعنيه انجلترا بكلمة (الاقليات) . واصدر الاستاذ عزيز ميرهم بصفته سكرتيرا للحزب الحر الديمقراطى بياناً يرفض فيه حماية انجلترا للاقليات . اذ (لا تخالف بين سكان مصر الا من جهة العقيدة اما واجباتهم المدنية فهى واحدة) (وتمسك انجلترا بحماية الاقليات لا مسوغ له على ما فيه من العدوان على الاستقلال . فلا محل للاحتفاظ به) .

وشيء آخر جدير بالبحث أيضا . وهو اعتراف انجلترا باستقلال مصر . فقد دخل البريطانيون مصر سنة ١٨٨٢ يوم ان كانت البلاد تحت السيادة العثمانية . واعترف الانجليز أنفسهم أكثر من مره ان هذا الاحتلال مؤقت وانه سوف ينتهى اذا ما استقرت الاحوال فى مصر . فهذا الاحتلال بموجب هذا الاعتراف غير شرعى . ولا يعرف القانون الدولى سوى السيادة العثمانية التى كسبتها تركيا بحق الفتح فى سنة ١٥١٧ واعترفت بها مصر فى فرمانى سنة ١٨٤١. فاذا ما انتهت الحرب العالمية الاولى بهزيمة تركيا . ووقعت معاهدة سيفر التى تنازلت بها عن سيادتها على كل البلاد العربية

فكان ذلك معناه ان مصر قد استقلت فعلا بمجرد توقيع معاهدة سيفر . ولم يكن ينقصها غير اعتراف الدول بهذا الاستقلال وهذا الاعتراف موجود ايضا ما دامت انجلترا وفرنسا ومن معها من الحلفاء قد وقعوا على هذه المعاهدة . فكان هؤلاء المصريون ماسعوا الاليأخذوا من انجلترا اعترافا بشيء سبق أن اعترفت به من قبل . فكان واجبه أن يكون السعى لتنظيم انهاء الاحتلال غير الشرعى . فرضاؤهم بتصريح ٢٨ فبراير واشتراكهم في وزارة ثروت باشا التى تألفت على أساس تنفيذ هذا التصريح اعتراف بشرعية الاحتلال البريطانى وشرعية وجود البريطانيين في مصر .

وفي ١٥ مارس صدر مرسوم باعلان استقلال البلاد واتخاذ السلطان لقب مصر . كل ذلك وما زالت الأحكام العرفية البريطانية مفروضة على البلاد والمحاكم العسكرية تزاوّل عملها في محاكمة المصريين فكان استقلالا فريدا في بابيه .

وفي الخامس من ابريل الفت الوزارة (لجنة الدستور) مكونة من ثلاثين عضوا برئاسة حسين رشدى باشا واشترك فيها خمسة من الاقطاط هم يوسف سابا والانبيا يؤنس مطران قننا وقلينى فهمى واليباس عوض وتوفيق دوس .

ركان تأليف اللجنة عنوانا جديدا على أن الاقطاط لم يعودوا عنصرا منفصلا كما ان عددهم في اللجنة كان دليلا ايضا على انقضاء خرافة نسبة عددهم في الهيئات التى يشتركون فيها . وتوخى الحكومة سياسة البحث عن الكفاءات مهما كانت ديانة اصحابها وهى السياسة الجديرة بالاتباع في امة نبغى الحياة الحقيقية والسعى الحقيقى نحو المستقبل المجيد .

وقوبل تأليف هذه اللجنة بموجة من الاستنكار فقد احتجت عليها نقابة المحامين ورفض النقيب الاشتراك فيها عندما عرضت عليه (١) اذ كانت الامة تأبى الا أن يشرع الدستور جمعية وطنية منتخبة من الامة . وهى

(١) المقطعم في ١٣ ابريل سنة ١٩٢٢ .

خطوة طبيعية ولا شك ، ولكن الوزارة رفضت هذه الفكرة بدعوى أن البلاد التى شرعت دساتيرها بواسطة جمعيات وطنية كانت فى ظروف استثنائية زالت فيها السلطة الشرعية وحلت محلها سلطة مؤقتة على نحو ما حدث فى الثورة الفرنسية .

وان الظروف التى كانت تجتازها مصر لم تكن استثنائية وأنه قد جرى العرف فى مصر على أن تصدر القوانين من ولى الأمر وحده (١) .

وفى أثناء مناقشتهم الدستور ثبتت فكرة تمثيل الاقليات بعدد من انواب يناسب عددهم فى مصر ودافع عن هذه الفكرة جميع أعضاء اللجنة من الاقباط ونشرت الجرائد الخبر فأُسرع الاقباط الى استنكاره فكان موقفا يضاب الى مواقفهم الوطنية السابقة . ورغم ان هذا المطلب كان مطلباً أساسياً فى مؤتمر اسيوط سنة ١٩١١ الا ان الاقباط كعادتهم دائماً لم يذكروا الا وطنهم وما يجب عليهم نحوه . وقامت جمعياتهم تستنكر هذه الفكرة وأصدر القمص باسيلوس الوكيل العام للدار البطريركية بياناً (بأنه لا يوجد فى مصر الآن قبطى ومسلم بل الجميع مصريون على السواء وان القول بأقلية واكثرية ليس من شأنه الا العمل على التفريق والانقسام) (٢) كما اجتمع عدد كبير من الاقباط بالكنيسة البطريركية الكبرى وقرروا ان طلب تمثيل الاقليات الدينية فى المجالس النيابية بدعة ضارة سواء بتلك الاقليات أو المجموع المصرى . وموجبة للمزيق الوحدة . التى يجب ان تظل قائمة (٣) وايد هذه القرارات اقباط نادى رمسيس واقباط مديرية البحيرة والمحلة الكبرى والمنيا واسيوط وجرجا وبور سعيد وسمالوط والبلينا وطنطا والزقازيق وبنها والفيوم وغيرهم . ورغم قيام بعض المسلمين داعين الى وجوب تمثيل الاقليات نطهنا لهم على مستقبلهم فى مصر (٤) الا أن الاقباط لم يكن يعنيه هذا الاطمئنان بقدر ما يعنيههم المحافظة على وحدة الأمة امام الاعداء . اذ ان الأمة كلها فى

(١) مذكراتى ص ٢٧ .

(٢) المقطم فى ١٧ مايو سنة ١٩٢٢ .

(٣) المقطم فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢٢ .

(٤) المقطم فى ٢٢ مايو سنة ١٩٢٢ .

معركة أمام عدو لا يتورع عن استعمال أى سلاح ما دأى يؤدى الى تحطيم هذه القوة التى وقفت فى وجهه .

ولكن هذا لا يمنع من أن أقول أن تمثيل الاقلية بالنسبة لعدددهم فكرة لست بخاطئة كل الخطأ خصوصا اذا استقرت الاحوال ولم يعد هناك عدو يخشى تدخله فقد أخذ بهذه الفكرة الدستور البلجيكى ضمنا لسماع صوت الاقلية خصوصا اذ كانت هذه الاقلية لا تسكن اقليما معيناً أو تكون الاغلبية فى اقليم آخر الأمر الذى يمكنها من انتخاب من يعرض بعض شئونهم الخاصة .

أما اذا كانت هذه الاقلية العددية تختلط بالأغلبية وتشارك معها فى جميع المصالح فلا بأس مطلقاً من تمثيلها بعدد كاف من النواب يتناسب مع نسبتهم الى مجموع السكان . وليس فى هذا مطلقاً ضرر على الوحدة فنواب هذه الاقلية أقدر ولا شك على شرح مشاكل الخاصة التى لا تستطيع الاغلبية فهمها مهما خلصت نية أفرادها وتجردت من الأغراض .

ولم يكن هذا بمانع من استمرار لجنة الدستور فى عملها لأجل اقرار احكامه من أن تسنم الحكومة فى سياستها التى ترمى الى الحد من الحرية الشخصية وحرية اداء الراى . فعطلت جريدة الاهالى انى كانت لساناً من السنة الوفد المصرى . كما استمرت المحاكم العسكرية فى اجراءات محاكمة المقبوض عليهم فى المظاهرات فكان من الواضح ان هناك حكومتين تعمل كل منهما فى ناحية وتنفذ كل منهما قانوناً غير الذى تنفذه الاخرى . وهذا لا يمنع من تعاونهما فى بعض الاحيان اذا ما اتحدت الغاية فى ارهاق الوطنيين ولذا اصدر الوفد المصرى الجديد بياناً الى الامة يصف فيه الوزارة بأنها ما زالت تعمل على مصادرة الحريات العامة ويتهمها بأنها تتعاون مع الحكومة البريطانية على حكم البلاد بالحديد والنار ولم كن البيان شديداً للهجة أكثر من البيانات السابقة التى اصدرها الوفد كما أنه كان اتهاماً للوزارة أكثر مما هو اتهام للبريطانيين ، ولكن بادرت السلطة العسكرية البريطانية عقب اذاعة البيان فى ٥ يوليو الى القبض على أعضاء الوفد وهم حمد الباسل ، ومرقس حنا وواصف غالى ومراد الشريعى وويصا واصف وجورج خياط وعلوى الجزار وقررت محاكمتهم أمام محكمة عسكرية وكان مجرد سكوت الوزارة على اجراءات الحاكم العسكرى البريطانى يلقي الريب

على سلوكها بل على وطنيتها . وقدم الأعضاء فعلا الى المحكمة في التاسع من اغسطس بتهمة انحس على كراهية الحكومة واحتقار حكومة جلالة ملك مصر . فكان من الأجدر ولا شك أن يصدر أمر التبنس من الوزارة المصرية ليحاكم المتهمون امام محكمة مصرية .

وبعد محاكمة لم تستمر أكثر من جلسة واحدة صدر الحكم عليهم جميعا بالاعدام . فتهتف مرقس حنا بصوت جهورى رددته قاعة المحكمة « تحبنا مصر » . بينما تقدمت والددة واصف غالى لتهمس في أذن ولدها (اذكر اسم أبيك) .

ما أروعه من موقف لهذه السيدة التى رأت زوجها يسقط مدرجا بدمائه على درجات وزارة العدل منذ تسع سنوات ليس غير — من أجل مصر ، وها هى تسمع بأذنها حكم الاعدام على ولدها من أجل مصر . ان كل مصرى يا سيدتى ليتمنى أن يكون ولدك .

ولم يلبث حكم الاعدام أن استبدل في نفس المحكمة بالحبس سبعة أعوام مع غرامة قدرها خمسمائة جنيه لكل منهم . وزج بهم في السجن ليعاملوا معاملة المجرمين العاديين بعد أن رفضوا جميعا دفع الغرامة . ومن مهازل القدر أن يصدر هذا الحكم في اليوم الثانى من معاودة لجنة الدستور الاجتماع بعد الاجازة .

ولم يكن هذا الحكم ليمنع غيرهم من التقدم لقيادة الصفوف فتألف الوفد المصرى الثالث من المصرى السعدى . والسيد حسين القصبى والشيخ مصطفى القاياتى وفخرى عبد النور ونجيب اسكندر وراغب اسكندر ونجيب الغرابلى (١) .

ولم يكد يصدر هذا الحكم حتى أسرع السلطات البريطانية ايضا وقرنت هذا الاجراء القاسى باجراء يضاهيه في القسوة وهو القبض على اثنين من أعضاء الوفد الثالث هم الشيخ مصطفى القاياتى وفخرى

(١) المقطم ٢٨ يوليو سنة ١٩٢٢.

عبد النور . ولم يكاد يستقران في قصر النيل حتى تألف الوفد الرابع من عبد الستار الباسل . ومحمود فهمى النقراشى وحسن يس . فاعتقلوا بدورهم كما عطلت جريدة الاهرام وبذلك ظهر المصريون جميعا اقباطا ومسلمين في هذه الفترة القاسية مثلا للتضحية والفداء من أجل مجدد الوطن وتألف الوفد الخامس من المصرى السعدى وحسين القصبى ومحمود حلمى اسماعيل وسلامة ميخائيل وعبد الحليم الببلى فاعتقلوا كذلك .

وكان الوفد يحرص في كل مرة على أن يظهر تضامن الامة فكان الاقباط دائما يكونون نسبة كبيرة من أعضائه لا يرهبهم عن أخذ مكانهم سجن أو اعتقال ولا يكاد الوفد يؤلف حتى يبادر فيزور البطريرك (١) حيث يجد أعضاؤه كل ترحاب . وحيث يتلقون بركات البطريرك ودعواته لهم بالتوفيق والنجاح .

وفي هذا الوقت الذى كان فيه الاحرار يساقون الى السجون فريتا اثر فريق كان غيرهم يجتمع في حرية مطلقة وظهرت نتيجة هذه الاجتماعات وهذه الحرية في ظهور حزب الاحرار الدستوريين وفي انشاء جريدة السياسة لتكون لسان حال هذا الحزب . وعرضت رئاسة هذا الحزب على عدلى يكن باشا فقبلها .

وفي خلال هذه المدة والت لجنة الدستور اجتماعاتها وتوالت على مصر وزارتان الاولى وزارة توفيق نسيم ثم الوزارة الثروتية في نهاية نوفمبر سنة ١٩٢٢ ثم وزارة يحيى ابراهيم التى تألفت في ١١ مارس سنة ١٩٢٣ وكانت قد عرضت على عدلى يكن قبل ذلك فرفض تأليفها قبل الغناء الاحكام العرفية .

وكان من الواضح أن انقسام الامة هذا الانقسام المريع وعدم شعور جماعة الوزارة ومن معها بما تقاسيه البلاد من مصادرة الحريات وسلسلة الاعتقالات والمحاكمات البالغة منتهى العنف هو الذى أوحى التشدد الى الانجليز نى مراقبة أعمال لجنة الدستور فأصروا على أن لا ينضم الدستور الجديد أى

(١) المقظم ٨ يناير سنة ١٩٢٢ .

اشارة الى السودان . ولو كانت هذه الاقلية الوزارية تملك في ذلك الوقت ذرة من الروح الوطنية لشاركت الامة محنتها وامتنعت عن العمل في اتمام الدستور ووقفت من الانجليز موقفا سلبيا ولتغير وجه التاريخ .

وأخيرا صدر الدستور بعد ان نص على أن تكون مصر ملكية دستورية يتولى الملك رئاسة سلطتها التنفيذية على أن يزاول سلطته بواسطة وزرائه الذين يكونون مسئولين امام البرلمان المكون من مجلسين . أحدهما مجلس النواب المنتخب والآخر مجلس الشيوخ ذو الخمسين المعينين .

والغريب ان هذا الدستور الذي تباهى واضعوه آنذاك بأنه جاء وقتا لأحدث النظم الدستورية لم يلق منهم غير النقد المر العنيف حين فشلوا في الحصول على أية أغلبية برلمانية في ظله . فقد وصفه عبد العزيز فهمي بأنه ثوب فضفاض . كما وصفه اسماعيل صدقي بأنه لا يلائم الاحوال الاجتماعية والاقتصادية العامة في مصر خصوصا من حيث التعليم ونوع الثروة العامة وتوزيعها فاتهموه بأنه هو الذي ساعد على خلق الاوتوقراطية البرلمانية التي نعم بها الوفد المصري (٣١٥ نائبا) والتي أصبحت فيما بعد سببا من اسباب فساد الحال . والامر في الحقيقة لا يعود الى هذا الدستور بتدر ما يعود الى الذين وضعوا الدستور والظروف التي وضع فيها، فقد أبى واضعوه الا أن يعملوا بينما كانت الامة مضرجة بدمائها تن من الم الظروف الاستثنائية التي تعانيها وظنوا ان هذا الدستور سوف يوصلهم الى مراكز الحكم والزعامة ، فلما جاءت الانتخابات أبت هذه الامة الواعية الا أن تكيل لهؤلاء الناس الصاع صاعين فأثبتت نهم حيويتها كما أثبتت بطولتها ومنحت ثقتها لمن كان في السجون والمعتقلات . ومن وقفوا معها في وجه المحتل لا يرهبهم أعدام ولا سجن ولا اعتقال فكان موقف الامة من هذا الفريق موقفا جديرا بالاعجاب حقا . ان دل على شيء فهو يدل على .! في طاقنها من حيوية كامنة ما زالت مختبئة بها منذ عهد أحمدى واخذت تنتهز كل فرصة لتظهر كما فعلت أيام دقديانوس . وأيام تيودوسيوس وأيام المأمون . وأيام سيف الدين قلاوون .

وعلى اثر صدور الدستور أطلق سراح المبعدين في سيشل . وسمح لهم بالعودة إلى الوطن . وألغيت الاحكام العرفية في يوليو . ووصل سعد زغلول

في منتصف سبتمبر ليقود المعركة الانتخابية .

وكان صدور الدستور وقانون الانتخاب عملا تشريعيا ناقصا خصوصا وقد وضعا موضع التنفيذ فورا دون أن يصدر قانون بنحسديد الجنسية المصرية . وكان هذا خطأ دستوريا فاحشا مما سمح لبعض الأجانب أن يتقدموا لتقيد أسمائهم في الكشوف الانتخابية بل الى ترشيح أنفسهم لعضوية البرلمان كما فعل الشيخ عبد العزيز جاويش التونسي (١) بل بلغت به الجراة أن يحاول رفع قضية على الوزارة من أجل اثبات حقه في قيد اسمه بجدول الانتخاب استنادا الى الدستور (٢) ولم تتدارك الهيئة التنفيذية هذا الامر الا في سنة ١٩٢٦ حين صدور قانون الجنسية الاول .

وهنا يحق لبعض الناس أن يسألوه كيف أجاز الوفد لنفسه أن يخوض المعركة الانتخابية وهو لم يعترف بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وبالتالي لا يعترف بكل ما ترتب عليه من صدور الدستور وقيام الحكم النيابي .

ولكن الوفديين يقولون ان الدستور لم يصدر نتيجة لتصريح ٢٨ فبراير ، اذ لم يشر الى هذا التصريح في مقدمته . بل مصر استقلت منذ توقيع تركيا لمعاهدة الصلح . وتنازلت فيها عن كل أملاكها العربية ومنها مصر . وبذلك أصبحت مستقلة قانونا وليس هناك ما يمنع صاحب الامر في مصر أن يعلن هذا الاستقلال وهذا ما تم فعلا عندما أعلن سلطان مصر دولة مستقلة ذات سيادة (٣) وقد تم هذا في الخامس عشر من مارس سنة ١٩٢٢. فاتخذ لنفسه لقب ملك ثم شاء أن يصدر بعد ذلك دستورا يشترك به الشعب في تحمل المسؤولية . فليس هناك إذن ما يمنع من اشتراك الوفديين في الانتخابات بل في الحكم ما دام هذا النوع من الحكم لم يأت نتيجة لتصريح ٢٨ فبراير .

وكسب الوفد المعركة ونجح ٨٨ ٪ من مرشحيه ولم ينجح من زعماء

(١) المقطم في ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٣ .

(٢) أهرام ١١/١٠/١٩٢٣ .

(٣) خطبة سعد زغلول باشا في نادى سيروس في ٢٣ ديسمبر سنة

١٩٢٤

الخصوم سوى محمد محمود باشا وبعض أفراد من الحزب الوطنى. والمستقلين . وهو نجاح لم يكن الوفديون أنفسهم يتوقعونه . وما لا شك فيه أن أغلبية الاقباط كانوا كغيرهم من أفراد الأمة قد أعطت أصواتها للوفديين وبلغ نصيب الاقباط من مراكز النيابة سبعة عشر نائبا وتسعة شيوخ ومن الطبيعى أن أغلبية ناخبهم كانوا من المسلمين ولكنهم لم يراعوا فى انتخابهم مسألة الدين مطلقا . ولا يستطيع أحد أن يدعى أن نجاحهم كان فى المدن حيث الطبقة المتعلمة . التى تستطيع هضم المساواة بسهولة بل انتخب منهم اثنان فى القليوبية وهى من المديرىات التى كانت نسبة الاقباط فيها نسبة ضئيلة جدا ومما يجب أن نلاحظه أنه لم يكن قد مضى غير أربع سنين على بدء الحركة الوطنية مما يدل على استعداد المصريين دائما لطرح العواطف الدينية فى سبيل المصلحة القومية . مما يؤيد ما سبق أن ذكرناه فى أكثر من موضع من عدم تأثر المصريين بالنعرة الدينية واعتقادهم أن اختلاف الدين بين المصريين لا يعدو أن يكون نوعا من اختلاف الراى بين الأفراد . والف سعد زغلول الوزارة فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ فأدخل فيها للمرة الاولى وريرين قبطيين هما مرقس حنا وواصف غالى وكلاهما ممن حكم عليهم بالاعدام واستبدل به الحبس سبع سنوات .

وكان سعد زغلول فى هذا العمل جريئا حقًا . إذ أنه ضرب المثل أن المناصب لا تحتاج الى نسب معينة من كل طائفة ما دامت الأمة قد أثبتت فى كل المناسبات الماضية أنها كل واحد يبذل نفسه على مذبح التضحية والفداء . كما أنها أيضا فى احتياج الى الكفاءات أينما كانت ومهما تكون ديانة أصحابها وعبر سعد زغلول عن هذه الروح الجديدة فى خطبة القاها فى ١٣ مارس سنة ١٩٢٣ حين قال « أما اتحاد العناصر فهو بحمد الله حاصل بين المسلمين وغير المسلمين من الوطنيين إذ أصبحوا جميعا مرتبطين أشد ارتباط برباط الوطنية وأصبح كل فريق يرى أن مصلحة الوطن قبل كل شئ وفوق كل اعتبار » (١) .

ولم يكد يمضى بضعة أيام على تأليف الوزارة حتى أثبت أحد الوزيرين

(١) خطبة سعد زغلول باشا فى نادى سيروس فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

القبطيين تأصل المصرية فيه وقوتها حين أصدر أمرا بجعل اللغة العربية هى لغة التخاطب الوحيدة بين مختلف ادارات وزارة الاشغال وكانت حتى ذلك الوقت تدور بالانجليزية، كما أمر بإزالة جميع اللغات الانجليزية واستبدالها لافتات مكتوبة باللغة العربية فقط . كما أصدر أمرا بوقف العمل فى مقبرة توت عنخ آمون التى كانت قد اكتشفت قبل ذلك ببضعة أشهر وكان صاحب امتياز الحمر هو اللورد كارنافون البريطانى ووكيله فى العمل المستر كارتر لما حدث بين الطرفين من خلاف ولم يحاول المندوب السامى التدخل فى هذا الخلاف وهو أمر لم يكن يحدث قبل ذلك مطلقا .

وقد كان يجدر بسعد أن يسير فى طريق المساواة حتى نهايته فهو يعلم أولا أن الإقباط يتطلعون الى المساواة الكاملة منذ سنة ١٩١١ وأنهم كانوا يتمتعون بهذه المساواة لولا التفرقة التى أوجدها البريطانيون خلال حكمهم الأسود وبدأ سعد بالسير فى الطريق العملى بنعيين وزيرين قبطيين فى وزارته . فكان يستطيع أن يسير فى الطريق . بأن يبدأ يشغف بعض المناصب مثل المديرين ووكلاء المديریات ونظار المدارس العالية والثانوية وأمثالها ببعض الإقباط وبذلك يضع الحجر الاخير فيما بدأ به من أشعار الجميع بأن الكفاءة وحدها هى التى تدفع بالشخص الى المنصب . وكان سعد زغلول هو الوحيد الذى يملك القوة الشعبية التى تؤهله لأن يضع هذا الحجر ولم يكن هناك آخر يستطيع أن يخطو هذه الخطوة . وهى هنة لابد أن نأخذها على الرجل .

كأنما أبت الأقدار الا أن تترك فخر تحقيق بعض هذه المساواة الى بطل آخر هو عبد الرازق السنهورى عندما كان زيرا للمعارف وحمل اليه نبأ حرمان الإقباط من الترقى الى مناصب نظار المدارس الثانوية (لأن العادة لم تجر على ترقيةهم الى مثل هذه المناصب) مما أن سمع بذلك حتى انتفض انتفاضة مصرية وأمر بإلغاء هذه التفرقة غير القانونية وصرخ فى مستشاره ان لا أقباط ولا مسلمين فى مصر ولست بالمجرم الذى يحرم مصريا مما يستحقه بسبب دينه . فكان موقفا تسجله القومية المصرية لهذا البطل .

وما زال كرسى البطولة شاغرا ينتظر البطل الذى يجعل نصوص الدستور حقيقة واقعة يبادر فيكمل المساواة التامة فى جميع مناصب الدولة أمام جميع

المصريين فيكمل بذلك صرح القومية الصحيحة فيستحق بذلك تقدير الوطن اما عن منصب الوزير فيجب الغاء هذا التقليد وان تختار الوزارة الاقباط لكثافتهم في الوزارة النى يعينون فيها دون مراعاة الى عدده سواء كان واحد او اكثر .

أما عن الشؤون القبطية وغيرها من شئون الاقليات الدينية فمن الانضل انشاء (وزارة الاقليات الدينية) وجعل المجالس الملية (بعد تعديل تكوينها لتمثل جميع أبناء الملة في جميع أنحاء البلاد لتكون بمناسبة مجالس استشارية للوزير الذى يخضع لاشراف مجلس الامة كغيره من الوزراء وتتكون ميرانية هذه الوزارة من ايراد أملاك هذه الاقليات .

أو أن يستبدل بوزارة الاوقاف وزارة الشؤون الدينية ويعين لها وكيل من بين أبناء الاقليات ليتعاون مع أعضاء المجلس الملى — بعد أن يعدل تكوينه وتشرف الهيئة التنفيذية على انتخاباته فيصبح المجلس الاعلى للشؤون غير الاسلامية .

ونعود بعد ذلك الى موضوعنا فنقول ان انجلترا انتهزت فرصة اعتداء بعض المصريين على سردار الجيش المصرى (الديقطانى الجنسية) لتقدم الى الحكومة المصرية انذارا تطلب فيه غرامة قدرها نصف مليون جنيه والموافقة على توسيع رقعة ارض الجزيرة فى السودان من ٣٠٠ الف فدان الى ما لا نهاية من الامدنة ثم الوعد بقمع كل مظاهرة شعبية بكل شدة علاوة على اعادة كل وحدات الجيش المصرى من السودان على أن يتم ذلك بأمر يصدر خلال أربع وعشرين ساعة (١) وقبلت الوزارة الوفدية من هذه المطالب ما يتعلق بالحادث ورفضت بقيتها مما أدى الى استقالة الوزارة . وكان الاعتداء الاول على الدستور حين حل مجلس النواب وتولت الامر وزارة من الاقلية التى لم يكن أعضاؤها ممثلين فى المجلس . فكان طبيعيا ان يكون المتآمرون بالدستور ممن نالهم الضرر من هذا العهد ومعهم الانجليز الذين وقفت الوزارة الوفدية دون تدخلهم فى الشؤون المصرية . والملك الذى أحس

(١) الكتاب الاخضر بشأن السودان ص ٢٧ و ٢٨ .

بشدة وطأة العهد الجديد بالحسد من سلطانه ثم هؤلاء الذين لم يتجسّوا في الانتخابات . وتمكن هذا العهد من أن يجعل الوزارة من نصيب هؤلاء الذين لم يكونوا يحملون بها في ظل الدستور وأن يجعل الانجليز يعيدون تدخلهم في الشؤون المصرية كما كان الحال من قبل . ويعيد الى الملك بعض سلطانه التي سلبه الدستور اياها . ولذا تكرر الاعتداء على الدستور أكثر من مرة . ومن الغريب ان كل اعتداء على الدستور كان يقرن بأساءة معاملة الاقباط بالحد من تعيينات الاقباط وترقياتهم . وما كان الاقباط ليأبهون بهذه الصغائر التي تنم عن عقول مصدريها أكثر مما تنم عن سياسة مرسومة . كما أن وطنيتهم كانت أعلى من أن تحفل بهذه الصغائر . فصدر في فبراير سنة ١٩٣٤ أيام وزارة عبد الفتاح يحيى باشا منشور وقعه وكبل وزارة الداخلية . يحتم على راغبي بناء الكنائس الحصول على ترخيص خاضع لشروط خاصة (١) وهو ولا شك منشور باطل لانه صادر من موظف عمومي لا يملك سلطة التشريع . هذا الى كونه لا يتفق مع الدستور الذي كفل حرية الاعتيدة . كما ساوى بين جميع المصريين في الحقوق والواجبات .

ومن الغريب أن تلجأ الوزارة حديثا في اجابة رسمية على سؤال لأحد أعضاء مجلس الشعب في هذا الشأن الى المغالطة فتذكر ان الاذن الذي يجب أن تحصل عليه البطيركية لبناء كنيسة ما يعود الى أيام السيادة التركية اذ نص عليه (خطى همايون) الصادر في سنة ١٨٥٦ من أجل حقوق المسيحيين من رعايا الدولة . فمصر تملك شخصيتها المستقلة منذ اتفقت لندن اللذين عقدهما محمد علي باشا ولم تكن القوانين التركية تسرى على مصر في قليل أو كثير . كما ان خطى همايون لم ينص على شيء من هذا مطلقا ، ولكي لا اتهم أنا أيضا بالمغالطة الجأ الى نشر نص هذا الخطى في آخر الكتاب ؟؟ .

ولكن أين هذا الاعتداء اليسير على الدستور من العمل الذي قامت به هذه الوزارة والتي قبلها من الغاء الدستور نفسه ووضع دستور جديد منتقض سلطة الأمة بحجة القضاء على الاوتوقراطية البرلمانية (١) وفي ابريل

(٢) مجلة الايمان عدد ديسمبر سنة ١٩٥١ ص ١٦٤ .

(١) مذكراتي ص ٤٦ — ٤٩ .

سنة ١٩٤٠، صدر قرار وزارى يمنح المدرسين الاقباط من تدريس اللغة العربية حتى وان كانوا متخرجين فى قسم اللغة العربية لكلية الادب فدفنوا بعدد كبير منهم الى التعطل دون ما ذنب سوى قبطيتهم وأبلغ هذا القرار الى المناطق فى ابريل سنة ١٩٤٠ يحمل توقيع وكيل المعارف المساعد وما كان الاقباط ليحفلوا بأمثال هذه الصفائر التى لا تصدر الا عن نفوس صغيرة .

وفى سنة ١٩٣٦ تعقدت الظروف العالمية وبدت الحرب شريفة الوقوع فأرادت انجلترا أن تطمئن الى مركزها فى مصر اذا وقعت الواقعة وأبدت استعدادها للمفاوضة من أجل المسألة المصرية فتألفت الجبهة الوطنية التى رأسها رئيس الوفد المصرى وأغلبية أعضائها من أعضائه وانتيت الى عقد معاهدة الزعفران التى اعتبرها الوفد نهاية سعيه وجهاده وإذا أصبح مستقبل الوفد بعد ذلك يختلف عن ماضيه اختلافا كبيرا فأصبح همه الاحتفاظ بالحكم بأى ثمن وكان ذلك عن طريق ارضاء الأتصار فأصبحت الحكومة ومناصبها ومناقصاتها وأراضيها وأملاكها نهبا لهم . وأصبح الدخول فى عضوية الوفد أو الترشيح باسم الوفد لا يتم الا للقادرين بعد دفع (الثمن) الذى لا بد أن يكون باهظا بقدر الامكان . على أن يسترد بعد ذلك أبهظ مما دفع أضعافا . ومنذ هذا الوقت شعر الاقباط ان الجهاد السياسى قد أصبح ملونا فأنصرفوا يهتمون بمصالحهم الخاصة وشئوبهم الطائفية .

ولكن فساد الادارة السياسية وانتشار الرشوة وكذلك فساد الأحزاب وضايح المصلحة الوطنية فى زحمة المنافع الشخصية هو الذى ادى الى قيام ثورة الجيش سنة ١٩٥٢ ونجح الجيش فى ثورته بفضل تعاضيد الأمة وحسن تقبلها للدعوة .

وليس أدل على هذا الفساد من ظهور الاخوان المسلمين الذين حاولوا اعتمادا على تنظيماتهم السرية — القبض على السلطة عن طريق القتل وسفك الدماء ولكن يد الثورة امهلتهم حتى يعودوا الى رشدعهم حتى اذا تبين لها استمرارهم فى خطتهم امتدت اليهم يد الثورة كما امتدت الى غيرهم من نواحي الفساد الشامل وقد اظهرت محاكمة رئيسهم وأعضاء الحزب . ماكانوا ينوونه من القضاء على الاقباط فى مصر .

وكان تعاضيد الاقباط لثورة الجيش قويا حين أعلنت حكومة الثورة ان اول اهدافها المحافظة على الوحدة المقدسة والضرب على ايدي العابثين بها . وكان الاقباط اول من كشفوا عن هذا الفساد الذى انتاب الحياة السياسية فعزفوا عن الاشتراك فيه وأضرب معظمهم عن الاشتراك فى الانتخابات . كما عزفوا عن التقدم لعضوية الهيئة التشريعية .

ولم يكن جهاد الاقباط فى النواحي غير السياسية ليقل شرفا عن جهادهم السياسى الناصع فى ميدان الاجتماع . اندفع الاقباط يجاهدون فى سبيل رفع المجتمع المصرى فأقبلوا على تأسيس الجمعيات القبطية التى تعنى بشئون اليتامى والفقراء والارامل والمعدمين فأصبح لهم حتى سنة ١٩٥٠ أى فى مدى ثلاثين سنة أكثر من ثلاثمائة وخمسين جمعية (١) بين صغيرة وكبيرة وجميع أموالها من التبرعات ولم يقتصر عملها على هذا بل امتد الى تدريس الدين لمن يرغب فى ذلك وتدريس اللغة القبطية وطبع الكتب بها ونشرها . وكذلك الطواف على الكنائس والاشتراك فى الصلاة والقضاء العظائم وتقديم المساعدات للكنائس . وتملك بعضها المستشفيات والصيدليات والمشاغل والملاجئ ما بين بنين وبنات . ويشرف على كل منها مجلس ادارة يتجدد أعضاؤه بالانتخاب سنويا ويظفنه الاشراف على جاسع المال . وصرفه فى مصارفه الصحيحة . وفى سنة ١٩٤٧ أنشئت رابطة لهذه الجمعيات باسم رابطة الجمعيات الخيرية القبطية هدفها تنسيق العمل بينها .

على ان اكبر الهيئات المشرفة على الأعمال الاجتماعية القبطية هى هيئة مدارس الاحد (التربية الكنسية) . وقد تألفت بمرسوم بطريركى فى سنة ١٩١٨ (٢) وهى كما تظهر من اسمها هدفها جمع الصبيان والشبان الاقباط

(١) الدليل العام للأقباط الفصل الثالث .

(٢) المدرسة الاكبريكية من ١٣٤٠ .

● يشير المؤلف هنا الى النشاط الارثوذكسي فقط لكنه لم يشر الى النشاط الكاثوليكي أو الانجيلي خصوصا فى ميدان التعليم ككلية اسبوط أو المستشفيات كمستشفى اسبوط وطنطا أو كلية اللاهوت الانجيلية ونشاط مدارس الأحد ... الخ (الناشر) .

في الكنائس بعد مواعيد الخدمة الدينية وتلقينهم اصول ديانتهم ما داموا لا يجدون من يلقيهم اياها في مدارسهم . وبمعنى أوضح تثقيف الشباب ثقافة دينية تقوم على شرح دروس الدين لتلاميذ المدارس الاميرية والاهلية . مستعينة في ذلك بالنشرات والفانوس السحري . يضاف الى ذلك العناية بنظافة طلبتها وصحة ابدانهم بواسطة معلمين اكفاء وحث الاولاد والبنات على المواظبة على التردد على الكنائس وتناولهم الاسرار المقدسة . وتعويدهم العبادة وتنظيم رحلات رياضية روحية وجسدية . وتدريبهم على الاشتراك في العطاء وتخصيص ما يتبرعون به لأعمال خيرية وتمرينهم على مواساة المرضى والفقراء .

وتعنى أيضا مدارس الأحد بأوقات الفراغ عند الطلبة خصوصا اثناء العطلة الصيفية فتجمعهم في نواديها لتجنبهم صحبة الاشرار وتعوضهم بدلا منها الروح المسيحية في جميع نواحيها الروحية والاجتماعية والثقافية حسب برامج موضوعة . وذلك نظرا لاشتراك نهري زهيد لا يتجاوز الخمسة قروش ولأجل أن يقوم على أساس تربوي صحيح انشأت ممهدا للمعلمين . طلبته من الحائزين لشهادة الاعدادية لاعدادهم ليكونوا مدرسين لهؤلاء الطلبة . وجمعت لهم راتبا شهريا مقررأ . منذ قبولهم بالمدرسة . ويبلغ عدد تلاميذ مدارس الأحد حسب احصاء سنة ١٩٥٠ ثلاثة وأربعون ألف طالب . أما عدد المدرسين فيبلغ ألفين وخمسمائة . ولم تلبث هذه الجمعية أن وسعت نشاطها فامتدت الى دراسة حالات المرتدين عن المسيحية وغير المعبددين وكذلك حالات التفكك العائلي والانحيار الداخلي لدراستها دراسة علمية ومحاولة علاجها قبل أن تستحل . وهي الآن تصدر مجلة شهرية باسم مجلة (مدارس الأحد) تعنى بشهر الابحاث الدينية علاوة على اهتمامها باصلاح أحوال الطائفة اجتماعيا وثقافيا . يشترك في تحريرها نخبة من الشباب الجامعي الذين تثقفوا ثقافة دينية عالية .

وقد بارك غبطة البطريرك هذه المدارس وأعلن سروره منها وتشجيعه لطلبتها في أوقات كثيرة بحضور الصلاة معهم . وإلتاء النصائح اليهم .

والى هذه الهيئة يلغزى فضل تنبيه المجلس الملي العام الى سوء حال

تعليم الدين المسيحي في المدارس الاميرية . بعد أن عمد نظار المدارس الى تغيير اللوائح والقوانين على غير الصورة المقصودة . فقد عمد بعضهم الى الهبوط بعند الحصص . وأرغم جميع الطلبة على حضورها غير مباليين باختلاف فرقهم (١) بل عمد بعضهم الى عدم الاهتمام بتدريس الدين كلية او جعلها صورية باضافة حصص الدين الى جدول كامل لمدرس مسيحي مما لا يؤدي الى اهمال تدريسه ما دام لا يجد رقابة فعالة عليه من هذه الناحية .

فكان من اثر هذا التنبيه المتواصل ان كتب المجلس الملى الى وزارة المعارف (١) في سنة ١٩٣٢ بلغت نظرها الى ان الوزارة لم تعد تعد طبعة معهد التربية المسيحية اعدادا يمكنهم من تدريس منهج الدين المسيحي مما جعل مستوى المدرس والتلميذ واحدا كما ان المناهج تعدل من آونة الى أخرى ويفضل تعديل منهج الدين المسيحي . ولم ينس المجلس ان يبدى في نهاية مذكرته أسفه لأنه يلح في عرض مطالبه نـلا يجد في الوزارة من يهتم بشأنها (٢) فطلب العناية بدرس الدين المسيحي والتفتيش على هذا الدرس باسعة مفتش قدير . وتدرّس هذه المادة للطلبة المسيحيين بمعهد التربية ثم تعديل منهج الدرس الديني بواسطة معنمين اعصاؤها على علم الدين المسيحي (٣) .

وقد عاون هيئة مدارس الأحد في ذلك جامعة الشباب القبطى التي أسست وفق أحدث أساليب الخدمة الروحية والاجتماعية والثقافية والرياضية وجعل مركزها مدرسة الاقباط بالروضة .

وليست (مجلة مدارس الأحد) هي الوحيدة التى تعنى بالشئون الروحية والاجتماعية للأقباط بل قام الى جانبها أربع عشرة مجلة بين أسبوعية وتُصنف شهرية تعنى كلها بمعالجة الشئون القبطية بمختلف مظاهرها ونواحيها . وليس ادل على الوعى القبطى من ان هذه المجلات لم تتركز

(١) المدرسة الاكثريكية ص ١٢٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٤ .

(٣) خطاب غبطة البطريرك الى وزير المعارف في ٣١ ديسمبر ١٩٣٤ .

كلها في انماهرة والاسكندرية بل تنشر في جميع مدن الجمهورية المصرية وتجد كلها من تيقظ الشعب صدى لدعوتها فهي لا تعتمد على التوزيع في الشوارع او اكشاك الجـرائد ولا على الاعلانات بل تعتمد كلها على الاشتراكات والتبرعات .

واذا ما تنبهت الامة عقب الثورة الكبرى الى ضرورة نشر التعليم بين الشعب واقبلت الحكومة على فتح مدارسها في كل مركز وبندر ومحافظة واقبل الشعب معها على فتح المدارس الاهلية معاونة الحكومة على اداء رسالتها لم يتردد الاقباط عن الاشتراك في هذا كله فاقبلوا على المدارس الاميرية مع اخوانهم يرثفون من مناهلها . كما اشترك الاغنياء في انشاء المدارس الاهلية فانتشرت مدارسهم الى جانب بقية المدارس فانتشرت من اسوان حتى الاسكندرية وهي دائها موضع الثقة من الجميع على السواء .

ورغم صدور الدستور وتعهد الحكومة بجعل التعليم الالزامى اجباريا لجميع الذكور والاناث تبين منذ اللحظة الاولى عجز الحكومة عن الوفاء بوعددها واصبح ما تفتحه من المدارس الالزامية رغم كثرة عددها لا يسد الا نسبة ضئيلة من احتياج البلاد . حتى اصبح وجود هذا النص في الدستور جبرا على ورق .

فلم يتردد الاقباط عن ان يشاركوا الحكومة في نشر هذا النوع من التعليم مجانيا فتألفت الجمعيات الخيرية في جميع القرى . واخذت على عاتقها فتح المدارس وتشجيع الطلاب على ورودها . وكانت اكبر الجمعيات العاملة في هذا الحقل (جمعية السيدات القبطية لتربية الطفولة) والتي بلغ عدد مدارسها تسعا وعشرين مدرسة تضم اكثر من اربعة آلاف طالب وطالبة (١) وتسير هذه المدارس وفق المنهج الوزاري مضافا اليه بعض المواد الاخرى كاللغة القبطية والالخان والطقوس وتاريخ الكنيسة ولدى الجمعية مفتشون يزورون هذه المدارس زيارات دورية يقفون على احوالها ومدى تقدم التعليم فيها . والى جانب التعليم تعمل الجمعية من جانبها على اثاره الروح الفنية

(١) مجلة الانوار عدد ٥ في ١٨/٨/١٩٤٦ .

بين أبنائها وبناتها فامتدت بعض هذه المدارس بأنواع النسيج اليدوية الذى له شهرة فى البلاد . كما أعدت الوسائل اللازمة لإنشاء خلايا النحل . هذا الى افساح المجال للتعبير بالرسم والتمثيل عن القصص الدينية . وقد وجهت الجمعية عنايتها أيضا الى الخدمة الاجتماعية فهى تقدم الغذاء للأطفال مرة كل اسبوع كما تقدم لهم الملابس فى كل مناسبة كما تعنى بالنواحي الصحية والرياضية والرحلات المدرسية والى لجنة مدارس الأحد يعزى فضل تنبيه وزارة (المعارف) الى ضرورة تعليم الدين المسيحى الى جانب الدين الإسلامى فى المدارس الإلزامية الحكومية فقدمت مذكرات كثيرة مستفيضة فى هذا الموضوع (١) .

ولم تقف نهضة الاقباط الثقافية عند هذا الحد بل اشتركوا فى نهضة بلادهم الثقافية عن طريق الكتب التى ألفوها فى مختلف ميادين النشاط الثقافى ومنها النشاط الدينى وقصود كثير منهم الى أوروبا يرتشفون من مناهل جامعاتها فى مختلف الشئون ووصل كثير منهم الى مناصب الاستاذية فى الجامعات عن جدارة واستحقاق .

وفى سنة ١٩٥٤ اشترك فريق منهم فى انشاء معهد الدراسات القبطية وهو معهد عال للدراسات والابحاث المتصلة بالثقافة القبطية فى جميع عصورها . وفى مختلف مظاهرها . الغرض منه تشجيع الباحثين والدارسين على دراسة العلوم القبطية وخاصة فى العصر القبطى الذى لقى من مناهج وزارة التربية كل اهمال .

ويحتوى هذا المعهد على اثنى عشر قسما هى قسم اللغات المصرية القديمة الآثار واقسام الدراسات التاريخية فالدراسات العربية المسيحية فالدراسات الاثيوبية فالافريقية فالسامية وكذلك الدراسات الاجتماعية علاوة على اقسام أخرى تهتم بدراسة اللاهوت والقانون الكنسى والالهيان والموسيقى الكنسية ثم قسما الفنون والتصوير .

(١) خطاب اللجنة العامة لمدارس الأحد الى أعضاء المجلس الكليركى فى ١٠ بشنس سنة ١٩٤٢ ش .

ومدة الدراسة فى هذا المعهد ثلاث سنوات يحصل الطالب فى نهايتها على دبلوم المعهد فى فرع التخصص وإذا ما قدم الحاصل على الدبلوم بحثا للتخصص فى موضوع معين يضيف جديدا الى الدراسات القبطية حصل على زمالة المعهد . ولا شك ان مثل هذا المعهد لو نظرت اليه الحكومة نظرة قومية خالصة وأسدت اليه يد المعونة المالية والعملية لأسدى بدوره الى البحوث العلمية الخالصة خدمة لا تقدر .

ولم يقف نشاط الاقباط الثقافى والفكرى عند حد الحدود المصرية بل تعداها الى خارجها ففى السودان حيث وصل عدد الاقباط الى أكثر من خمسة عشر ألفا (١) كلهم راق له ميول دينية توبة نحو كنيسه الارثوذكسية متمسك بعقيدته وتقاليدته ونجحوا الى حد كبير فى الاشتراك فى توجيه التيار الثقافى الى ما فيه خير المجتمع السودانى . فليهم هناك أكثر من خمس عشرة مدرسة تضم أكثر من ثلاثة آلاف طالب وطالبة . من المصريين والسودانيين وهى منتشرة فى تسع مدن من كبرى مدن السودان . ومن هذه المدارس أربع فى الخرطوم وثلاث فى العظيرة منها مدرستان ثانويتان للبنات وكذلك اثنتان ثانويتان للبنين والباقي بين ابتدائية واعدادية . وتشرف على هذه المدارس جمعيات قبطية أنشأها الاقباط وأمدوها بأموالهم كى تساعدهم فى نهضة البلاد الثقافية والاجتماعية . ومنها الجمعية الخيرية القبطية وجمعية الشابات المسيحيات . وجمعية الاصدقاء وكلها لا تعتمد على مساعدة مالية من أية جهة من الجهات . وقد أنشأت بعض هذه الجمعيات مكتبات يتردد عليها المصريون والسودانيون لأجل زيادة الاطلاع وتنمية مداركهم .

وفى انيوبيا أخذت البطيريركية توالى امداد المدارس الحكومية بالمدرسين المصريين الذين يساهمون فى نشر الثقافة المصرية فى البلاد الشقيقة وان كانت باللغات الانجليزية أو الفرنسية. ولم يكن هؤلاء المدرسون يناولون ابنه علوات من البطيريركية أو الحكومة المصرية . أو أية جهة أخرى . بل كانت مواردهم قاصرة على ما كانت تدفعه لهم الحكومة الاثيوبية الفقيرة وحدها من مرتبات غير مغرية .

(١) مجلة مار قرس عدد يناير وفبراير ١٩٥٤ .

وفى سنة ١٩٢٧ اشتركت وزارة (المعارف) مع البطيريركية فى الاشراف على من ترسله اليها من المدرسين المصريين وان كان هذا الاشراف مقتصرأ على الناحية الادبية دون أن يتعدى الى الناحية المالية — أو غير ذلك . بل ظلت بعض المناصب الثقافية الكبيرة فى هذا البلد انشئيق وثنا على المصريين يشغلونها اثر بعضهم وظل الحال كذلك حتى سنة ١٩٣٦ حين ابتليت البلاد الاتييبية بالاحتلال الايطالى .

ولكن لم يكد هذا الاحتلال ينزاح عن كاهل هذه البلاد وتعود اليها حكومتها التى أخذت فى اعادة تنظيم البلاد والعودة بها الى حياتها الطبيعية فى سنة ١٩٤١ حتى بادرت فولت وجهها شطر مصر من جديد لتمدها بعدد من المدرسين يستطيع أن يساهم فى بناء اتيوبيا الحديثه فسافرت اليها بعثة جديدة من المدرسين المصريين (١) كى يكونوا مدرسة ثانوية تكون ادارتها ومنهجها وروحها مصرية بحتة . ولكنهم ما ان وصلوا فى ابريل سنة ١٩٤٣ حتى رأت الحكومة هناك أن تستعين بأفرادها فى مختلف مدارسها بدل ان يتركزوا فى مدرسة واحدة خصوصا وقد كانت عمدة المدارس كلها فى يد موظفين بريطانيين لم ينالوا أى نصيب من الثقافة التعليمية أو التربوية . فكان ان وزعوا على أكثر من أربع مدارس . بن لجأت الحكومة الاتيوبية زوجات هؤلاء المدرسين وطلبت منهم أن يقوموا بالتدريس فى مدارس البنات الحكومية كى يساهموا مع أزواجهن فى المعركة ضد الجهل فلم يترددن فى الأخذ بنصيب من هذه المهمة دون أن يتطلعن الى ضآلة ما يدفع اليهن اذا قورن بما يدفع الى غيرهن من المدرسات الاجنبيات . وقد عمل رئيس هذه البعثة زمنا مديرا لمدرسة تفرى ماكونن ولكن لم تلبث الوزارة أن عينته مستشارا لها يشرف على مشروعاتها ويوجهها بل جعلته أيضا مشرفا على تعليم اللغة العربية فى المدارس الاسلامية وكلفته وضع كتب عربية متدرجة على أساس قومى . تكون مواضيعها مشتقة من البيئة الاتيوبية وحدها . وكان نجاحه فى هذه الناحية دافعا للجمعيات الاهلية الاسلامية لان تستعين

(١) كان المؤلف ضمن افراد هذه البعثة التى سافرت فى ابريل سنة ١٩٤٣ حتى مايو سنة ١٩٤٥ .

به في توجيه مناهجها . بل اعرف انه استشير في بعض الأوقات في تدريس الدين الاسلامي ومواده وتدرجها في مختلف السنين الدراسية .

وقد اعرب جلالة الامبراطور له في أكثر من مناسبة عن تقدير لعمله حتى تمنى أن يكون هناك أكثر من قبطى يستطيع أن يؤدي لاثيوبيا مثل هذه الخدمات الجليلة التي يقدمها هذا المستشار .

لكن اذا كان للأقباط أن يفخروا بكل هذه النواحي التي اتجهوا فيها الى الانتاج لما فيه من مصلحتهم ومصلحة أمتهم . إلا أن هناك ناحية أخرى لا يملك القبطى اذا اتجه الى دراستها سوى الشعور بالخزي . هى ناحية الدين . فقد كان دور الرعاية الدينية لهذا الشعب يكاد يكون سلبيا محضاً . وكانها عنى الاساقفة والمطارنة باختيار القسس من بين الجهلاء كى لا يرتقوا عن مدارك رؤسائهم حتى اضطر المجلس الملى أن يلفت نظر البطريك الى الحالة السيئة التي تردى فيها الاكليروس بسبب تجاهل المطارنة لخريجى الكلية الاكيريكية . فكان يقوم بتنبيههم الى ما يجب عليهم من اختيار القسس من بين المتعلمين (١) ولكن رغم كل ذلك حرص المطارنة على هذا التجاهل لأن الآخرين لم يكونوا يدفعون ما يتوقى المطارنة الى الحصول عليه . وقد أبدى كثير من المطارنة عطفهم على المدرسة الاكيريكية وخريجياتها في كثير من المناسبات لكن هذا العطف لم يتعد حد الكلام المنمق حين يقال أو يكتب .

وانا نجد هذه الحال مصورة تماما في تقرير رفعه ابراهيم تكلا عضو المجلس الملى الى أعضاء ونواب المجلس الملى العام ولجنة الكنائس في ٢١ مايو سنة ١٩٢٩ حين قال « انه لحال ينفر لها قلب كل مخلص لطائفته عندما يجتمع رجال اكليروسه وهم رعائهم وقادتهم فيجدهم يجهلون أبسط النظريات العلمية . فكيف بهم وهم يجهلون أصول دينهم . ولا أقول فلسفته . مع ان معرفة الدين يستدعى دراسة عميقة في العلم والفلسفة كما هو الحال في الطوائف الأخرى . التي أصبح الفرق بيننا وبينها فرقا شاسعا بين رفعة عظيمة عندهم وانحطاط مخز لنا — وكلما فكرنا في هذا الانحطاط وأسبابه اتجه

(١) المدرسة الاكيريكية ص ١٠٤ الى ص ١٠٨ .

نظرنا الى المدرسة الاكليريكية التى يتخرج منها رجال الكهنوت والوعاظ بوجه عام (١) ونيت الامر قاصر على خريجى المدرسة الاكليريكية اذ لو كان رجال الاكليروس من خريجى هذه المدرسة لهان الامر . لانهم افضل بكثير ممن يرسمون من عامة الشعب الجهلاء . وبعضهم لا يكاد يعرف القراءة والكتابة العربية .

« فكان من اثر ذلك ان انحطت المدرسة الاكليريكية ولم يعد يقبل عليها الا من لفظتهم المدارس المدنية . ومن ثم هبط مستوى التدريس فيها حتى كان اعلى مستوى وصلت اليه بعض المواد لا يتجاوز مقررات السنة الثالثة الثانوية . اما مواد الدراسة الدينية فمتوسطة ومعظمها سطحي » .

ولذا قرر المجلس الملى فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٢٨ تأليف لجنة تقوم بدراسة مشروع لتنظيم المدرسة الاكليريكية واصلاحها . وفوضت هذه اللجنة ان تتخذ فى هذا الشأن من القرارات ما تراه سواء من جهة تعديل نظام التعليم او تجديد عدد الطلبة او انقاص عدد المدرسين . او استبدال الموجودين بسواهم . او غير ذلك (٢) وقد اعترف رجال الدين انفسهم بهذه الحالة السيئة فى تقرير لهم مؤرخ فى ١٧ يوليو سنة ١٩٢٨ حين قال « ان معظم رجال الاكليروس القبطى فى جهل مطبق فى العلم والدين » كما اعترف « ان الفرق بين رجال الدين عندنا وعند غيرنا فى الطوائف المسيحية فرق شاسع جدا بين رفعة عظيمة عندهم وانحاط مخز لنا » (٣) .

ومع ذلك رفض المجمع الاكليريكى الموافقة على قرار للمجلس الملى العام بارسال بعثة لاهوتية الى انجلترا بدعوى (ان المجلس باقراره هذا الاقتراح قد تجاوز الاختصاص الممنوح له بموجب اللائحة مخالفا لنص المادتين ١٠ و ١٧ من لائحة ترتيب واختصاصات المجلس الملى العام . واعتدى

(١) المدرسة الاكليريكية ص ٦٨ .

(٢) المدرسة الاكليريكية ص ٧٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٨٣ .

• هذا الوصف لا ينسحب على كلية اللاهوت الانجيلية التى كانت تخرج القادة والمفكرين ولا تقبل الا خريجى المدارس الثانوية (الناشر) .

بذلك على سلطة الاكليروس ويكون قراره من هذه الوجهة باطلا ثانونا) .

وكان هذا الانحطاط الذى وقع فيه الاكليروس منذ زمن بعيد والذى بدأ واضحا للغاية فى سنة ١٩٢٨ هو الذى سبب الكارثة التى حاقت بالاقباط فى هذه السنة وما تلاها من الايام . فقد مات الانبا كيرلس الخامس فى اغسطس سنة ١٩٢٧ وكان المنتظر أن يكون البطريرك الجديد منتخبا بالشعب من طائفة الرهبان كما كان التقليد منذ دخول المسيحية الى مصر ويشترك فى انتخابه بعد تدقيق وفحص طويلين رجال الدين والشعب فأبى الفساد الذى امتد الى مناصب الاكليروس كلها فى ذلك الوقت الا ان يمتد ايضا الى اكبر منصب فيه فتمطع الى هذه الرئاسة بعض الاساقفة والمطارنة وعلى رأسهم الانبا يؤنس مطران البحيرة . فكان ان سعى الى هذا المصب بكل الطرق . وكانت أولى هذه الخطوات اصدار لائحة جديدة لانتخاب البطريرك فى أول ديسمبر سنة ١٩٢٨ تبيح ترشيح المطارنة للكرسى البطريركى دون أن تستند فى ذلك الى سند من التقاليد سوى قرار للمجمع المقدس فى يوليو سنة ١٩٢٨ يبيح ترقية المطارنة الاساقفة الى رتبة البطريركية وحصر انتخاب البطريرك من بينهم خلو الكرسى (١) وقد استند هذا القرار على كثير من المغالطات المقصودة والتخريجات البعيدة عن المنطق وكون هذه اللائحة مخالفة للتقاليد والقوانين الكنسية تدعو الاقباط ولا شك الى عدم الاعتراف بكل بطريرك يجلس على كرسى البطريركية طبقا لهذه اللائحة وما يشابهها . وانتهزت الحكومة القائمة فى ذلك الوقت هذه الفرصة السانحة لتهد يدها الى التقاليد القبطية فتهدمها كي يكون هذا التدخل سابقة لتدخل الحكومة فى كل اختيار لاحق . فكان ان تم الاتفاق بينه وبين الحكومة على حصر حق الانتخاب فى عدد ضئيل من الوزراء السابقين والحاليين وأعضاء مجلس الشيوخ والنواب الحاليين والسابقين وبعض أعضاء المجالس المليية السابقين واللاحقين أيضا فكان عدد هذه المجموعة ستة وتسعين أوصاهم توفيق دوس (الوزير القبطى آنذاك) واحدا واحدا ان يعطوا أصواتهم للانبا يؤنس (٢)

(١) الرحلة البطريركية ص ١٣ .
(٢) من المذكرات الخاصة بالسيد حبيب باشا المصرى باذن خاص من ورثته .

وفي يوم الانتخاب نال الانبا يؤنس سبعين صوتا من ٨٥ وهو عدد من أدلوا بأصواتهم . وبذلك ارتقى الانبا يؤنس الى منام مار مرقس بعد ان بذل في ذلك كرامته وكرامة الأقباط . ومنذ هذا اليوم eman الاقباط في نظر الحكومة بل في نظر أنفسهم .

وحاول الانجليز ان يصطادوا في الماء العكر : تقربوا بممثليهم الاسقف جوين الى فريق من الغاضبين وأهموهم انهم لو خرجوا عن طاعة رئيسهم وانزلوه عن السدة المرقسية لوجدوا من الانجليز عوناً . ولكن الاقباط — رغم عظم الطعنة التي أصابت تقاليدهم وكرامتهم على يد كل من الحكومة والاكليروس ابوا أن يكونوا مخلب القط (١) وأن يسعوا الى حتفهم بظلفهم فرضخوا ولكنهم قرنوا هذا الرضوخ باحتقار كل من سعى في هذا الامتحان أو اشترك فيه لأنهم وجدوا ان ما سعت اليه الحكومة أيام سعيد واسماعيل ونجحوا في الدفاع عنه آنذاك قد ضاع منهم بعد هذا العهد بخمسين سنة أو تزيد .

واذا كان الاقباط قد أجزموا في حق أنفسهم بتهاونهم هذا التهاون الجسيم فخطأ الحكومة في حق الوطن كان أشد وانكى . فهي بتدخلها قد اعتمدت على ما كان يتمتع به الاقباط طول تاريخهم — حتى في احك أوقاته — من حق انتخاب بطارتهم في حرية . وهو ما لم تحاول اشد الحكومات تعسفا واضطهادا أن تتدخل فيه . وكان من اثر ذلك أن حمل بقية الاقباط هذا العمل في أنفسهم وأيقنوا أن الحكومة في سبيل أن تحييد عن سياسة المساواة التي كفلها الدستور . ومنذ هذا الوقت انعدمت الثقة بين الحكومة والاقباط واصبحت العلاقة بينهما كالعلاقة بين الصياد والطائر . وزاد من يقين الاقباط بهذه الفكرة ما كانت تأتيه الوزارة الصدقية وأمثالها من وزارات الاقلية من أعمال أبعدتها عن حسن ظن الناس بهم .

وعاش الانبا يؤنس التاسع عشر الى سنة ١٩٤٢ حين توفي وانتخب الانبا مكاريوس مطران اسيوط قائمقام بطركيا . ولم يتعظ المطارنة بما فات من حوادث الاربعة عشرة سنة الماضية من امتهان مقصود لحقوق الاقباط من

(٣) نفس المصدر السابق .

ناحية الحكومة شجعها عليه ما شعرت من جميل على البطريرك . بل تطلعت .
نفوسهم التي أضلها الطمع مرة أخرى الى المنصب البطريركي ولو كان ذلك
على حساب الاقباط وكرامتهم . ولذا عملوا على تحدى ارادة الامة مرة
أخرى . ورشحوا بعضهم لمنصب البطريرك . ولكي يضمن الانبا مكاريوس
تعضيد الناخبين له . وعدهم أنه في حالة انتخابه سوف يقف في صف اشراف
المجلس الملى على الاوقاف الخيرية القبطية . حتى اذا نجحوا واخذوا في تنفيذ
وعده وقف اساقفة الاديرة في وجهه وابوا أن يسلموا للمجلس الملى بأى
اشراف . فوقع البطريرك بين المطرقة والسندان (١) واخذ يظهر الضيق من
آن الى آخر بالهرب الى الدير والامتناع عن نصريف الشؤون العامة ، ولذا لم
يكن ما أصاب الاقباط في عهد هذا الاخير بأقل مما أصابهم في عهد سلفه
من استمرار النزاع بين المجلس الملى (وهو الذى أصبح يمثل الاقباط تمام
التمثيل) وبين رجال الدين ممثلين في المجمع المقدس . علاوة على :

١ — نقل الكهنة من كنيسة الى أخرى رغم مخالفة ذلك للتقاليد
الكنسية .

ب — رسم الكهنة مقابل هدايا نقدية .

ج — خلو الابرشيات من الاساقفة زمنا طويلا حتى يوجد المرشح الذى
يدفع .

د — عدم اكتراث المطارنة في كثير من المواقف وتعديهم على ابرشية
مصر الاسكندرية يقيمون فيها الشعائر دون رقابة أو تصريح .

هـ — تناقص ايراد البطريركية حتى وصل الى درجة العدم

ولقد كان هذا الحال دافعا للبطريرك الى الندم والتفكير في تعديل لائحة
الانتخاب وقصره على الرهبان الذين لم يتعدوا درجة القمص الا أن غيره من
الاساقفة الذين كانوا ينتظرون موت البطريرك العجوز بفارغ الصبر لينالوا
حظهم من هذا الكنز وقف في سبيل هذه الامنية واذا كان الله قد شاء أن يرحم

هذه الأمة من هذا الخلاف ليتعظوا بما فات منهم ويعودوا الى سابق قناعتهم وزهدهم وتقاليدهم حين مات الانبا مكاريوس بعد عام واحد الا أن هذا الجشع وروح العناد والتحدى للأمة ظهرت بشكل واضح مرة أخرى في جماعة المطارنة والاساقفة فتقدم للترشيح للمنصب الانبا يوسابمطران جرجا وكان سابق تعليمه في اثينا واتقانه الفرنسية واليونانية دافعا لكثيرين أن يحسنوا الظن فيه فقبلوا ترشيحه رغم مخالفة ذلك للتقاليد .

وكان عهده أسوأ ما شهدت الأمة من عهود . إذ تسلط عليه جماعة من الجهلة غير المسؤولين . وتصرفوا في شئون التبسط المالية والروحية تصرفات شاذة . وانتشرت السيمونية وأصبحت صفقات هذه المناصب تعقد على قارعة الطريق في صراحة مخزية . بل حررت لاجلها عقود وصكوك . مما حدا بالاقباط وبعض المطارنة أن يطلبوا وقف هذا الهوان .

وكان تخلي بريطانيا عن انتدابها على فلسطين وتركها هذه البلاد دون أن تقيم بها حكومة تتسلم منا السلطات سببا في اعلان يهود فلسطين قيام دولة اسرائيل مما أدى الى زيادة شعور السخط من المصريين وكان ان قررت الحكومة المصرية ومعها الحكومات العربية دخول الجيوش العربية الى فلسطين من أجل الاطاحة بحكومة اسرائيل الجديدة ووضع الامر في يد العرب ولكن عدم استعداد الحكومات العربية للحرب وتفشى الخلاف بينهم ومعها أسباب أخرى كثيرة أدت الى هزيمة الجيوش العربية وكان طبيعيا أن يساهم المسيحيون بكونهم جزءا من الجيش المصرى فى هذه الحرب وان يسقط منهم ضحايا كما سقط غيرهم .

وزاد السخط بين المصريين حين تأزم الموقف أكثر من ذلك بين الحكومتين المصرية والبريطانية بسبب ميل الأخيرة الى عدم الجلاء عن مصر استجابة لطلب الأولى في عدم موافقة الثانية أيضا على اعتبار المسألتين المصرية والسودانية مسألة واحدة وإصرارها على عدم حل المسألة السودانية الا بعد الرجوع الى الشعب السودانى منفردا عن الحكومة المصرية مما أدى بالحكومة المصرية الى الغاء معاهدة الزعفران وتلقيب ملك مصر بلقب جديد هو « ملك مصر

والسودان « وتعويلها على سن دستور خاص بالسودان يقرر نوع الحكومة التى ستقام هناك وقد أدى هذا الأمر الى الهاب شعور الشعب المصرى كله بالسخط على بريطانيا وظهور حركة المقاومة المسلحة واعتدائها على قواعد الجيش البريطانى بمنطقة القتال وكان طبيعيا أن يكون شعور المسيحيين كجزء من الأمة المصرية لا يختلف مطلقا عن شعور بقية أفراد الأمة واشترك منهم كثيرون فى هذه الحرب التى أدت الى سقوط ضحايا آخرين من المصريين سواء من المسلمين والمسيحيين .

وكان الملك يخاف هذا التوتر الشديد بين الحكوميين وهو الحريص على صفاء العلاقة مع بريطانيا لانه يراها الضمان الوحيد لعرشه اذ كان فى نفس الوقت يعرف تماما ما يكنه له المصريون من كره وسخط بسبب مسلكه الفاسد وفضائحه التى كانت على كل لسان . فكان أن دبر وبعض أنصاره المجهولين حتى الآن أمر حريق القاهرة يناير سنة ١٩٥٢ .

وفى رأى انه كان المدبر الوحيد لهذا الحريق والدليل على ذلك ما فعله عمه توفيق من حريق الاسكندرية غداة اشتعال الشعور الوطنى فى سنة ١٨٨٢ ومنذ صرته للحكومة العربية وقد أدى هذا الحريق كما نعلم الى ضرب الحركة العربية من الخلف ثم الاحتلال البريطانى للبلاد .

وقد أدى حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢ الى نفس النتيجة وهى ضرب حركة المقاومة المسلحة فى منطقة القتال ثم اقالة حكومة الوفد التى شجعت على هذه الحركة ثم اطلاق يد الملك فى اقامة ضروب من الحكومات المتوالية يرضى بالتفاهم مع الانجليز وفقا لما يريدون .

هذا فى الوقت الذى كان بعض الضباط الذين اشتعلت فى نفوسهم روح السخط على الملك من جراء موقفه فى حرب فلسطين ثم من جراء فضائحه التى شاعت على كل لسان كما ذكرنا ثم زيادة نفوذ غير المسؤولين الى حد تدخلهم فى جميع الشؤون لغير المصلحة المصرية قد تجمعوا فى منظم سرى هدفه الاطاحة بهذا الملك الفاسد . والعمل على تقويم المصالح المصرية التى فسدت وأهمها الجيش ثم العمل على انتهاء الاحتلال البريطانى وحل المسألة السودانية .

وكانت الحالة بعد يناير سنة ١٩٥٢ تزداد سوءاً من جراء انطلاق يد
الملك في اقالة واقامة الوزارات المصرية على نحو واضح سوى الرغبة
في اظهار سلطته المطلقة ومنح المكافآت لكل من وقف في صفه واقتضاء
كل من عمل على معاكسته واستمر التنظيم السرى ينمو تحت الارض ويبلور
أهدافه ووسائله حتى قام بحركته المباركة في ٢٣ يوليو من نفس السنة التي
انتهت بزوال الملكية واقامة الجمهورية على قواعد جديدة اهم ما يعنينا منها
المساواة التامة بين جميع افراد الشعب دون اعتبار لجنس أو دين أو
مذهب .

خط همانون نقلا عن « العالم العربى الحديث »

للدكتور جلال يحيى ص ٢٠٢ وما بعدها

لا يخفى أنه منذ ابتداء دولتنا كانت الاحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيعة فى غاية المراعاة الكاملة ولذلك كانت قوة سلطتنا السنية وثبوتها مع راحة جميع الرعية ورفاهيتهم وعمار البلاد فى غيبة ما يكون من الكمال ولكن منذ ١٥٠ سنة لم يعد انقياد ولا امتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيعة لسبب ما طرأ عليها من الحوادث الكثيرة ، ولهذا تحولت تلك القوة الى ضعف والراحة الى التعب والعمار الى الدمار واية مملكة لا تقوم بحفظ القوانين الشرعية تؤول الى الاضمحلال ومنذ جلوس سلطتنا على تخت الخلافة اتجهت افكارنا الخيرية الى عمار البلاد وراحة العباد . فنظرنا الى مواقع ممالك دولتنا العلمية وارضائها الخصبة وقلبية اهلها واستعدادهم اذا اخذ فى عمل الوسائط اللازمة ، يشاهد سرعة حصول المقصود بتوفيق الله تعالى فى برهة خمس او عشر سنين .

فاعتمادا على عون الله تعالى واستعدادنا بروح نبينا قد شوهد من الأمور المهمة وضع قوانين جديدة لحسن ادارة دولتنا العلمية وممالكنا المحروسة ونتيجة خلاصة هذه القوانين هن عبارة عن منية الحياة وصيانة الوطن وحفظ شرف الانسان وامواله وتعيين مال الويركو وطريقة اخذ العساكر وحدة استخدامهم فلا يوجد شئ فى الدنيا افضل من الحياة والوطن والشرف . فالانسان اذا نظر الى هذه الامور وكانت على خلاف رضاه يئس من الحياة ويبادر الى حفظ حياته وشرفه بأعمال يؤدى بها الدولة والبلاد . وبخلاف هذا اذا كان مطمئنا على حياته وعرضه وشرفه لا يحسد عن طريق الاستقامة ويكون مجتهدا فى حسن خدمة الدولة والله . واذا كان الانسان غير مطمئن على ماله فيتأخر عن الاهتمام فى كل مايؤول لنجاح الدولة وعمار

البلاد بخلاف ما اذا كان مطمئنا عليه فيكون مهتما بأعماله ومجتهدا في توسيعها وتضاعف عنده الغيرة للدولة والله يحب الرطس . ويبذل نفسه دونها فهذا الامر يجب ان يكون مستعدا لكل فعل حميد . وأما ترتيب مال الويركو (اى مطالب الاميرية) فهو من اهم الامور لكون الدولة يقتضى لها نفقات كثيرة لتجهيز العساكر والدول ان تأخذ النفقات من الاهالى لصيانة المملكة .

ولقد امرنا برفع الحجز عن بيع كل صنف من البضائع والمحولات بيد شخص واحد الامر الذي كان الاقدمون يعتقدون انه أصل كل سعادة وتفرض الاموال الاميرية على انسان بحسب قدرته بالمال والاملاك . وأن لا يطلب منه شيء خلافه ومن الامور المهمة أيضا وضع قوانين لتحسين مصاريف عساكرنا البرية والبحرية .

ومن حيث ان صيانة البلاد امر واجب وفرض لازم فعلى الاهالى أن يبذلوا انفارا للعسكرية فقد امرنا بوضع قوانين في كينبة أخذ الانفار على قدر امكان كل مكان ومدة اقامتهم في سلك العسكرية أربع سنين أو خمس لانه اذا أخذنا انفارا أكثر من طاقة الاماكن أو مكثوا مدة حيانهم العسكرية يكون ذلك ظلما وضرا على العباد والبلاد ويصير الانفار يأسون من حياتهم اذا مكثوا مدة طويلة ومن الآن فصاعدا لا يقاس أحد لاسرا ولا جهرا بأى نوع كان من التقاصص الا بعد الفحص والتدقيق تطبيقا لشريعتنا الالهية ولا يسمح لأحد أن يبين شرف الآخر كائنا من كان .

ولكل واحد الحرية الكاملة أن يتمتع بأمواله واهله دون معارضة . كما أن اقارب المذنب لا يتقاضون بذنبه ولا يحرمون من ميراثه اذا كانوا ابرياء .

فلتعلم هذه الترتيبات الى جميع رعايانا من أى ملة كانت وليتمتع بها الجميع دون استثناء وليكن اطمئنانا كاملا ممنوحا منا الى جميع أهالى المملكة

على حياتهم وشرعهم وأموالهم حسب فرائض شريعتنا المطهرة ولتسد أمرنا
بوضع مجازر للأحكام العادلة يكون فيه وزراؤنا وكلاء رجال دولتنا يتكلمون
فيه بالحرية الكاملة لأجل ترتيب ما يلزم لاطمئنان الرعايا على حياتهم
وأموالهم ومعين الأموال الأميرية وأما الشرائع المختصة بترتيب العساكر
فنصير المناوضة بها في المجلس العسكري تحت نظارة السر عسكر وكل
ما يرتبوه من الأشياء المستحسنة يعرض لشدتنا السلطانية فنشرفها في
أعلاها خطا بيدنا الملوكية لأجل المصادقة ولما كانت هذه الترتيبات ليس لها
عناية سوى تقويم الديانة والدولة والشعب وخبر الملكة فعظمنا
الشاهانية ننمى أن لا تفعل شيئا مخالفا لها . ونؤكد على الإقامة بعهدنا
هذا نقسم بالله العظيم أمام كل العالم ووكلاء رجال الدولة في بيت الحرم
الشريفة ونحلفهم أيضا وبعد ذلك كل من يخالف هذه الترتيبات يصير على فور
ذنبه مع تطع النظر عن ربه وأعبار . وبما أن للموظفين ماهيات ثابتة
فيجوزي التخصيص الصارم على كل من يقبل الرشوة التي تحرمها الشريعة
الالهية ويكون سببا لسقوط الملكة وبما أن هذه التواني المتقدم ذكرها قد
جعلناها حراما عن التواني القديمة فنحنم أرادنا الملوكية في الإنسانية
العلية وفي سائر ممالكنا المحروسة وتعطى صورها أيضا إلى سفراء الدول
المتحابة الموجودين في دار السعادة العلية لتكون دولهم شهودا على دولتنا إلى
ما شاء الله وعد ذلك ليحفظنا الله بحفظه الأبدي وكل من خالف هذه
الترتيبات فيكون موضوعا للعنة الالهية إلى الأبد آمين .

مراجع البحث

- ابراهيم امين غالى :
الدبلوماسية الخديوية والمطامع الصهيونية
في شبه جزيرة سيناء .. مقال في مجلة
السياسة الدولية .
- ابراهيم عبده :
ابن تغرى بردى :
احمد شفيق :
احمد عزت عبد الكريم :
امين سامى باشا :
توفيق اسكاروس :
الجبرتى :
جولدشتين :
حبيب المصرى :
حسين هيكل :
دافيدسون :
رفعت رمضان :
رؤوف حبيب :
زاهر رياض :
الزير :
ساويرس بن المقفع :
- : تطور الصحافة فى مصر .
: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
: مذكراتى فى نصف قرن .
: تاريخ التعليم فى مصر .
: التعليم فى مصر .
: نوابغ الاقطاط ومشاهيرهم .
: تاريخ الجبرتى .
: الحضارة المصرية (ترجمة أحمد فخرى) .
: مذكرات خاصة غير منشورة .
: بطرس بىالى (مقال فى المجلة الجديدة) .
: صحوة افريقيا (ترجمة محمد عبد القادر حمزة) .
: مصر والسيادة على السودان .
: المعلم يعقوب (مقال فى صور من تاريخ القبط) .
: ١ — كنيسة الاسكندرية فى افريقيا .
: ٢ — مصر و افريقيا .
: ٣ — المعلم يعقوب (مقال فى مجلة المقتطف) .
: الزير باشا رجل السودان .
: تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية .

- السـخاوى : البدر الطالع بمحاسن من فى القرن السابع
 سليم حسن واحمد السكندرى : تاريخ مصر من الفتح العثمانى .
 عبد الرحى الرافعى : ١ - تاريخ مصر فى عهد الخديوى
 اسماعيل (مجموعة تاريخ الحركة
 الوطنية) مصطفى كامل باعث الحركة
 الوطنية .
- على امين : الكتاب المموج .
 حسين كمال : تاريخ السودان القديم .
 على ابراهيم : تاريخ الممالك البحرية .
 فتحى رضوان : مصطفى كامل .
 الشهيد محمد فريد .
- السكندى : القضاة والولاة .
 محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان .
 الحملة الفرنسية على مصر وظهور
 محمد على .
- المتـريزى : السلوك فى معرفة دول الملوك .
 ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر .
 ورن : صفحة من تاريخ القبط ترجمة جمعية
 مارمينا .
- يوسف جرجس : : الرحلة البطريركية .
 يوسف خليل : : انجلترا والجلء عن مصر .
 يونان لبيب : : الحياة النيابية فى مصر فى عهد الاحتلال .
 رمزى تادرس : : الاقباط فى القرن العشرين
 تاريخ تكلا هيمنوت مخطوط بمكتبة الدار
 البطريركية .

الكتاب الأخضر المصرى بشأن السودان
تذكار المؤتمر النقبطى .
المؤتمر المصرى .
المدرسة الاكليريكية .
السنكسار .
الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد .
علاوة على جرائد الاهرام . الوطن .
اللواء . المقطم .
ومجلات : آخر ساعة — اليمان —
اتوار . السياسة الدولية .

المراجع الأجنبية :

Anis : England and Suez Route in 18th Century

Abbas Mikky : British Policy in Sudan.

Budge, S. W. : History of Ethiopia and Nubia.

Baedeker : Egypt.

Gorbal and Others : The Unity of the Nile Valley

George Sobhy : Education in Egypt.

Kiriakos M. : Copts and Muslims under British Rule.

Levingstone : In the Darkest Continent.

Milner : Egypt and the Egyptian Question.

Ohr Walder : Ten Years in Mahdy's Captivity.

Omar Al-Tounsy : Voyage à Darfour (Traduction).

Cambridge Medieval History : Vol IV .

Pankhurst R. : Ethiopia.

المؤلف

دكتور زاهر رباض

دكتوراه في التاريخ الإسلامى
(جامعة القاهرة)

عضو بالجمعية التاريخية المصرية

عضو بالجمعية الجغرافية المصرية

عضو بجمعية الآثار القطرية

عمل مدرساً بجامعة القاهرة

وأستاذاً مساعداً بمعهد الدراسات

الأفريقية .

عمل أستاذاً زائراً بالفرنسا

وألمانيا الغربية والجزائر .

له سبعة عشر مؤلفاً